المـــملكـــة العربية السعوديَّـــة
وزارة التـَّعــلــيم العــالـــي
جامـــعة أم القرى بمكَّة المكرَّمة
كُلِّيَّـــة اللـــغـــة العـــربـــيَّـــة
قسم الدِّراسات العليا العربيَّـــة
فـــــــــــــرع الأدب

أَثَرُ الإِسْـــلامِ فِي نَقْضِ جَـــرِيرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ

رسالة مُقَدَّمَة لإكمال متطلبات نيل دَرَجَة الماجستير في الأدب العربي .

إعداد الطالب : عبد الله عطيَّة عبد الله الزهراني .

الرقم الجامعي : ٤٢٤٨٠١٩٨

إشراف الأُستاذ الدكتور :
حسن محمد باجودة .

العام الدراسي : ١٤٢٧هـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة

((أثر الإسلام في نقْض جريرٍ شعْرَ الأخْطَل)) .

رسالة ماجستير للباحث : عبد الله عطيّة عبد الله الزهراني .

الحمـــدُ لله ربِّ العالمـــين ، والصلاةُ والســـلام على أشـــرف الأنبـــياء والمرسلين ، سيدنا محـــمَّدٍ ، وعلـــى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

يتناول هذا البحث ((أثر الإسلام في نقْض جريرٍ شعر الأخطل)) كيف أَثَّرَ الإسلامُ في نقائض جريرٍ التي نَقَضَ بها قصائد للأخطل ، وكيف بدا واضحًا تأثُّر جريرٍ بالإسلام في تفنيده ادعاءات الأخطل .

وفي مقدّمة هذا البحث تناولتُ أهميتَهُ ، وأسبابَ اختياره ، والدراسات السَّابقة له ، وخُطَّتَهُ ، ومنهجَهُ.

وفي التَّمْهيد تطرّقْتُ للأصل اللُّغَويِّ لكلمة (نقائض) ، وتناولْتُ نشأةَ النقائض ومُقَوِّمـــات تلـــك النشـــأة ، وبعض رموز هذا الفنِّ ، وبيَّنْتُ موقف الأخطل من الإسلام والمسلمين ، وَفَصَلْتُ بين هـــذا الموقف وبين موقف الكثير من النَّصَارى الَّذين لا يشاركونه فيه ، بل هم أقربُ مودّةً للمســـلمين كمـــا وَصَفَهُم الله بذلك في القرآن ، فَهُمُ الَّذِين لا يســـتكبرون ، وهم أصحـــاب القلوب الرقيقـــة عـــــلى المسلمين .

وكان هذا البحث في بابَيْن اثنين :

الباب الأوَّل: الْقِيَمُ الإيمانية والسُّلُوكيَّة بين الإسلام والنَّصْرانيَّة في ظلِّ نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخْطل.

وكان هذا الباب في أربعة مباحث هي :

المبحث الأوَّل : الْقِيَمُ الإيمانيَّة في الإسلام على ضوء نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخطلِ .

المبحث الثَّاني : الْقِيَمُ الإيمانيَّة في النَّصرانيَّة على ضوء نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخطلِ .

المبحث الثَّالث : الْقِيَمُ السُّلُوكيَّةُ في الإسلام على ضوء نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخطلِ .

المبحث الرَّابع : الصِّفات السُّلُوكيَّةُ عند نصارى تغْلب على ضوء نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخطلِ .

الباب الثاني : الْقِيَمُ الفَنيَّة والْجَمَاليَّةِ :

وكان هذا الباب في ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأوَّل : المعجم اللغوي الشِّعري لجرير في نقضه شعر الأخطل .

المبحث الثَّاني : بناء القصيدة .

المبحث الثَّالث : الصُّور والتَّراكيب والإيقاع .

وأخيرًا أنهيتُ هذا البحث بخاتمةٍ تَنَاوَلَتْ أهمَّ نتائجه ، وأهم التَّوصيات التي يمكن الأخذ بـــها.

* * *

In the Name of Allah, the Merciful, the Benificent

Abstract

The Influence of Islam on Jareer's Refuting AI-Akhtal's Poetry

A Master Degree Thesis

By

Abdullah Atiyeh Abdullah AI-Zahrani

Thanks to Allah, Lord of Worlds. Prayers and Peace be upon the most honorable of prophets, our prophet Mohammed and his followers.

The study deals with the influence of Islam on Jareer's refuting AI-Akhtal's poetry and how the influence of Islam was clear in J areer' s refuting the claims of AI-Akhtal .

At the outset of the study, I highlighted its significance, reasons behind the choice of this topic, previous studies relevant to it , its plan and methodology.

In the introduction, I traced the linguistic origin of the term " Refutables " discussing its beginnings and principles, in addition to the major users of this kind of poetry .I also disclosed the grudge that AI- Akhtal bore toward Islam and Moslems. I isolated AI-Akhtal's attitude from that of other Christians who did not share him that grudge. In fact, such Christians were closer to Moslems. The Quran described them as those who did not brag of themselves and were kind-hearted toward Moslems.

The study falls into two chapters. Chapter one focuses on the behavioral and faith values in Islam and Christianity from the perspective of Jareer's refutation of al-Akhtal's poetry. This chapter is divided into the following four units:

1- Values of Islamic Faith in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
2- Values of Christianity in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
3- Values of Islamic behavior in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
4-Behavior descriptions of Taqhlib christains in the light of Jareer's refutation of Al-Akhtal,s.

Chapter two focuses on the Artistic and Aesthetic values. It is divided into three units.

The first one discusses poetic lingual lexicon of Jareer on his refuting Al-Akhtal's poetry .

The second focuses on the construction of the poem .

The third sheds light on images , structures , rhythm and tempo of the poem.

I concluded the study with findings and recommendations.

* * *

المُقَـــــدِّمَــــــة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله معزِّ من أطاعه واتَّقاه ، ومذلٍّ من أضاع أمرَه وعصاه ، أحمده حمداً يملأ أرضَه وسماه ، وأشكره على جزيل فضله وسوابغ نُعماه ، وأشهد ألاَّ إله إلا الله لا معبود بحقٍّ سواه ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله الذي اصطفاه ، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن تبع هداه إلى يوم الدِّين أما بعد ... فإذا كانت الجاهليّة وتحديداً العصر الجاهلي يمثل حقبةً زمنيةً جثمت بجميع تراكماتها على معاني الإنصاف والعدل والمساواة والقِيم والمثل ، وقبل ذلك خلَتْ من دينٍ يوحِّد النَّاس لعبادة ربٍّ واحدٍ ؛فإنَّه وبمجيء الإسلام – هذا الغائبُ المنتظر – استقامَتْ حياةُ البشر ، واستأنسوا بدينٍ وحَّدهم في ربٍّ واحدٍ ، وقبلةٍ واحدةٍ ، ونبيٍّ واحدٍ ، وهدفٍ واحدٍ .

غير أنَّ هذا الدِّينَ السَّمْحَ ومن أُرسلَ به ، ومن ناصرَ هذا الرَّسولَ – صلّى الله عليه وسلَّم – كان محلّ استهزاءٍ وكيدِ كثيرٍ من المندسّين والحاقدين﴿ **الذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**﴾ [هود :١٩,٢٠]، وممَّا أثار حفيظتي وآلمني كثيراً تلك الأبيات التي تجاوز فيها الأخطل الحدودَ ، وتجنَّى على الإسلام والمسلمين ، وهجا الأنصارَ – رضي الله عنهم – لا سيَّما حين قال :

ذَهَبَتْ قريشٌ بالمكارمِ والعُلا   واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ .
فذروا المكارمَ لستمُ من أهلها   وخذوا مساحيَكُم بني النَّجَّارِ .

فإذا كان الأنصار – وحاشاهم ذلك – هم أهلَ اللؤمِ ، وهم أعداءُ المكارمِ ، فَمَنْ هم أهلُ الوفاء ؟! ومَنْ هم أصحابُ المكارمِ ؟!

إذا عير الطائيَ بالبخل مادرٌ   وعير قُسًّا بالفهاهةِ باقلُ .
وقال السُّهى للشَّمسِ :أنتِ كسيفةٌ   وقال الدُّجى للصبحِ : وجهك حائلُ .
فيا موتُ زرْ ، إنَّ الحياة ذميمةٌ   ويا نفس جدِّي إنَّ دهرَك هازلُ .

ومهما كانت المبررات أو الأسباب التي حدت بالأخطل إلى هذا الهجاء فإنها لا تسوغ له مثل ذلك .

ومن هذا المنطلق ، وبعد أن أشار عليَّ سعادة الأستاذ الدكتور / حسن بن محمّد

باجودة- يحفظه الله – بهذا الموضوع ، قمتُ بقراءة كتاب (تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي –) للدكتور شوقي ضيف – رحمه الله – فوقفْتُ على إشارة خفيفة حول تأثُّر جرير بالإسلام في شعره ضمّنها الدكتور كتابَه حين قال : ((أمَّا جريرٌ فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيءٌ من المآثر الحميدةِ ،فانطوتْ نفسهُ على حزنٍ عميقٍ صفَّى جوهرها ، وزادَ في هذا الصَّفاء تأثُّرهُ بالإسلام إذ كان ديِّناً عفيفاً طاهرَ النَّفْس ...)) ، ثمَّ وقفْتُ على بعض الدِّراسات السَّابقة التي تحدَّثتْ عن أثر الإسلام في شعر جرير بن عطيّة على نَحْو رسالة الدكتوراه المقدَّمة من الباحث الدكتور خالد محمود محمد عزّام ، والتي بعنوان (أثر الإسلام في شعر جرير بن عطية) حيث كانت رسالة عامّة عن تأثر جرير بالإسلام في شعره ،بيد أنَّ رسالتي كانت عرضاً لجزئية دقيقة جداً هي (أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل) .

ولأنَّ جريراً هو من وقف في وجه الأخطلِ ،ونافحَ وناضلَ عن الإسلام والمسلمين ، وذبَّ عن الأنصار – رضي الله عنهم – فقد ازددتُ حرصاً على الكتابة في هذا الموضوع ، فإنَّ الأنصار كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام : ((الأنصارُ لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ ، ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبَّهم أحبَّه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله)) .

وإلى جانب ذلك كانت هناك بعض الأسباب التي آثرتُ معها أن أكتب في هذا الموضوع ؛ ومنها :

أوَّلاً : آثرت أن يكون موضوعُ البحث في تراثنا الإسلامي والعربي القديم حيث الأصالةُ ، والمرجعيَّةُ العلميَّةُ الرَّاسخةُ ، فلم يكد يترك الأقدمون للمحدثين شيئاً ، وإذا علمنا أنَّ المتأخرين قد تفرَّدوا ببعض المسائل ؛ فقد استأثر الأقدمون بالنَّصيب الأوفر ، فكلُّ الصيد في جوف الفَرا .

ثانياً : ما قد يردده بعضهم من وجود تعارض بين الإسلام وبين ما انتهجه جريرٌ في نقائضه ، بحجَّة أنَّ الإسلام ينهى عن الهجاء جملةً وتفصيلا . وأنا أوافقهم في جانب حثِّ الإسلام على عذوبة اللسان ، وخلوّه من البذاءة والفحش ، وأُخالفهم بقولي : إنَّ الإسلامَ دينٌ يوصي بالقوَّةِ ، وينبذ الضَّعفَ ،

والخضوعَ ،والاستسلامَ للخصم ،قال تعالى : ﴿وَلَمَن انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيهِم مِّن سَبِيل. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [الشورى:٤١و٤٢].

وقد رأيتُ من خلال قراءتي للكثير من الكتب ، والرَّسائل العلميَّة أنَّ الباحثين لم يعطوا هذه المسألةَ قدْراً كافياً من الدراسةِ والاهتمامِ ، خاصَّة في الجانب الذي يبرز ردَّ الشاعر جريرٍ بنِ عطيةَ على الأخطلِ ، وذبَّه عن الأنصار – رضي الله عنهم – بصفة خاصَّة ، وعن المسلمين بصفة عامَّة .

ثالثًا : القدم الراسخة لجريرٍ في ميدانِ الشِّعر ، ومضمارِ النقائضِ ، فهو شاعرٌ كبيرٌ لا يزال – في نظري – بحاجة لمزيد من البحث والدراسة .

وعندما قمت بجمع المادةِ العلميَّة ذاتِ الصِّلة الوثيقةِ بموضوع البحثِ أعرضتُ عن الأبيات التي أتخمها جريرٌ بالألفاظ البذيئة ، والكلماتِ الفاحشةِ ، والعباراتِ المبتذلةِ ؛ تنـزيهاً لهذا البحثِ ، والبعد به عمَّا لا يليق .

واعتمدتُ – في الغالبِ – على كتاب (نقائض جرير والأخطل) لأبي تمَّام ، في توثيق أبيات جريرٍ المتعلقةِ بنقضه شعْرَ الأخطل ، ثمَّ كان الاعتمادُ – بعد ذلك – على ديوانَي الشاعرَين وفق النُّسْخَتَين المدوَّنَتَين في هوامش هذه الرِّسالة .

وبعد أن اخترت العنوان الذي رأيته مناسباً ، وهو (أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل) ، استعنت بالله ، وبدأتُ رسالتي بالتَّمهيد الذي تناولت فيه الأصلَ اللُّغويَ للنقائض ،إلى جانب نشأتها ، ومقومات هذه النشْأة ، وأفردتُ رمزين من رموزها هما جرير والأخطل بشيء من تسليط الضوء على بعض جوانب شخصية كلٍّ منهما ، وعلى مترلتهما الشِّعرية إتماماً للفائدة .

و تناولتُ في التَّمهيد توظيف الأخطل لبعض المعاني الإسلامية فيما يخدم مصلحته ومصلحة قومه.

وقد قسمت رسالتي هذه على بابَين اثْنَين :

الباب الأول : القِيَم الإيمانيةِ والسُّلوكيةِ بين الإسلام والنَّصرانيَّة على ضوءِ نقْضِ جريرٍ شعْرَ الأخطلِ .

وقد أدرجتُ تحت هذا الباب المباحثَ التاليةَ :

المبحث الأول : القِيَم الإيمانية في الإسلام على ضَوء نقْض جريرٍ شِعْرَ الأخطـلِ ، حيـث حصرْتُ تلك القِيَمَ وفْق إشادةِ جريرٍ بها في نقائضه مـع الأخطل كما يلي :

أوَّلاً : الأفضلية في الدُّنيا والآخرة .

ثانيًا : الحج والتَّكبير والتَّهليل .

ثالثًا : المشاعر المقدَّسة .

رابعًا : السِّواك والنَّظافة والطَّهارة .

خامسًا : تلاوة سور القرآن الكريم ، واتِّباع هدْيه .

سادسًا : نصْرة الرَّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – والتَّصديق به .

سابعًا : عبادة الله في المساجد .

ثامنًا : اتِّباع سُبُل النبوَّة .

تاسعًا : غشيان الملائكة قبور المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم .

عاشرًا : إعطاء المسلم كتابه بيمينه .

المبحث الثَّاني : القِيم الإيمانية في النَّصرانيَّة على ضوء نقض جرير شعر الأخطل ؛حيـث تناولتُ تلك القيمَ كما جاءت في شِعْرِ جريرٍ ، وصنفتُها التَّصنيفَ التَّالي :

أوَّلاً : عبادة الصَّليب ، حيث دافعتُ عن استخدام جرير لكلمة (عبادة) في هـذا الصَّدد ، ودعَّمْتُ ما ذهبْتُ إليه بالأدلة .

ثانياً : أكل لحم الخـنـزير .

ثالثاً : قرْع النَّـواقيس .

رابعاً : لُـبْس برانِس الرُّهـبان .

خامساً : عـيـد الفِصْح .

سادساً : إتيان النِّـساء في المحيض .

المبحث الثَّالث : القِيم السلوكيَّة في الإسلام على ضوء نقْض جرير شعر الأخطل :

وكانت تقسيماتي لهذا المبحث على النَّحو التَّالي :

أوَّلاً : الخضوع لله وحده – دون سواه – وحمده وشكره .

ثانياً : الفخر برسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وبالأماكن المقدَّسة .

ثالثاً : طلب الشَّهادة في سبيل الله ، والتَّضرع إليه بالدُّعاء سرًّا وعلانية .

رابعاً : المسلم يأتمر بكلِّ ما أمر الله به ، وينتهي عن كلِّ ما نهى عنه .

خامساً : كثرة الاستماع إلى آيات القرآن الكريم .

سادساً :الكرم وإقراء الضَّيف وحماية النَّازلين والدِّفاع عنهم .

سابعاً : التأثر بألفاظ القرآن الكريم ، والحديث الشَّريف ، وبما فيهما من أحداث .

ثامناً : الغَيرة على المحارم .

تاسعاً : إقامة العدْل ، واستنكار الضَّيم .

المبحث الرَّابع : الصِّفات السلوكيَّة عند نصارى تغْلب على ضوء نقْـــض جريـــرٍ شِـــعْرَ الأخطل . حيث استخْلصتُ عدداً من الصِّفات من أبيات جرير التي نقض بها شعر الأخطل كما رآها هو ؛ وتلك الصِّفات هي :

الصِّفة الأولى : الذِّلَّة ودفع الجـــزيـــة .

الصِّفة الثانية : الختم على رقاب نصارى تغلب بطَابَعٍ من الرَّصَاص .

الصِّفة الثالثة : عدم إقامة العدل ، وعدم استنكار الضَّيم .

الصِّفة الرَّابعة : الخوف والجبن .

الصِّفة الخامسة : اللؤم والحـــماقة .

وفي نهاية هذا المبحث ذكرتُ أنَّ هذه الصِّفات إنَّما تعبِّر عن رأي جريرٍ ، وتعبَّر عن المرحلة النَّفسيَّة التي يمر بها في معرض هجائه للأخطل ، وحرصه على أن تكون الغلبة له بأي ثـــمن ولو كان ذلك بالمبالغة المفرطة ، أو بالتَّجني الزائد .

ثمَّ كان الباب الثَّاني الذي تضمَّن القيمَ الفنية والجمالية ؛ وقد كان تقسيمه على النَّحـــو التَّالي :

المبحث الأوَّل : المعجم اللغويّ لجريرٍ في نقضه شعر الأخطل . وقـــد تناولـــت فيـــه التَّقسيمات التَّالية :

أ- ألفاظ من جسم الإنسان وغيره .

ب- ألفاظ لبعض الأماكن والمواضع .

ج- ألفاظ الحرب .

د- ألفاظ من الطبيعة .

هذا وقد خلصْتُ في نهاية هذا المبحث ، وكما كتبتُ ذلك في الخاتمة ؛ إلى أنَّ جريراً يملك معْجَماً حربيًّا ، ومُعْجَمًا جغْرافيًّا ، ومعْجَمًا دينيًّا ، ومعْجَمًا علْميًّا تشريحيًّا، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على ثقافة الرَّجُلِ ، وسعةِ أفقه .

المبحث الثَّاني : بناء القصيدة ؛ حيث وقفْتُ في بداية هذا المبحث مع قصيدة الأخطل (خفَّ القطين) ، التي نقضها جريرٌ بقصيدته (قل للدِّيار سقى أطلالك المطرُ) لتكون من خلال تلك الوقفة الانطلاقةُ في بيان كيفيَّة بناءِ جريرٍ لقصيدته .

إن كلتا القصيدتين من الشعر الذي تبرز فيه اتجاهات كُلٍّ من الشاعرين وشخصيته في موضوع هذه الدراسة .

وانطلقت بعد ذلك لبناء تلك القصيدة من خلال إجراء المقارنات ، ومن خلال إبراز بعض الصُّور التي قامت عليها ، ثم أتيتُ بتقسيماتِ كُلٍّ من الشَّاعِرَين لقصيدته .

المبحث الثَّالث : الصُّور والتَّراكيب والإيقاع .

حيث تناولتُ فيه أوَّلاً : الصُّور ، وكانت كما يلي :

أ) التشبيه .   ب) الاستعارة .   ج) الكناية .

والتَّراكيب ، وكانت كما يلي :

١- الطِّباق .   ٢- المقابلة .   ٣- الاقتباس .

ثانياً : الإيقاع : وتناولت فيه نغَمَ الحروفِ والكلماتِ ، ثمَّ الوزن والقافية والبديع في نقْض جريرٍ شعْرَ الأخطلِ من خلال حصر البحور التي نظم عليها جريرٌ قصائدَه في نقضه شعْرَ الأخطلِ والتَّعْليقِ على تلك البحورِ ، وكيف ساعدت جريرًا في هجائه لخصمه .

ثمَّ تناولتُ في هذا القسم نغَمَ الألفاظِ الداخلي في حشو البيت من خلال النقاط التَّالية :

١- نغَم الاسم والفعل .

٢- نغَم الفعل والاسم .

٣- نغَم الاسم والاسم .

٤- نغَم الفعل والفعل .

٥- نغَم حُسْن التَّقسيم .

بعد ذلك كتبتُ خاتمةً تناولتُ فيها أهمَ نتائجِ هذا البحث ، وأهمَ التَّوصياتِ التي يمكن الأخذُ بها .

وفي نهاية صفحاتِ هذا البحثِ وضعتُ فهرساً للمصَادر والمراجعِ ، ثم فهرساً للمحتويات .

هذا وقد قمتُ بشرحِ كلِّ مفردةٍ تحتاج إلى شرحٍ ، واستعنتُ بعددٍ من الأبياتِ الشعريّةِ الرَّصينةِ المتناثرةِ خلال مباحث هذه الرِّسالةِ متى وجدتُ ذلك مناسباً .

وفي كلّ مرَّةٍ قمتُ فيها بقراءة هذا البحث ؛ أقومُ بالتَّعديلِ بإحلالِ عبارةٍ محلّ عبارة ، أو بالتَّقديمِ والتأخيرِ ، أو بالحذفِ أو بالإضافةِ ؛ بغيةَ الوصولِ إلى ما ترضى عنه النَّفسُ مطْلقاً ، وإلى ما يروق للقارئ تماماً ، وفي علمي ويقيني أنَّ ذلك من المحال ، فالكمال لله وحده ، والنقصُ مرْكَبُ البشرِ جميعاً .

وختاماً أسأل المولى – عز وجلَّ – أن يجعلَ هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يجزي كل من قدم لي يد العون خير الجزاء وفي مقدمتهم سعادة الأستاذ الدكتور / حسن بن محمد باجودة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين .

التَّـــمْهِـــيْد

أوَّلاً : النَّقَائِضُ :

أ – الأَصْلُ اللُّغَوِيُّ :

النقائض أصلها من الفعل (نَقَضَ) ، وقد وَرَدَ هذا الفعل في القرآن الكريم في صُوَرٍ شتَّى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [النحل : ٩٢] ، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل : ٩١] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٧] .

النّقْضُ : إفسادُ ما أَبْرَمْتَ من عَقْدٍ أو بناء ، و (النقْض ضدُ الإبرام ، نقضَهُ ينقضُهُ نقْضًا ، وانتَقَضَ وتَنَاقَضَ .... و النقيضةُ في الشعر : ما يُنْقَضُ به ؛

وقال الشَّاعِرِ : إِنّي أرَى الدَّهْرَ ذَا نَقْضٍ وإمْرارِ .

وكذلك المُنَاقَضَة في الشِّعْر يَنْقُضُ الشاعرُ الآخرُ ما قاله الأوَّل ، والنقيضةُ الاسم يجمع على النقائض[(١)].

وفي الصِّحَاح : (النَّقْضُ : نَقْضُ البناء والحبل والعهد . والمناقضة في القول : أن يتكلَّم بما يتناقضُ معناه . والنقيضة في الشعر : : ما يُنقَضُ به .) [(٢)]

* * *

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ، (نقض) ٧ / ٢٤٢ .

(٢) الصِّحَاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة ، إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر ، (نقض) ، ٣ / ١١١٠ .

ب – الـنَّـشْـأَةُ :

ذهب أحمد الشايب إلى أنَّ النقائضَ نشأت مع نشْأة الشِّعْر ، يقول : ((لذلك رأينا هذا الفن ينشأ في حظيرة الشِّعر الجاهليِّ طفلاً يحبو ، ثـمَّ تستقيم قدماه فينمو سريعًا حتَّى نراه شابًّا قويًّا ولاسيما في ظلال السيوف وبين (الأيام) ، فلمَّا جاء الإسلام ظفرَ به فـنًّا مُوَطأَ الأكناف ، كثير الأبواب فاستغلَّه في سبيل دولته ، حتَّى إذا جاء الأمويون أشـعلوه نـارًا موقدةً كانت في نزعتها رجعة جاهلـيَّـة عاصفة في ظل الدولة الإسلاميَّة))[1] .

فلا يمكنـنا أن نحدد عصرًا بعـينه لنشأة هذا الفن ، وترعرعه ثمَّ استوائه على سوقه !! إذ إنَّ قيامَ أي فنٍّ من الفنون لا بدَّ وأن تسبقه بعضُ الإرهاصات الـمُـمَـهِّدَةِ لقيامه .

* * *

[1] تاريخ النقائض في الشعر العربي ، أحمد الشايب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢ .

ج – مُقَوِّمَاتُ النَّشْأَة :

لقد قامت النقائضُ على مقومات عديدة اتكأت عليها ، وكانت بمثابة الحافز الأساس لها ؛ فهناك حياة الحرب والقتال التي كانت شائعةً في الجاهليَّة ، وحتمًا فقد أفرزتْ تلك الحياة إفرازاتٍ غذَّت النقائض حينئذٍ فصارت القصائد مثقلةً بذكر القتْلى والأسرى ، والإشادة بالانتصارات ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب ...

وهناك العامل النفسي ، وهو ما عبَّر عنه أحمد الشايب بـ (المصدر النَّفْسي) [1] حيث إنَّه من البدهي أنَّ مَنْ بدأ بالفخر أو الهجاء فإنَّه – لا محالة – سيجد مَنْ يقف في وجْهه مُفَنِّدًا لعناصر فخره أو هجائه ، منتصرًا لنفْسه أو قبيلته ، أو بما يتعلَّق بهما .

هذا فيما يتعلَّق بالعصر الجاهليّ ، وأمَّا حين جاء الإسلام فقد ظهر إلى جانب ما تقدمَّ – كمقوّم من مقومات النَّقَائِضِ – عنصرُ المفاخرة بدين الإسلام ، وبما ترتَّب عليه من تغيُّرٍ في المنظومة الاجتماعيَّة حيث جاءت المُثل الأخلاقِيَّة بمجيء هذا الدِّين ، وظهرت الإمارة ، وعَنَّ الجهاد كذروةِ سنام له ، ونحو ذلك مِمَّا أضاف مخزونًا هائلاً عند شعراء النقائض ، خاصةً فيما يتعلّق بمن يخالفهم في الدِّين ، أو بمن في دينه ضَعْفٌ وَدَخَلٌ .

وحينما يَتَقَدَّمُ بنا الزَّمن لنصل إلى العصر الذَّهبي للنَّقائض . وهو العصر الأموي نجدُ السِّياسة مقومًا أساسًا لها .

إنَّ السِّياسة في هذا العصر قد اخْتَلَفَتْ عنها في عصر النَّبيِّ – ﷺ – وخلفائه الراشدين – ﭫ – ذلك أنَّ سياسته – عليه الصَّلاة والسَّلام – كانت مرتبطة بالدِّين ، وكذا سياسة خلفائه ، فلم يكن – عليه الصَّلاة والسَّلام – مُفَضِّلاً قومًا على قومٍ ، أو أُسرةً على أُسرةٍ ، أو فردًا على فردٍ إلا بالتَّقْوى ، ويكفينا كشاهدٍ على ذلك قوله – عليه الصَّلاة والسَّلام – عندما سَرَقَتْ المرأة المخزوميَّة فجاءه أُسامة بنُ زيد يُكلمهُ في أمرها : ((لو كانت فاطمة لَقَطَعْتُ يدَها)) [2] ، وهكذا كان الحالُ عند الخلفاء الراشدين – ﭫ – .

---

[1] تاريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ٣٩ .

[2] صحيح البخاري ، ضبطه ورقَّم أحاديثه ووضع فهارسه : محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار التقوى للتراث ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ ، الجزء الثاني ، كتاب المناقب ، باب ذكر أسامة بن زيد ، ص : ٢٧٤ .

لكنَّ الحال السياسيَّة إبَّان العصر الأُموي أَخَذَتْ منحى آخر وكأنَّها بدأت في الابتعاد شيئًا قليلاً عن الدِّين ، وليس أدل على ذلك من تقديم عبد الملك بن مروان للأخطل – رغم نصْرانيَّتِه – على غيره من الشُّعراء المسلمين .

يقول أحمد الشايب : ((ولاسيما أنَّ عبد الملك بن مروان كان يؤثر الأخطلَ ، ويفضله على سائر الشُّعراء ، ويعدُّه شاعر أمير المؤمنين لإشادته بفضل أميَّة ، ولموقف قومه معهم على قيس عيلان ...)) [1] . فأي سياسة هذه السِّياسة التي تصطدم مع تعاليم الإسلام والله يقول : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال الدكتور شوقي ضيف – رحمه الله – : " فالظروف السياسية في هذا العصر وضعت قيسًا في صفوف المعارضة من بني أمية ، كما وضعت تغلب في صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيسًا وتغلب كانتا على طرفي نقيض في السياسة ، ... وعلى نحو ما استل رجال قيس وتغلب السيوف في هذه المعارك ، الحربية أستل شعراؤهما قصائد الهجاء في معارك لسانية .... " [2] .

ولا أنسى أن أشير إلى تلك الأنشطة السياسية والحزبية التي مارسها المنتمون لكل حزب سياسي في العصر الأموي فقد " رأينا أن المسلمين صاروا في أعقاب (صفين) أحزاباً ثلاثة : الخوارج ، والشيعة ، والأمويين أو الجماعة ، وبعد ذلك بقليل تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة جمعا للكلمة ودرءًا للشر " [3]

---

(١) تاريخ النقائض في الشِّعر العربي ، ص ١٨٠ .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٦هـ ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٥ .

ولكل حزب من تلك الأحزاب شعراؤه الذين لا يرون غيره ، ولا يهتفون بسواه الأمر الذي مكن لنشأة فن النقائض من خلال ما يُقال من قصائد هجائية أو فخريّة بين شعراء كل حزب .

وَتُعَدُّ الحياةُ الاجتماعيَّة في العصر الأموي وكذلك العصبيات القبليّة من أهم مقومات النَّقائض ، فمهْما حاول المرء التَّنَصُّلَ من حياته الاجتماعيَّة التي يعيشها أو عاشها آباؤه أو أجداده فإنَّه سيجد نفسه – شَاءَ أَم أَبَى – جامحةً إلى تلك الحياة في صورة مفاخرةٍ بقبيلةٍ أو نَسَبٍ ، أو أَرْضٍ ، أو شُخُوصٍ ، ... فلا غرو في أنَّ النَّقَائض في هذا العصر قد أخذت من الحياة الاجتماعيَّة وقودًا لها زاد من وهجها ، وأبقى شعراءها أشدَّ ولاءً وأكثرَ عطاءً لها ((فقد كان الفرزدق أشدّهم جاهليَّةً ومفاخرةً ، وجرير أقبحهم سفاهةً ، وأحسنهم إسلامًا ، والأخطلُ أحرصَ على نصْرانِيَّتِهِ ، وتغلبيَّتِهِ ، ولزوم ذي الرّمّة البادية يصفها وينسب بميّ وخرقاء ، وكان الرَّاعي كذلك يعتسف في شعره الفلاة بغير دليل ...)) [1] .

وقد عزا الدكتور إحسان النص اشتداد العصبية القبلية في العصر الأموي إلى دواعٍ اجتماعية ، ودواعٍ سياسية وأخرى اقتصادية . فأما الناحية الاجتماعية فمردها إلى انتقال جمهور القبائل العربية من الطور البدوي إلى الطور الحضري ، ولا شك أن هذا التطور يمثل خطوة أولية في سبيل القضاء على الروح القبلية . [2]

وكان كذلك للمصاهرات الدور الكبير في اشتداد العصبية القبلية ذلك حين رأينا حرص خلفاء بني أمية وأشرافهم على مصاهرة الأسر العريقة النسب .

أما الدواعي السياسية فقد كانت مقومًا مهمًا من مقومات أشتداد العصبية القبلية في العصر الأموي حيث إن بني أمية وجدوا في إثارة تلك العصبيات في بعض الأحوال كسبًا سياسيًّا لدولتهم " لأن اشتغال القبائل بعضها ببعض واندفاعها في تيار الخصومات القبلية

---

[1] تاريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ١٨٠ .

(٢) العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، د / إحسان النص ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م ، دار الفكر ، ص ٢٥٧ .

كان قمينًا بصرفها عن معارضة نظام الحكم الأموي ، كما كان قمينًا بالحيلولة دون تكتل القبائل المعارضة لحكمهم وتوحيد صفوفها "[1].

ولا يخفى أن كوكبة من الشعراء ظهروا في العصر الأموي لاسيما من عرفوا بشعراء النقائض كان لهم الدور الأقوى في إثارة تلك العصبيات بين القبائل " إمّا من طريق مباشر من دعوتهم القوم إلى الثأر وتحريضهم على قتال القبائل المعادية لهم ، وتحديهم خصوهم ، وإما من طريق غير مباشر هو تلك المفاخرات والمناقضات التي كانت تقع بينهم".[2]

وإلى جانب كلّ ما تقدّم فقد كانت حياة اللهو شائعة ، وكان الناس يميلون إلى الملاهي في معمعة فراغهم ((أما العوامل الاجتماعية فمردها إلى حاجة المجتمع العربي – خاصة في البَصْرة – إلى ضربٍ من الملاهي يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة ...)) [3] .

وإذا عَلِمْنَا أنَّ النقائضَ تقوم على أغراضٍ شعريَّة كثيرة ، فلا بُدَّ أن أُقَرِّرَ هنا أنَّ الهجاء يقع في المرتبة الأولى كغرضٍ قويٍّ لا يمكن أن تقوم النَّقِيْضَةُ – قيامها القويّ – بعيدة عنه ؛ سواءً كان ذلك قبل الإسلام أو إبَّان ظهوره ، أو بعد ذلك .

ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال عليه الصَّلاة والسَّلام لحسَّان بن ثابت – رضي الله عنه – : ((اهْجُهُمْ أو هَاجِهِمْ وجبريلُ معك)) [4] ، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام لِعُمَرَ بن الخطَّاب – رضي الله عنه – : ((خلِّ عنه يا عُمَرُ فَلَهِيَ أسرعُ فيهم مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ)) [5] .

---

[1] العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، ص ٢٥٧.

[2] المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

[3] تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي – شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٧ ، ص ٢٤١ .

[4] صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، كتاب بدء الْخَلْق .

[5] صحيح سنن الترمذي باختصار السَّند ، محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ، المكتب الإسلامي في بيروت ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤ . والحديث عن أنس : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول :

خَلُّوا بني الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ　　　اليوم نضربْكُمْ عَلى تَنْزِيْلِهِ .

ضَرْباً يَزِيْلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ　　　ويُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيْلِهِ .

فقال له عمر : يا بن رواحة !، بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي حرم الله تقول الشعر ؟

والحقيقة أنَّ الهجاء المقذع غير المسؤول ، الذي يكون فيه هتْك للعورات ، ونطقٌ بالمحرَّمات ، وخدْشٌ للمروءات هو هجاءٌ تُبغضهُ الطِّبَاعُ السَّليمةُ ، وتهفو إليه المريضة .

فما أجمل النقائض عندما تكون حميَّةً لله ورسوله ، ودفاعًا عن حِمَى الدِّين ، وأسوار الفضيلة ! وما أشنأها فخرًا بنسب وقبيلة ، وحمْدًا بفعلٍ باطلٍ ، وهتكاً للأعراض والحُرُمات !

وسواءً كان الهجاءُ تعريضًا أو كان تصريْحًا فإنَّ تجنُّبَ الفاحش منه ، ومن القذْف الذي يُحرِّمُهُ الإسلام هو الأجدر والأحوط .

أما بالنسبة للدَّواعي الاقتصادي التي أذكت العصبية القبلية في العصر الأموي فقد جاءت من رغبة كل قبيلة في الحصول على مكاسب مادية سواء كانت تلك المكاسب من مغانم الحروب ، أو ربما اتجه النِّزاع القبلي إلى الصراع التقليدي على موارد المياه ، ومنابت الكلأ.

ولقد استَهْجَنْتُ كثيرًا من تلك الأبيات التي أخفق فيها جريرٌ في هجائه وهو نفسُهُ يعترف بهذه الإخفاقات في أكثر من موضع عندما راجع هجاءه في أبياتٍ محدَّدَة عَلِمَ أنَّهُ تجاوز الحدَّ ، وجنحَ عن المقصود ، ومن ذلك ما نُقِلَ من أنَّهُ استغْفَرَ مِمَّا قاله في جعْثِنَ [1] حين قال :

((**أَتَمْدَحُ يَا ابْنَ الْقَيْنِ سَعْدًا وَقَدْ جَرَتْ**
لِجِعْثِنَ فِيْهِمْ طَيْرُهَا بِالأَشَائِمِ .

قال اليربوعيُّ : كَذَبَ عليها جريرٌ ، قال : وكان جرير يقولُ كثيرًا : أستغفرُ الله مِمَّا قلْتُ لجعثن ، وكانت إحدى الصالحات)) [2] .

---

[1] جِعْثِن : أخت الفرزدق لأبيه وأمه .

[2] نقائض جرير والفرزدق ، أبو عبيدة مَعْمَر بن المثَنَّى ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

ومِنْ هجائه الفاحش كذلك قوله [1] :

ضَرَبَ الخَمِيسُ عَلَى بَنَاتِ مُجَاشِعٍ
حَتَّى رَجَعْنَ وَهُنَّ غَيْرُ عَذارِي .

أستغفر الله مِمَّا قاله جرير فإنَّهُ قَذْفٌ يحرمه الإسلام ، والمسلمُ ينبغي أن يكون ملتزمًا بإسلامه ، ناشرًا لفضائله ، مُحَبِّبًا النَّاس فيه .

ويتعدَّى جرير في بعض أبياته على الفرزدق راميًا له بالفسق ، معترضًا على خِلْقَتِهِ التي خَلَقَهُ الله عليها فيقول [2] :

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاسِقًا
وَجَاءَتْ بِوَزْوَازٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ .

* * *

ثَانياً : مِن رُمُوزِ النَّقَائِضِ :

يُعتبرُ جرير والفرزدق والأخطل أهم رموز النَّقائض ، فهم الذين أذكوا نارها ، وحَدَّدُوا ميدانَها ، وخاضوا غمارَها .. ومع ذلك فليست النَّقائض حكرًا عليهم دون سواهم ، ولكنهم خدموها أكثر مِمَّا خدمها غيرهم ، وبما أنَّ البحث يتناول شاعرين اثنين هما جرير والأخطل فسوف أذكر نبذةً مختصرةً عن كل واحدٍ منهما إتمامًا للفائدة ..

١ – جرير بن عطيَّة : ٢٨ هـ – ١١٠ هـ :

هو جرير بن عطيَّة بن حذيفة الْخَطَفَى بن بدر الكلبي اليربوعي ، ولد في اليمامة سنة ٢٨ هـ ، ومات فيها سنة ١١٠ هـ [3] ، وهو من تميم وكان أشعر أهل عصره

---

[1] نقائض جرير والفرزدق ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

[2] ديوان جرير ، شرح حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ ، ص ٤١٣ .

[3] انظر الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة ، ج ٢ ، ص ١١١.

فقد عاش عمره يناضل الشُّعراء ويقاومهم شاعرًا شاعرًا ويهزمهم واحدًا بعد الآخر ، ولقد كان هَجَّاءً شديد الهجاء .

وهو أفضل شعراء عصره وأرفعهم منزلةً شعريَّةً ، قال محمد بن سلاَّم : ((ورأيتُ أعرابيًا من بني أسيد أعجبني ظرفه وروايته ، فقلت له : أيهما عندكم أشعر ؟ قال : بيوت الشِّعْر أربعة : فخرٌ ومديح وهجاء ونسيب ، وفي كُلِّهَا غلب جرير ؛ قال في الفخر :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ
حَسِبْتَ النَّاس كُلَّهُمُ غِضَابَا .

والمديح قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
وَأَنْدَى العَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ .

والهجاء قوله :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ
فَلا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلا كِلابَا .

والنَّسيب قوله :

إِنَّ العُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ
قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا)) [(١)] .

وقال الأصمعي (يذكر جريرًا) : ((كان يَنْهَشُهُ ثلاثة وأربعون شاعرًا فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدًا واحدًا ، ومنهم مَنْ كان ينفخُهُ فيرمي به ، وثبت له الفرزدق والأخطل)) [(٢)] .

---

(١) انظر الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ج ٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٧٢ .

وجرير من بني كليب بن يربوع ، وكان له أخوان عمرو بن عطيه ، وأبو الورد بن عطيه ، وكان له عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور منهم بلال من جرير وكان أفضلهم وأشعرهم[١] .

وكان جرير يُكَنَّى بأبي حَزْرَة .

٢ - الأخطل : ١٩ هـ - ٩٠ هـ :

أسمه غياث بن غوث بن الصَّلت بن طارقة بن عمرو بن التَّيحان بن فَدَوْكَس بن عمرو ابن مالك بن جُشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تغْلب الشاعر المشهور من الأراقم [٢].

" وقيل إن الأخطل أسمه غويث ، ويكنى أبا مالك " [٣]

والأخطل لقب غلب عليه ، ولقب به كما ذكر أبو عبيده بسبب أنه هجا رجلا من قومه فقال له : يا غلام ، إنك لأخطل ، فغلب عليه [٤] . وجاء في طبقات فحول الشعراء لابن سلام : (وكان كعب سماه الأخطل ، وذلك أنه سمعه ينشد هجاءً فقال يا غلام ، إنك لأخطل اللسان "[٥] وقد نقل صاحب الأغاني أسباباً عدة في عدة هذا اللقب .

وكان الأخطل في صغره يلقب دَوْبلا ؛ لأن أمه كانت ترقصه به [٦] .

---

[١] أنظر الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق : د / مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ ، ص ٣٠٤ .

[٢] المؤتلف والمختلف ، الآمدي ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١هـ ، ص ٢١ .

[٣] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١ / ٤٦١ .

[٤] الأغاني ، ٧ /٣٤٣ إلى ٣٤٨ .

[٥] طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلاّم الجمحي ، شرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١ / ٤٦٢ .

[٦] المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ٢ / ٤٣٠ .

كان شاعرًا مصقول الألفاظ ، حسن الديباجة ، مبدعًا في شعره ، اشتهر في عهد بني أمية بالشَّام ، وأكثر من مدح ملوكهم ، ولد سنة ١٩ هـ ، وتوفي سنة ٩٠هـ[١] .

وقد نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة (بالعراق) ، " ودان بالنصرانية كأكثر أهل قبيلته ، وبقي وفيًّا لدينه ، برغم تعرضه ــ فيما بعد ــ للامتحان باعتناق الإسلام ؛ فقد كان كثير الاختلاط بالمسلمين ، ... "[٢] .

واتصل الأخطل بالأمويين وكان شاعرهم ، وقد هاجى مع الشاعر جرير ، ومع الشاعر الفرزدق .

وكما نقل الزركْلي عنه أنَّه كان ينظم القصيدة ويسقط ثلثيها ثمَّ يظهر مختارها [٣] . كان يقيم أحيانًا في دمشق وحينًا في الجزيرة الفراتية .

هذا وكان للأخطل منزلته الشِّعرية الكبيرة فَقَد ((قيل للفرزدق : مَنْ أشْعَرُ النَّاسِ ؟ قال : كفاك بِي إذا افْتَخَرْتُ ، وبجريرٍ إذا هَجَا ، وبابْنِ النَّصْرانيَّة إذا امْتَدَحَ)) [٤] .

و ((سُئِلَ حمَّادُ الرَّاوِيَة عن الأخطل ، فقال : ما تسألوني عن رجل قد حَبَّبَ شِعْرُهُ إِلَيَّ النَّصْرانيَّة !)) [٥] .

((وقال أبو عُبَيْدَة : وكان أبو عمرو يُشَبِّهُ الأخطل بالنَّابغة لصحَّة شِعْرِه)) [٦] .

.

[١] الأعلام ، ٥ / ٣١٨ .

[٢] تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة د / عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١ / ٤٠٤ .

[٣] انظر الأعلام للزركلي ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

[٤] سِيَر أعلام النبلاء ، الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ ، ٤ / ٥٨٩ .

[٥] الأغاني ، ٧ / ٣٤٨ .

[٦] المصدر السابق ، ٧ / ٣٤٩ .

ومع تلك المنزلة الرفيعة للأخطل في مجال الشعر إلا أنه كانت له بعض السقطات في ذلك، قال ابن سلاَّم : " وكان الأخطل مع مهارته وشهره ، يُسْقِط . كان مدح سِماكًا الأسدي فقال :

نِعْمَ المُجيرُ سِماكٌ من بني أسَدٍ — بالْمَرْجِ ، إذ قَتَلَتْ جيرانَها مضرُ
قد كنتُ أحْسِبُهُ قينًا وأُنْبَؤُهُ — فاليومَ طَيَّرَ عن أثوابه الشَّرَرُ
إنَّ سِمَاكاً بنى مجداً لأسرته — حتى المماتِ ، وفِعْلُ الخيرِ يبتَدَرُ

فقال سماك : يا أخطلُ ، أردتَ مد يحي فهجوتني ! كان الناس يقولون قولا فَحَقّقْتَه . وذلك حين قال : (قد كنت أحسِبُهُ قيناً) [1].

وقد هجا الأخطل الأنصارَ — رضي الله عنهم — فقد طلب منه يزيد أن يهجوهم ! فقال الأخطل : كيف أصنع بمكانهم ؟ أخافهم على نفسي ! قال : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتي . فذلك حين يقول :

ذَهَبَتْ قريشٌ بالسَّمَاحةِ والنَّدى — واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصارِ [2]

* * *

(1) طبقات فحول الشعراء ، ١ / ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(2) المصدر السابق ، ١ / ٤٦٣ .

ثَالِثاً : توظيف الأخطل لبعض المعاني الإسلامية لمصلحته ومصلحة قومه :

مما قاله قوله في مدح عبد الملك بن مروان [1] :

الْخَائِضِ الغَمْرَ وَالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ
خَلِيفَةِ اللهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ .
بَنِي أُمَيَّةَ ، نُعْمَاكُمْ مُجَلِّلَةٌ
تَمَّتْ فَلا مِنَّةٌ فِيهَا وَلا كَدَرُ .
بَنِي أُمَيَّةَ ، قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمُ
أَبْنَاءَ قَوْمٍ ، هُمُ آوَوا وَهُمْ نَصَرُوا .
أَفْحَمْتُ عَنْكُم بَنِي النَّجَّارِ ، قَدْ عَلِمَتْ
عُلْيَا مَعَدٍّ ، وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا .

إلى آخر ما قاله في قصيدته ، وهو عندما يقول : (هُمُ آووا وهم نَصَرُوا) كأنَّه وبطريقة غير مباشرة يَنْقض قصيدة عبد الله ابن رواحة – رضي الله عنه – التي مطلعها [2] :

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ
وَاللهُ يَعْلَمُ أَنْ مَا خَانَنِي البَصَرُ .

فينْقض قول ابن رواحة :

وَلَوْ سَأَلْتَ أَوِ اسْتَنْصَرْتَ بَعْضَهُمُ
فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا آوَوا وَلا نَصَرُوا .

[1] ديوان الأخطل ، ص ٨٨ – ٩٥ .

[2] ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره ، د / وليد قصاب ، دار العلوم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ ، ص ١٥٩ .

ومن الأبيات التي قالها الأخطل وَحَمَّلَهَا بالرموز الإسلامية قوله [1] :

وَلَقَدْ وَطِئْنَ عَلَى الْمَشَاعِرِ مِنْ مِنَى
حَتَّى قَذَفْنَ عَلَى الجِبَالِ جِبَالاَ .

وقوله [2] :

جَزَاءَ يُوْسُفَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً
أَوْ مِثْلَمَا جُزْيَ هَارُونٌ وَدَاوُودُ .
أَوْ مِثْلَ مَا نَالَ نُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ
إِذِ اسْتَجَابَ لِنُوحٍ ، وَهْوَ مَنْجُودُ .
أَعْطَاهُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهُ
فِي جَنَّةٍ نِعْمَةٌ مِنْهَا وَتَخْلِيْدُ .

فمن يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها دون أن يعرف أن من قالها هو الأخطل يعتقد اعتقادًا قويًا أنَّها لشَاعِرٍ مسلمٍ تربَّى في حياض الإسلام وغَرَفَ مِنْ مَعِين القرآن الكريم .

وقد أنشد أمام هشام بن عبدالملك قصيدته التي منها قوله :

وإذَا افتقرْتَ إلى الذَّخائرِ لم تجِدْ
ذُخرًا يكونُ كصالحِ الأعمالِ

فقال له هشام : " هنيئًا لك أبا مالك الإسلامُ ! أو قال : أسْلمت " [3] والشواهد في ذلك كثيرة.

---

[1] ديوان الأخطل ، ص ١٩٨ .

[2] المصدر السَّابق ، ص ٧١ .

[3] طبقات فحول الشعراء ، ١ / ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

* * *

الْبَابُ الأَوَّلُ

الْقِيَمُ الإِيــمَانِيَّةُ وَالسُّلُوكِيَّــةُ بَيْنَ الإِسْلامِ وَالنَّصْرَانِــيَّةِ عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيْرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ .

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ :

الْقِيَمُ الإِيْـــمَـــانِيَّةُ فِي الإِسْلامِ عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ .

جريـــرُ بنُ عطيّة شاعرٌ عفـــيفٌ قال عنْهُ الـــدكتور / شوقي ضيف – رحمـــه الله – :
((أمَّا جريرُ فلم يكن لعشـــيرتهِ ولا لآبائهِ شـــيءٌ من المآثر الحمـــيدة فانطوت نـــفسُـــهُ على حزنٍ عمـــيقٍ صفًّى جـــوهرَهَا ، وزاد في هذا الصفاءِ تأثرهُ بالإسلامِ إذ كـــان ديِّنـــاً عفـــيـــفًا طاهر النَّـــفْـــسِ)) [(١)] .

فهذا الصَّفاءُ في نفْسِ شاعِرِنَا ، وهذا الْعَفَافُ ، وذَاك الطُّهْرُ كل ذلك كان له الكثيرُ من الانْعِكَاسَاتِ الواضحةِ حتَّى رأينَا شِعْرَه قَدِ انْطَبَع – إلى حَدٍّ كبيرٍ – بهذه الْخِصَالِ الدِّينيّةِ ، وازدادَ الأمْرُ وُضُوحًا حِين وَقَفْتُ عَلَى نَقَائِضِهِ مَعَ الشَّاعِرِ الأَخْطَلِ ، وَلا نَسْتَغْرِب إذَا تَبَدَّتْ لَنَا الْكَثيرُ مِنَ الْقِيَمِ الإيمَانيَّة الإِسْلامِيَّةِ جَلِيَّةً حينَ ينقُضُ جَرِيْرٌ قَصِيدَةً لِلأَخْطَلِ فَكأنَّ الإِسْلامَ أَصْبَحَ شِرْياناً مُهِمًّا مِنَ الشَّرَايينِ الَّتِي تُغَذِّي شِعْرَهُ عَامَّةً ، وَنَقَائِضَهُ مَعَ الأَخْطَلِ خَاصَّةً .

وإذا كان في شِعْر جرير الكثير من الخروقات لمثالية الشاعر المســـلم ، والعديـــد مـــن السَّقطات التي يُعلِّق عليها شانئوه بغضهم له ، وتحاملهم عليه ، فقد كفانا مشقّة الدفاع عنه حين أجابَ عن تساؤل وتعجُّب عثمان التَّيْميّ حيث جاء في سير أعلام النبلاء عن عثمـــان التَّيْميّ ، قال : ((رأيتُ جريرًا وما تُضَمُّ شَفَـــتَاه من التَّسبـــيح ، قلـــتُ : هـــذا حالُـــكَ وتقذِف المحصنات ! فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود : ١١٥] وعْدٌ مِنَ الله حقّ)) [(٢)] .

وَقَدْ قُمْتُ بِتَـــقْـــسِـــيمِ تِلْكَ الْقِيَمِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيـــمَانِيَّةِ كَمَا جـــــاءت في نقْـــض جريـــرٍ شِعْرَ الأخطل ؛ على النحو التالي :

أوَّلاً : الأفْضَلِيَّة في الدنيا والآخرة .

ثانيًا : الحج والتَّكبير والتَّهليل .

ثالثًا : المشاعر المقدَّسَة .

رابعًا : السِّواك والنَّظافة والطَّهارة .

---

(١) تاريخ الأدب العربـــي (العصر الإســـلامي) ، شوقي ضيـــف ، دار المعـــارف ، مصـــــر ، الطبعة السابعة ، ص ٢٨٦.

(٢) سِيَر أعلام النبلاء ، ٤ / ٥٩١ .

خامسًا : تلاوة سور القرآن واتِّباع هدْيه .

سادسًا : نصرة الرَّسول – ﷺ – والتَّصْديق به .

سابعًا : عبادة الله في المساجد .

ثامِنًا : اتِّباع سُبُلِ النُّبوَّة .

تاسِعًا : غشيان الملائكة قبورَ المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم .

عاشِرًا : إعطاء المسلم كتابه بيمينه .

* * *

أوَّلاً : الأَفْضَلِيَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ :

يجزمُ المسلمُ الحقُّ جزْمًا أنَّ الأفضليَّةَ لهُ في الدنيا وفي الآخرة ، فبهذه الحقيقةِ جاءنا القرآنُ الكريمُ مُبَشِّرًا المسلمين ، ومهنئًا لهم ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل : ٩٧] .

قال ابن كثير : ((هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المُتَابِع لكتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه – ﷺ – مِن ذَكَرٍ أو أُنثى من بني آدم وقلبُه مؤمن بالله ورسوله وأنَّ هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ؛ بأَنْ يُحْيِيَهُ الله حياةً طيبةً في الدُّنيا وأنْ يَجْزِيَهُ بأحْسَن ما عمله في الدَّار الآخرة ...)) [(١)] .

فَتَلَقَّفَ جريرٌ هذه الحقيقة فأكَّد فحْواها في قوله [(٢)]:

لَنَا الفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ
وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ .

إنَّهُ يفتخر على الأخطل بأنَّ قومه أفضل من الأخطل وقومه ؛ سواءً كان ذلك الْفَضْل في الدُّنيا أو في الآخرةِ ، وما ذاك بإرادةِ الأخطلِ وإنَّما هي حقيقة سَلَّمَ بها الأخطلُ أم لمْ يُسَلِّمْ . ولهذا قال : ((وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ)) ومعلومٌ أنَّ الرَّغَامَ هو الثَّرَى ، وقيل التُّرَاب اللَّيِّن وليس بالدَّقيق ، ويُقال : رَغَمَ أَنْفُهُ إذا خاسَ في التُّرَاب [(٣)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة ، ١٤١٣ هـ ، ج ٢ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، الإمام الشاعر أبو تمام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ ، ص ٦٩ .

(٣) لسان العرب ، ٢٤٧/١٢ .

وفي الحـديث الشَّـريف عن أبي هـريرة ، قـال : قـال رسـول الله – ﷺ – : ((رَغِمَ أَنْفُـهُ ، ثمَّ رَغِمَ أَنْـفُهُ ، ثمَّ رَغِمَ أَنْـفُهُ)) قِـيلَ : مَـنْ يَا رَسُـولَ الله ؟ قَالَ : ((مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَـيْـهِمَا ، ثُمَّ لَمْ يَدْخُـلِ الْجَـنَّةَ)) [1] .

ونَلْحَظُ في بيت جرير السَّابق أنَّه راعى في ترتيب الأفضلِيَّةِ من كونها أفضليَّة في الـدُّنيا أوَّلاً ثُمَّ يعقبُها أفضلية في الآخرة ما وَرَدَ من ترْتيبٍ لها في آية سورة النَّحْل السَّابِـقـة ، ولا أحسبُ ذلك من قَبِـيْل الصُّدْفَة وإنَّما هو أمرٌ تَـنَـبَّهَ لهُ جريرٌ جيِّدًا ونَظَم بيـتَه على أساسه ، فلله دَرُّهُ من شاعرٍ متأثر بالإسلام إلى هذا الحد في الوقت الذي نرى الكـثير مـن الشعراء يضْرب عن الإسلام صفحًا إلى أنْ يتأثر بأفكار وبـمدارس فكرية جَنَحَـتْ عـن الصَّوَاب ، وابْتَعَدَتْ عنِ الْجَادَّة .

ولقد أجاد جرير في هذا البيت أيَّما إجادة حيثُ قدَّم الْمُسْنَدَ وهو قوله : (لَنَا) علـى الْمُسْنَدِ إليه ، وهو قوله : (الفضل) وفي ذلك فائدة بلاغيَّة لا تخفى ، وهي إفـادة قصْـر المسند على المسند إليه ، فَكَأَنَّ الفضلَ مقصورٌ على جرير وقومه دون غيرهم ، وهذا يجعلنا نـتذكَّر قبل كل ذلك قوله تعـالى : ﴿ ... لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٤]، فلله تعالى وحده دون سواه الأمر ، كما أنَّ له – عز وجل – وحده دون سواه الخلْق .

ويواصلُ جريرٌ التَّغلغُلَ في تلك الأفضلية خاصة فيما يتناول جانبها الأول فيقول [2] :

إِنَّ الَّـذِيْـنَ اجْـتَـبَـوْا مَـجْـدًا وَمَـكْـرُمَـةً

تِـلْـكُـمْ قُـرَيْـشِـيَ ، وَالأَنْـصَـارُ أَنْصَـارِي .

والمعنـى : أنَّ الَّذِين كَسَبُوا المجـد والمكارم هم قريش والأنصـار . وقريـش هنـا يقصد بهم المهاجرين – رضي الله عنهم – .

---

[1] انظر صحيح مسلم ، تحقيق : أحمد زهوة ، أحمد عناية ، دار الكتاب العربي ، بـيروت ، لبنـان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ هـ ، ص ١٠٦٠ .

[2] انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٢ .

والمهاجرون والأنْصار يحبُّهم جرير حُبًّا جـمًّا ويشْرُفُ بهم ويفْخر ، وهو هنا يُعَـرِّضُ بالأخطل وقومه من التَّغْلبيين الَّذِين لا أمجاد لهم ، ولا مكارم يفخرون بها ، وليس لهم مـن الشَّرَف ولا من المفاخر شيء ـ على حد قول جرير ـ .

ونَلْحـظ التَّعبـيـر الدَّقيق لـجرير في قـوله : (قريـشـي) و (أنصـاري) فَإِنَّ المهاجـرين والأنصـار يُحِـبُّهم جريرٌ حـبًّا شَديدًا إلى الـحَدِّ الذي يَـدَّعِي معـه أنَّ كُلاًّ منـهمـا أهلـه وخاصـتـه ، فلم يقـل : (تِلْكُم قريـشٌ) وإنَّمـا قـال : (تلْـكُـم قُـرَيْـشِـيَ) ، ولم يَـقُـل : (والأَنْـصَـارُ أَنْـصَـارٌ) وَإِنَّما قال : (وَالأَنْـصَـارُ أَنْـصَـارِي) فهـم جمـيـعًا يـسكُـنُون في سويـداء القلـب ويـبـلغـون شِـغَافَـه .

ويـقـول جـريـر [1] :

إِنَّـا نُـفَـضَّـلُ فِـي الْـحَـيَـاةِ حَـيَـاتُنَـا
وَنَـسُـودُ مَـنْ دَخَـلَ الْـقُـبُـورَ قُـبُـورَا .
اللهُ فَـضَّـلَـنَـا وَأَخْـزَى تَـغْـلِـبًـا
لَنْ تَـسْـتَـطِـيْـعَ لِـمَـا قَـضَى تَـغْـيِـيـرَا .

إنَّ جريرًا في هذين البيتين يسْتَمِرّ في هجائه الأخطلَ ذاكِرًا تفْضِـيل الله – سبحـانه وتعالى – له ولقومه ، في الوقت الذي أخزى التَّغْلبيـين وأذلَّهُم . ثُمَّ أَكَّدَ جريرٌ أنَّ هـذا الأمر لا يستطيع الأخطل أنْ يغير فيه شيئا لأنَّ الله قَضَى به وقدَّرَ ، وهنا يتبـيَّنُ لنـا تـأثُّر جرير بالإسلام فهو يؤمن إيمانًا قويًّا بقضاء الله ، ويؤمن بأَنَّ الله إذا قَضَى أَمْرًا فلن يسـتطيع أحدٌ تغييره .

فـقـضاء الله جعل الأفـضلـيَّة لجرير وقومـه في الدنيا ، وجعل السـيادة لهـم والْعِزَّةَ مصاحـبـة لهم حتَّى في قبـورهم – على حـد قوله – ، وهو مـا يـدل علـى تَأَثُّر جـريـر بالإسلام في قضـية الحياة البـرزخـيَّة في القبـر ، وما يلقـاه فيـها الإنـسان سواء كان مسْـلمًا أو كـافـرًا .

[1] ديوان جرير ، ص ٢٠٤ .

وحين يقول جرير [(١)] :

مَا فِيكُمُ حَكَمٌ تُرْضَى حُكُومَتُهُ

فِي الْمُسْلِمِيْنَ ، وَلا مُسْتَشْهَدٌ شَارِي .

يقصد أنَّ الأخطل وقومَهُ – لأنَّهم من تغْلب – فَإِنَّ حُكْمَهُم مرْفوضٌ ، ولا يرضاه أحد من المسلمين ، فالْحَكَمُ من التَّغلبيين لا يرْضَى المسلمونَ بِحُكْمه ، والشَّاهد منهم لا تُقْبل شهادته ، وليس فيهم رجل شارٍ أي مُقَدَّمٌ في قومه ، فالعزَّة لله ولرسوله – ﷺ – وللمؤمنين ، وليس لكافر سلْطانٌ على مؤمن ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١]، قال ابن عبَّاس : ((ذاك يوم القيامة)) [(٢)] ، ((ويحتمل أن يكون المعنى : أي في الدُّنيا بأنْ [لا] [(٣)] يُسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكُلِّية وإِنْ حَصَلَ لهم ظفرٌ في بعض الأحيان على بعض النَّاس فإنَّ العاقبة للمتَّقين في الدُّنيا والآخرة)) [(٤)] .

ومفهوم المخالفة في هذا البيت والمعنى الذي يرْمي إليه جرير هو أنَّ الْحَكَمَ الَّذِي يُرْضَى حُكْمُهُ ، والشَّاهد الَّذي تُرْضَى شهادته ، والرجل الْمُقَدَّمُ في قوْمه ، كلهم إنَّما هم من المسلمين لا من غيرهم .

وهذه العزَّة الَّتي تفوَّه بها جريرٌ لم تكن لتحصل لولا ذاك الأثر القوي للإسلام فيه ، وهذا الاعتداد بالدِّينِ هو المصدر الأساس لكل هذه المعاني القويَّة .

وقد يكون مراد جرير بـ (المستشهد الشَّاري) هو الْمُسْتَشْهدُ في سبيل الله الذي شرى نفسه : أي باعها بالجهاد [(٥)] .

وأنا أُرَجِّحُ المعنى الأوَّل الذي ذكرته في معنى المستشهد الشَّاري وهو الشاهد المقَدَّم في قومِهِ لأَنَّ بداية البيت تُوْحي بذلك فالْحَكَمُ والرِّضَا بِحُكْمِهِ يقابله الشَّاهِدُ وقبولُ شهادته .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، ١ / ٥٨٠ .
(٣) [لا] زيادة لتوضيح المعنى فقط .
(٤) المصدر السابق ، ١ / ٥٨٠ .
(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

ثانيًا : الْحَجُّ وَالتَّكْبِيْرُ وَالتَّهْلِيْلُ :

يقول جرير [١] :

قَبَحَ الإِلَهُ وُجُوهَ تَغْلِبَ كُلَّمَا
شَبَحَ الْحَجِيْجُ وَكَبّروا إِهْلاَلاَ .
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ
وَبِجَبْرَئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالاَ .

يدعو جريرٌ على الأخطل وقومه بِأَنْ يُقَبِّحَ الله وجوههم كُلَّمَا شَبَحَ الحجيج أي : رَفَعوا أيْدِيَهُم ، لأَنَّ الشَّبْحَ (رفْع الأيدي بالتَّلْبِيَة والتَّكْبير أيضًا) [٢] .

وهم يستَحِقُّون هذا الدُّعاء بالتَّقْبيحِ لأنَّهم كذَّبوا محمَّدًا - ﷺ - وكَذَّبُوا جبريل وميكائيل - عليهما السَّلام - . وقبل ذلك عَبَدُوا الصَّليب الَّذِي يرمز - على حدِّ زعْمِهم - لِصَلْبِ المسيح عيسى بن مريم - عليه السَّلام - وهو لم يصْلَبْ وإنَّما هي أكْذُوبَةٌ وفِرْيَةٌ افتراها اليهودُ يدْحَضُها القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

[٢] المصدر السابق ، نفس الصفحة ، وفيها أيضا أن (الشَّبْحُ) رفعك يدك في الدعاء ، والشَّبحُ : مدك الرجل للضرب بالسوط ، والشبح : الصلب ، شبحه إذا صلبه .

ولله دَرُّ القائل [1] :

عَـجَـبًـا لِلْـمَـسِـيـحِ بَـيْـنَ الـنَّصَـارَى
وَإِلَـى أَيِّ وَالِـدٍ نَـسَـبُـوهُ ! .
أَسْـلَـمُـوهُ إِلَـى الْـيَـهُـودِ وَقَـالُـوا :
إِنَّـهُـمْ بَـعْـدَ ضَـرْبِـهِ صَـلَـبُـوهُ .
فَـإِذَا كَـانَ مَـا يَـقُـولُـونَ حَـقًّـا
وَصَـحِـيـحًـا فَـأَيْـنَ كَـانَ أَبُـوهُ ؟ !.
حِـيْـنَ خَـلَّـى ابْـنَـهُ رَهِـيْـنَ الأَعَـادِي
أَتُـرَاهُـمْ أَرْضَـوهُ أَمْ أَغْـضَـبُـوهُ ؟ .

وإذا كانت عبادةُ النَّصارى لِلصَّليب سببًا مُهمًّا بَرَّرَ به جريرٌ دعاءه عليهم بالتَّقْبِيح فهو أيضًا ينفي به من وِجْهَةٍ أخرى الشِّرْك عنه وعن قومه لأنَّه مسلمٌ مُوَحِّدٌ بالله وحده لا شريك له ، يحاول أن يكون أقرب إلى التَّوحيد الخالص ، وليس في عقيدته كَدَرٌ ولا لَبْسٌ . فلا مكان عنده لعبادة صَلِيب ، ولا يخالط فكْرَه تكذيب بمحمَّدٍ – ﷺ – أو بجبريل – عليه السَّلام – السَّفير بين الله وأنبيائه [2] . أو بميكائيل – عليه السَّلام – وهو المَلَكُ الموكَّلُ بالنَّبَاتِ والْقَطْر [3] ولا بغيرهم من الأنبياء والرُّسُل لأَنَّ الإيمانَ بالملائكة والإيمانَ بالرُّسُلِ ركْنَان من أركان الإيمان ، وجرير يعي ذلك تمامًا ، ويعي أنَّ الأخطلَ وقومَه بعيدون كلَّ البعْد عن صفاء الإسلام .

وجريرٌ حين يجعل من تكذيب الأخطل وقومه بالرُّسُلِ وبجبريل وميكائيل حجةً تُسَوِّغُ له الدعاء عليهم بالتَّقْبِيح كلَّمَا رفع الحجيجُ أيديَهم بالتَّلْبية وبالتَّكْبير إنَّما يضع القرآن الكريم أمام عينيه متمثِّلاً آياته المحْكَمة . وكأنِّي به حين نَظَمَ هذا البيتَ واضِعًا آيةً من

---

[1] انظر صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١ / ٣١٩ .

[2] انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ١٣٧ .

[3] المصدر السابق ،نفس الجزء ونفس الصفحة .

كتاب الله أمامَهُ وهي قولــه تعــالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

فالَّذِي يعادِي اللهَ ويُعَادي ملائكَتَه الأبرار المقرَّبين ، ويعادي رُسُلَهُ الَّذِين اصطفاهم على العالمين ، ويعادِي على وجه الخصُوص جبريلَ وميكائيل ؛ فَإِنَّ الله يبغضُه ويعاديه كائنًا مَــنْ كان وليس فقط من نَزَلَتْ فيهم هذه الآية ، وهم اليهود . ((وَلَمَّا كان ســبب نــــزول الآيتين [1] الكريمتين موقف اليهود من الْملكَيْن الكريمين جبريل وميكائيل فقد كان حــديث الآية الكريمة شاملاً لهذه الوجهة منعطفًا من بين سائر الملائكة إلى هذين الملكَيْن الكــريمين . إنَّ مَنْ استمرَّ على عداوته لجبريل – عليه السَّلام – وهو الذي لا يعْصي الله – تعالى – مــا أمَرَه ولا يفعل إلاَّ ما أمره به جل وعلا ، فذلك معناه أنَّه عدو لله تعالى ، وإِنِ اتَّشَحَتْ هذه العداوة ظاهرًا بسواد الْبُغْضِ لجبريل عليه السلام ...)) [2]

وإذا كان الله – تبارك وتعالى – في الآية الكريمة قد خَصَّ جبريلَ وميكائيلَ بالذِّكْرِ فهو من قبيل ذِكْر الخاصّ بعد الْعام لِلتَّشْريف والتَّعْظيم ((فإنَّهما دَخَلا في الملائكــةِ في عمــوم الرُّسل ثُمَّ خُصِّصَا بالذِّكْرِ لأَنَّ السِّياق في الانتصار لجبرائيل وهو السَّفير بين الله وأنبيائــه ، وقَرَنَ معه ميكائيل في اللَّفْظ لأَنَّ اليهود زعموا أنَّ جبريلَ عدوُّهم وميكائيلَ وليُّهُم فأعلمَهُم – الله تعالى – أنَّ مَنْ عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا ...)) [3] .

وهذا ما جعله جرير في ذهْنه عندما خصَّ المَلكَيْن كِلَيْهما بالــذِّكْر في البيــت الســابق تشريفًا وتعظيمًا لهما .

إنَّه التَّأثُّر الواضح بالإسلام حين يجعل الأديبُ والشَّاعرُ المسلمُ من دينــه نبراسًــا لــه ، ومنهجًا يسيرُ وفْقَ تعاليمه ، بل ويستفيد من كلِّ توجيهٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ ، ومن كــلِّ ومْضَةٍ تَشِــعُّ هنــا وهنــاك ، وهــذا ما كان عليه رسول الله – ﷺ – في تطبــيقه لِكُلِّ

---

[1] يقصد الآيتين ٩٧ ، ٩٨ من سورة البقرة .

[2] تأملات في سورة البقرة ، د : حسن محمد باجودة ، مكتبة دار مصر ، ١ / ٥٦٢ .

[3] انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ١٣٧ .

ما جاء في القرآن الكريم ، فعـــن سعد بن هشـــام بن عـــامر في قول الله – عز وجل – : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : سَأَلْتُ عائشةَ – رضـــي الله عنـــها – : يـــا أمَّ المؤمنين أنبـــئيـــني عن خُلُقِ رسول الله – ﷺ – فَقَالتْ : أتقرأ القرآن ؟ فقلت : نعـــم . فقالت : ((إنَّ خُلُقَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم القرآن)) [(١)] بمعنى أنَّه كان قرآنًا يسيرُ على الأرض ، يتخلَّقُ بالقرآن ، وينْطق بالقرآن ، ويسير والقرآن في صدره ، ويحكـــم بين الناس والقرآن أمامه ، ... وهكذا يجب على المسلم أن يكون .

وفي معرض تأَثُّر جرير بالإسلام في نقْضه لشعر الأخطل يستَمِرّ في الضَّرْب علـــى وَتَـــر الْقِيَمِ الإيمانيَّة في الإسلام والَّتي قام الدِّينُ عليها وفي مقدمتها الحجّ إلى بيت الله الحرام الَّـــذِي يُعْتبر الركن الخامس من أركان الإسلام . فحين ينوي المسلمُ الخروج إلى الْحَجِّ فإِنَّهُ يـــديرُ ظَهْره لِلدُّنيا ، ويزْهَد في زخارفها قاصدًا ثواب الله – عز وجل – والتَّحلّل من الـــذُّنوب ، والرجوع بعد الْحَـــجِّ – إنْ كَتَبَ الله له عمْرًا – نقيًّا من الخطايا مسْـــتَشْعِرًا قول النـــــبي – ﷺ – : ((مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ [(٢)] ، ولم يفْـــسق [(٣)] ، رَجَعَ كَيَوم وَلَدَتْهُ أمُّـــهُ)) [(٤)] وأما الأخطلُ وقومُهُ فَإِذَا حَجُّوا أخذوا أموالهم معهم ، وساروا والدنيا أمامهم ، وعن أيمانِهم وعن شمائِلِهم ، وفي قلوبهم ، وفوق ذلك لا يَتَطَهَّرُون ، وفي ذلك قال جرير [(٥)] :

قَـــومٌ إِذَا جَـــمَـــعُـــوا جَـــمْـــعًا لِـــحَـــجِّـــهِـــمُ
صَـــرُّوا الْفُـــلُـــوسَ ، وَحَـــجُّـــوا غَـــيْـــرَ أَبْـــرَارِ .

[(١)] المستدرك على الصحيحين ، الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨ هـــ ، ٢ / ٤٩٩ . قال الحاكم عن هذا الحديث : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه .

[(٢)] الرَّفَث : الْجِماع .

[(٣)] يفسق : لم يأت بسيئة .

[(٤)] صحيـــح البخاري ، ١ / ٣٦٨ ، كتاب الـــحَجِّ .

[(٥)] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

ويـــقـــول [1] :

تَلْــقَى الأُخَيْطِــلَ فِــي رَكْــبٍ مَــطَــارِفُــهُــمْ
بُــرْقُ الْــعَــبَــاءِ ، فَمَا حَــجُّوا وَلاَ اعْــتَــمَرُوا .

فجرير هنا يهجو التَّغْلبيــين ، وفي مقدمتهم الأخطــل بِأَنَّـــهُم يلبســون المطــارف والعباءات كما تلبسها النِّساء ، ومعلوم أنَّ المطارفَ هـــي (أردية من خزٍّ مربَّعة لها أعلام ، وقيل ثوب مربَّع من خزٍّ له أعلام) [2] ، ومن ذلك قول أَنسُ بن النَّضْر – رضي الله عنه – [3] :

فَــيَــا رَبِّ إِنْ حَــانَــتْ وَفَــاتِــي فَلاَ تَــكُــنْ
عَلَــى شَــرْجَعٍ يُعْــلَى وَخُضْــرِ الْمَطَــارِفِ [4] .

وكما قال آخر [5] :

وَإِنَّــا لَــنُــجْــرِي بَــيْــنَــنَا حِــيْــنَ نَلْــتَــقِي
حَــدِيــثًــا لَهُ وَشْــيٌ كَــحِــبْــرِ الْمَــطَــارِفِ .

ويهجوهم كذلك بِأَنَّهم لا يَحُجُّونَ إلى بيت الله الحرام ، ولا يعتمرون كالمسلمين .

وفي بيت آخر يقول جرير [6] :

الْــجَــاعِــلِــيــنَ لِمَــارَ سَــرْجِــس حَجَّــهُــمْ
وَحَــجِــيْــجُ مَكَّــةَ يُكْــثِــرُ التَّكْــبِــيــرَا .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

[2] لسان العرب ، ٩ / ٢٢٠.

[3] انظر على شبكة الإنترنت موقع : http://www.heartsctions.com/courage.htm

وهو بيت من عدة أبيات يقول فيها :

وَلَكِنْ أَحِــنْ يَوْمِــي سَــعِــيْدًا وفتــية يُمَسُّون في فــجٍّ من الأرضِ خــائــفِ .
عَــصَــائِب مِنْ شَيْــبَانَ أَلْفَ بَــيْــنَهُــمْ تُقَى اللهِ نَــزَّالُونَ يَــوْمَ التَّــزَاحُــفِ .
إِذَا فَــارَقُــوا دُنْــيَــاهُمُ فَــارَقُــوا الأَذَى وَصَارُوا إِلَى مَوْعُــودِ مَا فِي الْمَصَــاحِفِ .

[4] الشرجع : الطويل ، والمراد النعش .

[5] البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١ / ٢٨١ .

[6] انظر ديوان جرير ، ص ٢٠٥ .

ويستمر جرير في هجائه الأخطل وقومِه من التَّغْلبيين بأنَّ حَجَّهُم إنَّما يجعلونه لـ (مَارَ سَرْجِسَ) : وهو ((من الأولياء الَّذين يتعبَّد لهم بنو تغْلب وكانوا يحملون عَلَمَه في معارِكهم .)) [1] بينما يجعل المسلمون حجَّهُم خالصًا لله – تعالى – في مكَّةَ المكرمة حيثُ يُكْثرون من التَّكْبير ، وهنا يُبْرِزُ جريرٌ قيمةً إيمانيةً من قِيَمِ الإسلام يفتَخِر بها في مواجهة خصْمه ألا وهي قيمة عدم الإشراك بالله مُتَمَثِّلَةً في صرف عبادة من أهم العبادات ، (وهي الحج إلى بيت الله الحرام) لله – تبارك وتعالى – دون الإشراك معه ، ودون صرف شيء منها لغيره .

وهنا لفتة لطيفة في بيت جرير تُرَسِّخ التَّوحيد الخالص ، وتنفي الشِّرك ، وتطرد غواية الشيطان ، وتحمي مداخل الإيمان من أنْ يَتَطَفَّل عليها ما يخدش التَّوحيد ، وتقاوم لوثات الجهل والهوى ألا وهي قوله : (يُكْثِرُ التَّكْبيرا) وهو قول : الله أكبر ؛ فالحاجُّ المسلم يصلِّي لله ، ويذْبح لله ، ويدعو الله ، ويطوف حول الكعبة لله ، ويسعى بين الصَّفَا والمروة لله ، ويقف في عرفات لله ، ... ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وهذا التوحيد الخالص النَّقي لله – تعالى – يقابله الكفر عند الأخطل وقومه ويقابله الشِّرك المنافي للتَّوحيد ، فلْيَسْعَد المسلمون بتوحيدهم ، ولْيَشْقَ التَّغْلبيون بكفرِهم وَبِشرِكِهم .

[1] شرح ديوان جرير ، تاج الدين شلق ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩هـ، ص ٣١٩.

ثَالِثًا : الْمَشَاعِرُ الْمُقَدَّسَةُ :

تحظى المشاعر المقدسة في مكة المكرمة باحترام وإجلال عند المسلمين ، وفي اهتمامهم بها ، والشعور بالمهابة أمامها تعظيم لشعائر الله ، وتعزيز للتقوى ، ودليل على قوة الإيمان. وعلى ذلك فقد واجه جرير الأخطل بأن ذكَّره بتلك المشاعر المقدسة التي تنتشر في مهبط الوحي في مكة المكرمة كما في صعيد عرفات الطاهر ، وفي منى وفي غيرهما من البقاع الطاهرة .

قال جرير [(1)] :

هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشْعَرًا
أَو تَنْزِلُونَ مِنَ الأَرَاكِ ظِلالاَ ؟.

إنَّ جريرًا وهو يهاجم الأخطل ويهجوه إنَّما يشير إلى تفريط التَّغلبيين في جنْب الله تعالى ، وانحرافهم بالمناسك عن غايتها ؛ فالمشاعر المقدَّسة في الإسلام محددة معلومة ، والمناسك واضحة جليَّة . ولهذا فإنَّ صيغة الاستفهام الإنْكاري الَّتِي جاء بها جرير في هذا البيت إنَّما جاء بها ليعَبِّر عن الهدف الذي يريد الوصول إليه ، وهو نفي أنْ يكون التَّغْلِبيون – ومنهم الأخطل – يملكون مَشْعَرًا كتلك المشاعِر المقدَّسة الَّتِي يملكها المسلمون والَّتِي هي مواضع لمناسك الحجِّ عندهم ، وبذلك فإنَّ أولئك النَّصارى لا يقومون بشعائر الحجِّ كما يقوم بها المسلمون .. ومن هنا يتبيَّن لنا الفهم العميق – الذي يملكُه جرير – للغاية الصحيحة من الحجِّ في مختلف الديانات ، يُعينُه في ذلك ويؤازره ما جاء في القرآن الكريم من آيات تكْشِف اختلاف المناسك بين الأُمَم ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ ... ﴾ [الحج : ٦٧] .

(1) انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٢ .

قال ابن جرير : ((وَأَصْلُ الْمَنْسَكِ في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان وَيَتَرَدَّد إليه إما لخير أو شر قال : ولهذا سُمِّيَتْ مناسك الحجِّ بذلك لتردداد الناس إليها، وعكوفهم عليها)) [1] .
وقال الشَّوكاني – رحمه الله – : ((أيْ لِكُلِّ قرْن من القرون الماضية وَضَعْنَا شريعة خاصَّة ، بحيث لا تتخطَّى أُمَّةٌ منهم شريعتها المعيَّنة لها شريعة أخرى ...)) [2] .

والأصل في المناسك أنْ يوحِّدَ الله – تعالى – فيها ولكنَّ الأمم السَّابقة انْحَرَفَتْ عن هذه الْغاية ، ومنهم النَّصَارى ، يقول أبو الحسن النّدوي : ((ولِلْحَجِّ أيام معيَّنة يسميها اليهود في الشَّرق وشمالي أفريقيا أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم أن يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ...)) [3] . ويقول : ((أما الحجّ والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في ((دائرة معارف الأديان والأخلاق)) : ((الحج اسم لِلرِّحْلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياة الدنيويَّة لسيدنا عيسى – عليه السَّلام – في فلسطين ، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في ((روما)) أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزُّهَّاد والشُّهداء)) [4] . ويقول : ((أما الدِّيانات الهندية فقد كَثُرَتْ فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة المقدَّسَة ... وأكْثر هذه المشاهد والأمكِنة المقدَّسة على ساحل نهر ((الكنج)) (GANGES) المقدَّس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل ، للاغتسال في النهر المقدس ، ...)) [5] .

---

[1] تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٢٤٤ .
[2] فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدِّراية من علم التَّفسير ، الشَّوكاني ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ، ٣ / ٦٦١ .
[3] الأركان الأربعة (الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج) في ضوء الكتاب والسُّنَّة مقارنة مع الديانات الأخرى ، أبو الحسن علي الحسني النَّدوي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٢٨١.
[4] المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
[5] المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

و (الأَرَاك) وإنْ كان المراد به شجر الْمِسْوَاك [1] فإنَّ جريرًا جاء بذكْره هنا لِلدِّلالة على صَعيد عرفات الطاهر ، وهو المكان الذي إذا لم يقفْ فيه الحاجّ يوم التَّاسع من ذي الحجة فلا حجَّ لهُ ، فذكر الْحَالَّ وأرادَ الْمَحَلَّ ، بل وأراد فوق ذلك أن يُبَيِّنَ أنَّ الأخطل وقومَه لا يَقِفُون في هذا المكان ، ولا ينبغي لهم أن يقفوا إذ لا يقف فيه إلا مسلم .

وجريرٌ حين يحْسِمُ قضيةَ أنَّ مَنْ أشْرَك بالله لا ينبغي أنْ يُمَكَّنَ من المشاعر المقدَّسة ، ولا أن ينزل فيها إنما يعي تمامًا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] ،قال ابنُ كثير : ((أَمَرَ تعالى عباده المؤمنين الطَّاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين الَّذين هم نَجَس دينًا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ...)) [2] .

وجرير يفهم تمامًا حين هجا الأخطل وقومَه في البيت السَّابق ما جاء عن أبي هريرة أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق – رضي الله عنه – بَعَثَهُ في الحجَّة الَّتي أمَّرَهُ عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل حَجَّة الوَداع يوم النَّحْر في رهْطٍ يؤذنُ في الناس : ((أَنْ لا يحجّ بعد العام مشركٌ ...)) [3] .

* * *

[1] في لسان العرب : الأراك : شجر معروف وهو شجر السواك يستاك بفروعه . لسان العرب (أرك) ، ١٠ / ٣٨٨ ، .

[2] تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٦٠ .

[3] صحيح البخاري ، ١ / ٣٩١ .

رَابِعًا : السِّوَاكُ وَالنَّظَافَةُ وَالطَّهَارَةُ :

الدين الإسلامي دين يحث على نظافة الباطن والظاهر ، والنصوص الشرعية في ذلك أكثر من أن تُحصى ، وفيما يتعلق بنظافة الظاهر وهي النظافة الحسية فقد تنبه جرير إلى ما يضادها عند الأخطل وقومه فتصدى لهم من خلالها ، ومن خلال ما يعرف من نصوص إسلامية تجعل من المسلم غير النظيف مسلمًا ناقصًا في إسلامه ، لم يترقَ في درجات الدين الرفيعة ، و لم يتسنم علاها .

يقول الشيخ محمد الغزالي ــ رحمه الله ــ : " ولن يكون الشخص راجحًا في ميزان الإسلام ، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهذيب ، وكان في مطعمه ومشربه وهيأته الخاصة بعيدًا عن الأدران المكدرة والأحوال المنفرة ، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحًا ماديًّا فقط ، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس ، وتمكن الإنسان من النهوض بأعباء الحياة " . [١]

وفي هذا السياق قال جرير مشيرا إلى أمّ الأخطل [٢]:

لَمْ يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ عَلَى أَنْيَابِهَا
مَاءُ السِّوَاكِ ، وَلَمْ تَمَس طَهُورَا .

يهاجم جرير الأخطل في هذا البيت بقيمةٍ إيمانيَّة من قِيَمِ الإسلام لا توجد عنْده ، ولا عند قومه من التَّغْلبيين ، وهي النَّظافة والطَّهارة واستعمال السِّواك . وكأَنَّ جريرًا يريد أنْ يُقَدِّمَ درْسًا إسلاميًّا للأخطل وقومه يبيِّنُ فيه أهميَّةَ النَّظافة والطَّهارة في دين الإسلام ، والحثّ على استِعْمال السِّواك ووسائل النَّظَافَة ، وهذا الدَّرْس ما كان لجرير أن يقدِّمَه لولا أنَّه يَعِي تمامًا ما جاء في القرآن الكريم من نصوص تدعو المسلم إلى أنْ يكون نظيفًا طاهرًا بعيدًا عن كلِّ قذارةٍ أو نجاسةٍ ، ومن ذلك ما جاء من ثناء الله على أهل قباء الَّذِين جمعوا بين الاستِجْمار والاستنجاء ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

---

[١] أنظر خلق المسلم ، محمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة العاشرة ، ١٤١٣هـ ، ص١٥٩.

[٢] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٧ .

ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ويعي كذلك ما جاء في السُّنَّة المطَهَّرة من نصوصٍ في الحثِّ على النَّظافة والتَّطَهُّر على نحو قوله – ﷺ – : ((إنَّ هذا يومُ عيْدٍ جَعَلَهُ الله للمسلمين فَمَنْ جاء إلى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِل وَإِنْ كان طيبٌ فليمسَّ منه ، وعليكم بالسِّواك)) (١) .

كلٌّ تلك النّصوص وغيرها وعاها جرير وفهمها وَجَرَتْ على لسانه ونظمها شعْرًا فاسْتَنكر على أمِّ الأخْطل انحطاطها إلى أحَطِّ دَرَكَات القذارة – في نظره – فَعَبَّرَ عن ذلك بقوله : (لَمْ يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ ...) فكأنَّها من فرْط قذارتِهَا لَمْ تُحَاوِل قَطّ أنْ تعْتَنيَ بِفَمِهَا وَأَسْنَانِهَا وذلك لِمَا تَنَاهَتْ إليه من الْقَذَارَةِ ، وَإِلاَّ فَلاَ أَظُنُّ أَنَّها لَمْ تحاول يومًا مِن الأيام الاعتناء بنظافة الفم والأسنان !!.

وشتان ما بين أم الأخطل الَّتِي وَصَلَتْ إلى دَرَجَةٍ من الْقَذَارَةِ جَعَلَتْ جريرًا يَصِفُهَا بتلك الأوصاف وبين تلك المرأة النَّظِيفة الطَّاهِرَة في جَسَدِهَا المعْتَنِيَةِ إلى حَدٍّ كَبِيرٍ بنظافَةِ فَمِهَا وَأَسْنَانِهَا والَّتِي كَأَنَّما رِيْقُهَا قَدْ اخْتَلَطَ بِالْمِسْكِ فقال فيها جرير (٢) :

كَأَنَّ الْمِسْكَ خَالَطَ طَعْمَ فِيْهَا
بِمَاءِ الْمُزْنِ يَطَّرِدُ الْحَبَابَا . (٣)

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ هـ ، المجلد الأول ، ص ١٨١ ، والحديث عن ابن عباس .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢٠ .

(٣) حباب الماء موجه ، الذي يتبع بعضه بعضا ، ... وقال الأصمعي : حباب الماء الطرائق التي في الماء كأنها الوشي.) أنظر لسان العرب "حبب "، ٢٩٥/١. (وحباب الماء بالفتح : معظمة. قال طرفة:

يَشُقُّ حَبَابَ الماءِ حَيزُومُهَا بِها كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المغَايلُ باليدِ

ويقال أيضا حباب الماء : نفاخاته التي تعلوه ، وهي اليعاليل .) أنظر الصحاح " حبب "، ١ / ١٠٦.

ويستمر جرير في وصفه لقذارة أمِّ الأخطل فيقول : (وَلَمْ تَمَس طَهُورا) فهـي امـرأة نجسةٌ – في نظره – بكلِّ ما تعنيه كلمة نجاسة من معنى ، وكأنَّها لم تَتَطَهَّرْ بالمـاء منـذُ أنْ خُلِقَتْ ، بل وأكثر من ذلك أنَّها لم (تَمس) – مجرد مساس – الماءَ الطَّهور .

إنَّ جريرًا وهو يُلقي بسهْمه هذا تجاه الأخطل قد ظَفِرَ بهدفين اثنين فأصابهما في مقتلهما في وقت واحد ، إنَّهما الأخطل وأمُّه ، وربَّما أصابَ أهدافًا غيرهما !! وهذا هو الهجـاء المقْذع الَّذي عُـرِف به جرير والذي لم يسـتـطع معه أكثرُ مـن أربعـين شـاعرًا ، الوقوف في وجهه .

لقد كان لجرير وهو يهجو الأخطلَ مَدَدٌ عظـيمٌ من الْقِيَمِ الإيمانـيَّـةِ في الإسـلام ، زَادَ من قُوَّةِ شعْره ، وأذْكَى معانيه إذْكاءً ، وزادها قوَّةً وصَلاَبةً ، فالسِّواكُ ومـا وَرَدَ مـن حثِّ الرَّسول – ﷺ – على استعماله ، والطَّهارة وما جاء في الإسلام من تأكيدٍ عليهـا ؛ كُلُّهَا قَيِمٌ إيمانيَّةٌ في دين الإسلام وظَّفَها جريرٌ في هجائه الأخطل فأَذَاقَهُ بها سمًّا زُعافًا ، ومُهْلاً يغلي في بطْنه ، وكأنَّما جرَّعَهُ غُصَصَ الموت مع كلِّ كلمة يسمعها .

إنَّ جريرًا حين يؤكِّد مكانة النَّظافة والطَّهارة في الإسلام ، وحين جَعَلَ منْهما أمْرًا مُهِمًّا يدْفع به هجاء الأخطل ويردُّ به كيْدَه ومكْرَه فهو إلى جانب ذلك يُريد أنْ يبثَّ الحياةَ مـن جديدٍ في هاتين القيمتَيْن الإيمانـيَّـتـين ، ولِيُذَكِّرَ بهما الجميع ، فالمسلم إذا كان نظيفًا في جسْمه وثيابه ، وذا رائحة زكيَّة كان راضيًا عن نفسه ، مُعْتدًّا بها ، فخورًا بالْتِزامِهِ بما هـو من الإسلام السَّمْحِ ، إلى جانب اكتسـابه محبَّـة الآخرين ، وعدم نفورِهم مـن التعامـل أو التَّحدُّث معه.

وتأتي قاصمة الظهر حين هجا جرير الأخطل بقوله [1] :

وَلاَ يَـتَّـقُـونَ مَـحِيـضَ الـنِّـسَـاء
وَلاَ يَـسْـتَـحِـبُّـونَ أَطْـهَـارَهَـا .

إنَّها قذيفةٌ قـويَّةٌ وجَّهَـهَا جرير نحو الأخطل وقومِهِ لم يكونوا يحسبون لها حسـابًا ، فهم لا يتَّقُون محيضَ النِّساء ولا يـجـتـنـبونهُـنَّ وقْت الحيض ، وفي استعمـاله لكلمة

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(يتَّقُون) ما فيه من تمثُّل معاني الاتقاء الّتِي تدلّ عليها هذه الكلمة في القرآن الكريم على جهة الخُصوص في مثل قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل : ١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : ٥٢] . وغير ذلك من الآيات الكريمات الّتِي وَرَدَت فيها جملة (تَتَّقُون) في معْرِض أمور مُهِمَّةٍ ، عظيمةِ الخطْب ، جليلةِ الْقَدْر ، رفيعةِ المنزلة ، عاليةِ المكانة .

وإذا لاحظنا – كذلك – جملة (يَسْتَحِبُّون) في البيت السَّابق نجد أنَّها جملة مُسْتَقِرَّة في مكانها مناسبة لما بعدها تذهب بالسَّامع عند سماعها إلى نفس الجملة في القرآن الكريم في مِثْل قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴾ [إبراهيم : ٣] فلم يقُلْ جرير (يُحِبُّون) وإنّما قال : (يسْتَحِبُّون) ومعلوم أنَّ زِيادَة مبنى الكلمة يدلُّ على زِيادة معناها ، فهي مبالغة من جرير توْحي بأنَّ هؤلاء القوم ، من شِدَّة رغْبتهم في إتْيان النِّساء في المحيض رغم ما في ذلك من نَجاسة وبُعْدٍ عن الفطْرة السَّوِيَّة فهُم يسْتَحِبُّونَ إتْيان المرأة حالةَ حَيْضِهَا ويحْرصُون على ذلك أكثر من حِرْصِهم على إتْيانها حالةَ طُهْرها !! فأي خذْلان هذا ؟!!.

* * *

خامسًا : تِلاوةُ سُوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِهِ :

القرآن الكريم هو دستور حياة المسلم ، لا يسلو بدونه ، ولا يعيش بعيدا عنه ، فيه الهداية وفيه النور الذي يضيء في ظلمات الكفر ، ودهاليز الضلال .

ولا يخفى على المسلمين ما في هذا الكتاب من الخير والبركة والشفاء والبشارة للمؤمنين فالتزموا بتعاليمه ، وعاشوا معه وتغلبوا على المصاعب والشدائد بما حواه من توجيهات إلهية.

وجرير واحد من المسلمين أدرك تلك المترلة الرفيعة للقرآن الكريم فافتخر بها ، وكانت سهما من سهامه التي صوبها نحو خصمه .

قال جرير [(١)] :

رِجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلُّوا ، أَذَانُهُمُ
قَرْعُ النَّوَاقِيسِ ، لاَ يَدْرُونَ مَا السُّوَرُ .

يهجو جرير الأخطلَ وقومَهُ بجهلهم القرآن الكريم وعدم فهْمِ سُوَرِهِ فوصفهُم بالرِّجس وهو الْقَذَرُ والْفِعْلُ الْقَبِيْحُ [(٢)] الذي يفعله التَّغْلبيون من قرْعهم للنَّواقِيس وهي تلك الأجراس الَّتي يضربونها إيذانًا بحلول وقْت صلاتهم بدلاً من الأذان كما هو عند المسلمين .

وهم كذلك لا يعرفون فضل القرآن الكريم ، ولا فضل سُوَرِهِ ، ويجهلون ما فيه من الْهُدَى والخير والبركة والصَّلاح فهو في الحقيقة نعمَةٌ من نِعَمِ الله على المسلمين ، ولو تأمل المعْرضُون عنه ما فيه من فضْل حَرَمُوا أَنْفُسَهُم منه لَقَضَوا حياتَهم نَدَمًا وحسْرة [(*)] .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

(٢) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبدالقادر ، ومحمد علي النجار ، مطابع دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ ، ١ / ٣٣٠ .

(*) أين النَّصارى من قول النبي – ﷺ – : ((والذي نفسي بيده ما أُنْزِلَتْ في التَّوراة ؛ ولا في الإنجيل ؛ ولا في الفرقان مثلَها وإنَّها سَبْعٌ من المَثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيتُه)) وذلك في فضل سورة الفاتحة . انظر صحيح سنن الترمذي باختصار السَّند ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ٣ / ٣ .

ويقول جرير [1] :

تَـبِـعُـوا الضَّلاَلَةَ نَـاكِبِـينَ [2] عَنِ الْـهُـدَى

والـتَّـغْـلِـبِـيُّ عَـنِ الْـقُـرَانِ ضَـلُـولُ .

يسْتَمِرُّ جريرٌ في هجائه لِلتَّغْلبيين فَهُمْ - كما يقول – سلكوا طريق الضَّلالة : وهي كلُّ عَمَلٍ باطلٍ مُجَافٍ لِلْحَقِّ كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٦]، فجرير كأَنَّه يُسْقِطُ هذه الآية بمعناها وببعْض كلماتها على البيت السَّابق المشْتَمِل على كَلِمَتَي (الضَّلالة) و (الهُدَى) وهما الكلِمتان الواردتان في الآية الكريمة .

وأما قوله : (عن القُران ضَلُولُ) فيقابلها في الآية الكريمة قوله تعالى : ((وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين)) .

فهذه قِمَّةُ التَّأَثُّرِ بالإسلام حين رأيناه ينقُض شِعْر الأخطَلِ معْتَمِدًا على المعاني الإسلامية ، بل ومتأثِّرًا بألفاظ القرآن الكريم كما رأينا ، وكما يظهر ذلك في استعمال جرير لكلمة (ناكبين) في البيت السَّابق ، وهذه الكلمة جاءت كذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٤] .

ويقول جرير [3] :

وَمَا قَرَأَ الْمُفَصَّلَ تَغْلِبِيٌّ

وَلاَ مَسَّ الطَّهُورَ وَلاَ السِّوَاكَا .

[1] انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

[2] النَّاكِبُ : الْمُرْتَد والْمُتَحَوِّل .

[3] ديوان جرير ، ص ٢٩٨ .

وهذا نفْيٌ قاطِعٌ ينفي به جرير عن التَّغْلبيين قراءة القرآن الكريم ويخصُّ الْمُفَصَّل منْه وهو السُّوَر منَ الحُجُرَات إلى آخر الُمصْحَف .

ولَعَلَّه ذَكَرَ الْمُفَصَّل وَخَصَّه بالذِّكْر لأنَّ الغالب على سُوَرِهِ الْقِصَر ، فهي تُقرأ بسهولة ، وفي عدم قراءة السُّوَرِ القصار دليلٌ على عدم قراءة السُّوَرِ التي تميل إلى الطول عقْلاً ، ولما في سور الْمُفَصَّل من فضل عظيم ففيه – على سبيل المثال – سورة الإخلاص (*) ، وفيه المعوَّذتان ، وهذه السُّوَر فيها ما فيها من الْخَير ، والقرآ ن كُلُّهُ خير .

وهناك أمر خَفِي في هذا البيت يبدو أنَّ جريرًا كان يقصده ، وذلك حينَ عَقَّبَ بقوله : (ولا مَسَّ الطَّهُورَ ولا السِّوَاكَا) على مَا نَفَاهُ في الشَّطْرِ الأَوَّلِ عن التَّغْلبيين من قراءة لِلْمُفَصَّل مِنَ القرآن الكريم ، فإنَّ الَّذِي يقرأ القرآن ينبغِي عليه أنْ يكون طاهرًا في جَسَدِهِ وطاهرًا في فَمِهِ ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (1) [الواقعة : ٧٩] .

وَكَأَنَّ جريرًا – أيضًا – يرْمي إلى حال المسلم الَّذي يُديم قراءة القرآن الكريم ويكون طاهرًا عنْد ذلك مُحْتَرِمًا كَلامَ الله ، مُجِلاًّ له ، مُسْتَشْعِرًا الْهَيبَةَ والْمكانَةَ الرَّفِيعةَ لهذا الكتاب العظيم ، فهذا هو حال المسلمين ، وذاك هو حال التَّغْلبيين .

* * *

(*) ففيها قال النبي – ﷺ – : ((والذي نفْسي بيده إِنَّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن)) ، انظر صحيح البخاري ، ٢ / ٦٥٠ .

(1) قال العوفي عن ابن عباس : (لا يمسُّه إلا المطَهَّرون) يعني : الملائكة . وكذا قال أنس ومجاهد وعكْرمة وسعيد بن جبير ، وقال ابن جرير عن قتادة : (لا يمسُّه إلا الْمُطَهَّرون) قال : لا يمسه عند الله إلا الْمُطَهَّرون ، فأمَّا في الدنيا فإنَّه يمسّه المجوسي النَّجس ، والمنافق الرجس .
وقال آخرون : (لا يمسُّه إلا الْمُطَهَّرون) أي : من الْجَنَابَةِ والْحَدَثِ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٣١٩ .

سَادِسًا : نُصْرَةُ الرَّسُولِ – ﷺ – والتَّصْدِيْقُ بِهِ :

الإيمان برسل الله جميعا ركن من أركان الإيمان ، ورسول الله محمد – ﷺ – أحد هؤلاء الرسل الذين وجب علينا الإيمان بهم ،بل هو أحد الخمسة الذين هم أولو العزم من الرسل .

وقد بلّغ عليه الصلاة والسلام الأمانة ، وأدى الرسالة ، ونصح لهذه الأمة ، وكشف ـــ بإذن ربه ـــ الغمّة ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فكان لزامًا على المسلمين في الماضي والحاضر نصرته والتصديق به .

ومن خلال وعي جرير بهذه المسألة فقد رأينا إشادته وفخره بمواقف الأنصار ـــ رضي الله عنهم ـــ مع رسول الله – ﷺ – ونصرتهم له ، ورأينا تمجيده لأفعال المسلمين من قريش مع رسول الله – ﷺ – وأن ذلك من الإيمان الحق .

قال جرير [(١)] :

كَفَوا خُزْرَ تَغْلِبَ نَصْرَ الرَّسُولِ
وَنَقْضَ الأُمُورِ وَإِمْرَارَهَا .

يهجو جرير التَّغْلبيين قومَ الأخطل بأنَّهم ليسوا أهلاً لأن ينصروا رسول الله – ﷺ – فَقَد نُصِرَ بغيرهم ، وهم المهاجرون والأنصار ، فقد قال في البيت السابق لهذا البيت [(٢)] :

وَأَدْعُو الإِلَهَ وَ تَدْعُو الصَّلِيبَ
وَأَدْعُو قُرَيشًا وَأَنْصَارَهَا .

ثمَّ قال :

كَفَوا خُزْرَ تَغْلِبَ نَصْرَ الرَّسُولِ
وَنَقْضَ الأُمُورِ وَإِمْرَارَهَا .

فهذا البيت مترتِّبٌ على الذي قبله ، والمعنى : أنَّ المهاجرين والأنصار – رضي الله عنهم – هم الجديرون بنصرة الرسول – ﷺ – وقد فعلوا ، وهُم أهلُ الحلِّ والعقْدِ ، وهم الأقوياء

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

القادرون على تصْريف الأمور ، وعلى القيام بأعبائها ، في الوقت الذي يعجز التَّغْلبيُّون عن شَرَفِ نُصْرة الرَّسول – ﷺ – وعن حَلِّ الأمور وربطها .

وجرير استفاد من السِّيرة النَّبوية العطِرَة على صاحبها أفضل الصَّلاة وأتمّ التَّسليم فَعَلِمَ عاقبة نصْرة الأنصار والمهاجرين لرسول الله – ﷺ – أهم اسْتَحَقُّوا محبَّة رسول الله ، واسْتَحَقُّوا محبة الله – تبارك وتعالى – وثناءه عليهم في قوله – عز وجل – : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وعلم كذلك أنَّ الأنصار – رضي الله عنهم – تشرَّفوا بدعاء النَّبي – ﷺ – حين خَطَبَ فيهم فقال : ((... فَوَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده ، لولا الهجرة لكنْتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاسُ شِعْبًا [١] وَسَلَكَتِ الأنْصارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ...)) [٢] .

كل تلك المعرفة المسْبَقة لجرير بالسِّيرة النَّبويَّة ، وبالنُّصُوص القرآنية أفرزتْ عنده ثقافة إسلامية وظَّفها في نقْضِهِ شِعْرَ الأخْطل ، وَجَعَلَت النَّاس في ميزانه على قِسْمين : إمَّا مناصراً لِلرَّسول – ﷺ – ، ومُصَدِّقاً به ، وإما مجافياً عنه ، معرضاً عن نصْرته قد بَخِلَ على نفسه بهذا الفضْل ، واختار لها الدُّونَ ، وَرَضِيَ لها بالحقارة ، وباعها إلى الشَّيطان بِثَمَنٍ بَخْس ، كما هو الحال عند التَّغْلبيين .

وأمَّا في قوله : (خُزْر) فالْخَزَرُ قيل : ضيق العين وصغرها ، وقيل : هو النَّظر الذي كأنَّه في أحد الشِّقَّين ، وقيل : هو أن يفتَح عينه ويغمضها ، وقيل : الْخَزَرُ هو حَوَلُ إحْدى العينين ، وقيل : الأَخْزَرُ الذي أقْبَلَتْ حَدَقَتَاهُ إلى أنْفِهِ ،

---

[١] الشِّعب : الطريق بين جبلين .

[٢] سيرة النبي – ﷺ – ، ابن هشام ، راجعها : د. محمد خليل هراس ، مكتبة الجمهوريَّة ، ٤ / ١٧٧ .

ويقال : هو أن يكـــون الإنـــســـان كأنَّـــه ينـــظرُ بـــمـــؤخرِها . وَتَخَـــازَرَ الرَّجُلُ : إذا ضيَّـــقَ جفـــنَهُ لِيُحَـــدِّد النـــظر . وَخَـــزَرَ إذا تـــداهى . وعدوٌّ أَخْـــزَرُ العـــــين : ينـــظر عن معارضه كالأَخْزَرِ العين [1] .

ويبدو أنَّ هذه الصِّفة كانت ملازمة لِلتَّغْلبيـــين بشكلٍ واضحٍ جليٍّ وإلا لما أكَّدَ عليهـــا جرير في أكثر من موضع في قصائده ، فقد قال [2] :

قَـــتَـــلُـــوا كُلَـــيْـــبَـــكُمُ بِلَـــقْـــحَـــةِ جَـــارِهِـــمْ
يَـــا خُـــزْرَ تَـــغْـــلِـــبَ لَـــسْـــتُـــمُ بِهِـــجَـــانِ .

وقال كذلك [3] :

مُـــضَـــرٌ أَبِـــي وَأَبُـــو الْمُـــلُـــوكِ فَـــهَـــلْ لَـــكُـــمْ
يَـــا خُـــزْرَ تَـــغْـــلِـــبَ مِـــنْ أَبٍ كَأَبِـــيـــنَا ؟ .

وقال [4] :

يَـــا خُـــزْرَ تَغْـــلِـــبَ مَاذَا بَـــالُ نِـــسْـــوَتِـــكُـــمْ
لاَ يَسْـــتَـــفِـــقْـــنَ إِلَى الدَّيْرَينِ تَـــحْـــنَـــانَـــا ؟.

والمعنى هنا : أنَّ النِّـــســـاء التَّـــغْـــلبـــيَّات لا ديـــن عنـــدهنَّ إذْ لا يـــدْخُـــلْـــــنَ دَيْـــــرًا ولا معْـــبـــدًا .

---

[1] لسان العرب ، مادّة (خزر) ، ٤ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
[2] ديوان جرير ، ص ٤٢٦ .
[3] ديوان جرير ، ص ٤٣١ .
[4] المصدر السابق ، ص ٤٤٦ .

وهذه اللفظة شائعــة في الشِّــعْر العربيِّ ، فقد قال أبو تَمَّــام [1] :

وَأَيَّــامُــنَــا خُـــزْرُ الْـعُـيــونِ عَــوَابِـــسٌ

إِذَا لَـمْ يَخُـضْـهَـا الْحَـازِمُ الْمُـتَـلَـبِّـبُ [2] .

فأبو تَــمَّــام قد استــعــار خُــزْرَة العــيون للأيَّــام لأنَّ تــلك الصِّــفَــة مــن صفــات الأعــداء .

وقال النابغة الذبياني [3] :

تَــرَاهُنَّ خَــلْـفَ الْقَــوْمِ خُــزْرًا عُــيُــونُــهَــا

جُلُــوسَ الشُّــيُــوخِ فِي ثِــيَــابِ الْمَــرَانِــبِ .

والنابغة في قوله : (تَرَاهُنَّ) يقصد السِّباع التي تكون خلف جيــش الأعداء تنْــتَــظِر وتَــتَــرَقَّب بعيونها الْخُزْر مَنْ يموت لتأكل من لَحْمه [4] .

---

[1] ديوان أبي تمام ، شرح إيمان البقاعي ، مؤســسة الأعلمي ، بــيروت ، لبنــان ، الطبعــة الأولى ، ١٤٢١هــ ، ١ / ١٠٧.

[2] المتلبب : المتعقّل .

[3] ديوان النابغة الذبياني ، شرح محمَّد الطَّاهر عاشور ، الشركة التَّونسية للتَّوزيع ، ١٩٧٦ ، ص ٤٦.
والمرانب : الفراء والثياب التي تُصنع من جلود الأرانب .

[4] لأنه قال قبــل هذا البــيــت :

إذا ما غــزوا بالجــيــش حَلَّــق فَوْقَــهُمْ   عصــائبُ طيــرٍ ، تَهْــتَــدي بعصــائبِ .

يُصَانِعْــنَــهُمْ ، حتى يُغِــرْنَ مُغَــارَهُــمْ   مِنَ الضَّــارِيَــاتِ ، بِالــدِّمَــاءِ الــدَّوَارِبِ .

وجرير حين وصفَ التَّغْلبيين بأنَّهُم خُزْر العيون إنَّما أجرى عليهم تلك الصِّفة لِشِدَّة عداوتهم ولأنَّ عيونهم تحمل كلَّ معاني المكْر والخبْث والكُرْه ، فكانت تلك اللفظة أدقَّ وأصْوَبَ ، وأمْكَنَ ، وأشدَّ وقعًا من غيرها .

قال ابنُ خَلِّكَان : ((والأَخْزَرُ : الذي في عينيه ضيق وَصِغَر ، وهذا وصْف الْعَجَم ، فكأنَّه نَسَبَهُ [1] إلى الْعَجَم ، وأخرجه عن العرب ، وهذا عند العرب من النَّقائص الشَّنِيْعَة)) [2] .

وإذا كان الشَّيء بالشَّيء يذكر فما أظنّ التَّغْلبيين – حين وصفهم جرير بتلك الصفة – إلا كأنَّهم تلك السِّباع الضَّارية – كما في بيت النَّابِغَة – التي تَتَعَطَّش لِلدِّماء ، ويسيل لعابها لتنهش من اللَّحْم دونما رحمةٍ أو شفقة .

ولا نستغرب أبدا أن يركِّز جرير على العين فيهجو التَّغْلبيين بصفَةٍ معيبة من صفاتها ، فالعين بحرٌ لا ساحل له ، وعَالَمٌ ممتَدٌّ بلا حدودٍ ، وفضاءٌ لا منْتَهى له ، وأسوارٌ تُعْجز مَنْ يتسوَّرها . ولشأنها العظيم ركَّز جريرٌ على عيون التَّغْلبيين ، وما تبعثه من إشارات الْكُرْه ، وسِهَامِ البغْض ، وبريق العداء . وفي ذلك دِلالة قويَّة على ذكاء الرَّجُل وفطْنَته ، ودهائه .. فالتَّنَبُّه لإشارات العيون ، وفهم التَّلْميحات دون الحاجة إلى التَّصْريحات ، والتنبؤ بمكْنون القلب قبل أن ينْطِق به اللِّسَان .. كُلها من أمارات الرَّجُل البصير بالأمور ، الواعي لخفاياها ، المتمرِّس في سَبْر أغوارها .

ويستمر جرير في هجائه للأخطل وقومه وذلك في سياق إشادتِهِ بالمهاجرين والأنصار في نصرتهم للرَّسُول – ﷺ – كما سبق فيمتدح كذلك قيْسًا ، ويذكر أمجادها العظيمة التي لو وُضِعَتْ في كفة ، وكانت أمجاد تغْلب في الكفَّة الأخرى لَرَجَحَت الكفَّة التي بها أمجاد قيس . فيقول [3] :

---

(1) فكأنَّه نَسَبَهُ إلى العجم : يقصد أنَّ جريرًا كأنَّه نسب الأخطل إلى العجم ، وابن خَلِّكَان قال ذلك الكلام مُعَلِّقًا على قول جرير : (يا خُزْرَ تغْلب) .

(2) وَفَياتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خَلِّكَان ، تحقيق د / إحسان عبَّاس ، دار صادر ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(3) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

وَإِذَا وَزَنْـــتَ بِـــمَـــجْـــدِ قَـــيْـــسٍ تَـــغْـــلِـــبًـــا
رَجَـــحُـــوا عَلَـــيْـــكَ وَشـــلْـــتَ فِي الْـــمِـــيـــزَانِ .

ويعلِّل سبب رجْحان كفَّة قيس بقوله في البيت التالي [1] :

عَـــرَفُوا الْكِـــتَـــابَ ، وَصَـــدَّقُـــوا بِـــمُـــحَـــمَّـــدٍ
وَرَضِـــيْـــتُـــــــمُ بِـــعِـــبَـــــادَةِ الأَوْثَـــــانِ .

والكتابُ هو القرآن الكريم ، فقبـــيلة قيس آمنتْ به ، وعرفـــتْه حقَّ المعرفـــة واتَّبَـــعَ أفرادها ما فيـــه ، وعملوا به ، وكان منـــهجَ حياة لهم إلى جانب تـــصـــديقـــهم بمحمَّد – ﷺ – واتِّبَاع سُـــنَّـــته .

ويبدو أنَّ جريرًا يقصد من قوله : (عرفوا الكتاب ، وصدَّقوا بمحمَّد) أن يَجْمع بـــين أمرين جمع بينهما رسول الله – ﷺ – في قوله : ((وَقَدْ تَرَكْتُ فِيْكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا ، أَمْرًا بَيِّنًا ، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) [2] .

وحين قـــال جريـــر : (عَرَفُـــوا الْكِتَابَ) فإنـــنا نلْحَظ التَّـــأَثُّـــرَ بالآية الكريمـــة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

ولا يخفى أنَّ معْنى الآية الكريمة أنَّ الذين آتاهم الله الكتاب السَّمَاوي والمراد التوراة التي أنزلها – سبحانه – على موسى – عليه السَّلام – وأتباعه هم اليهود ، والإنجـــيل الذي أنزله – سبحانه – على عيسى – عليه السَّلام – وأتباعه هم النَّصَارى يعرفون القرآن الكريم كما يعرفون أبناءَهم ولكنَّهم كَفَرُوا به ، وَمِنْهُم وَرِثَ قومُ الأخطل هذا الكُفْر فهم عريقون فيه .

وهذا التَّأَثُّر الذي فَعَلَهُ جرير والذي أقصده في هذا المقام هو تَأَثُّره بألفاظ الآية الكريمـــة فقط دون أن ينْسَحِبَ هذا التَّأَثُّرُ على المعنى ، فالمعرفة للقرآن في بيت جرير السَّابق تَخْتَلِفُ عن المعْرفة المقصودة له في الآية الكريمة ، فَلِكُلِّ معْرِفَةٍ وِجْهَتُهَا واتجاهها .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٢) سيرة النبي – ﷺ – ، ابن هشام ، ٤ / ٣٥٦ .

ومن مبــرِّرات رجْحان كفة قيس على كفة تغْلب تصديقهم بمحمَّد – ﷺ – في الوقت الذي رَضِيَ فيه التَّغْلبــيُّون بعبــادتهم للأوثــان المتمــثِّلــــة في تلــك الصُّلْــبـــان المنـــتــشِرة عندهم في كل مكان .

* * *

سَابِعًا : عِبَادَةُ اللهِ في الْمَسَاجِدِ :

المسجد عند المسلمين هو المدرسة الأولى التي ينهلون من معينها العلوم الدينية والتربيــة السوية ، والمسجد يأرز المسلم إليه حيث يجد الروحانية الفريدة ، والطمأنينــة النفســية ، والعلاقة الحقة مع الخالق ـــ تبارك وتعالى ـــ بعيدًا عن الرهبنة المقيتة ، والعادات المبتدعة .
ومن المسجد انطلق العلماء ينشرون دين الله في المشارق والمغارب ، ومنه خرج المجاهدون ، وفي جنباته تربـــى المسلمون على مكارم الأخلاق ، وطيب الخصال .

وللعبادة في المسجد مذاقها الفريد ، وطابعها المميز ، وجوها الممتع الذي يتجــرد فيــه المسلم من كل زخارف الحياة وأعبائها ومشاغلها ، ومن هنا جاء جرير بهذه المعاني السامية في نقضه شعر الأخطل فقال [(1)]:

وَالــتَّــابِــعِــيــنَ جُــرَيْــجِــسًــا وَبُــنَــيَّــهُ
وَالــتَّــارِكِــيــنَ مَــسَــاجِــدَ الــرَّحْــمَــــنِ .

إنَّ معرفة جرير بالشَّأْن الرفيع للمسْجد في الإسلام ، وبتلك العلاقة القويَّة الحميمة بينــه وبين المسلم جَعَلَتْه يفخر بالمساجد ويعتز بها أمام خصْمه اللدود ، ويتباهى بكونها جزءًا من منظومة المجتمع المسْلم إلى جانب إحساسه بتلك الأُلْفَةِ المتبادلة بين المسلم وبين المسْــجد [(*)]

---

(1) انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(*) ونظرا لهذه الألفة بين المسجد والمسلم فلا نستغرب أنَّ المسلم إذا مات فإنَّ بقاع الأرض التي تَعَبَّــدَ الله فيها تبكي لِفِرَاقِهِ ، وكذا مواضــع صعــود عمله في السماء وهذا في بعض تفاســير قولــه تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩] قال ابن كثير : ((أي لم تكن لهم أعمالٌ صالحةٌ تصعد في أبواب السَّماء فتبكي على فقدهم ، ولا

من أجل ذلك تصدى للأخطل بهجائه له بترْكه وقومه للمساجد التي هي نعمة عظيمة امتنَّ الله بها على عباده المسلمين وحَرَمَ منها غيرهم ، فلا مساجد عند نصارى تغلب لأنَّهُم ليسوا أهلاً لها ، بل تنكَّبُوا الطريقَ السَّوِيَّ ، واتَّبعوا رموزا ضالَّة مُضِلَّة كجُريجس وبنيِّـه فـزادهم ذلك رجسًا إلى رِجْسِهِم ، وضلالاً إلى ضلالهم ، في الوقت الذي يزداد المسلمون بتـردّدِهم على المساجد إيمانًا مع إيمانهم ، وهدًى مع هداهم .

وقال جـريـر [1] :

مَـا فِي دِيَـارِ مُـقَـامِ تَـغْـلِـبَ مَـسْـجِـدٌ

وَتَـرَى مَـكَـاسِـرَ حَـنْـتَـمٍ وَدِنَـانِ .

إنَّ جريرًا في هذا البيت يؤكِّد ما ذكره في البيت السَّابق من ترْك التَّغْلبيـين لِلْمَساجد ، وحرمان أنفسهم من هذه النِّعْمة العظيمة ، فينفي نفيًا قاطعًا وجود مسجد واحد في ديارهم التي تكثر فيها الـجرار الْحُمْرُ الممتلئة بالخمْر فلا يمكن أن يجتمع المسجد مع دنان الخمر في مكان واحد . و (الْحَنْـتَمُ : جِرَارٌ خُضْـرٌ تَضْرِبُ إلى الْحُمْرَة ، وفي الحديث أنَّ النَّبـي - ﷺ - نهى عن الدُّبَّاءِ والْحَنْـتَم ؛ قال أبو عبيدة : هي جِرَارٌ حُمْرٌ كانـت تُحْمَـلُ إلى المدينة فيها الخمر) [2] .

لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا يُنظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم)) انظر تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ١٥٣ .

[1] انظر ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

[2] لسان العرب ، (حنتم) ١٢ / ١٦١ ، ١٦٢ .

ومن ذلك قول النُّــعْــمَانُ بن عَدِيّ [(١)] :

أَلاَ هَــلْ أَتَــى الْــحَــسْــنَــاءَ أَنَّ خَلِــيــلَــهَــا

بِــمَــيْــسَــانَ يُــسْــقَى فِي زُجَاجٍ وَحَــنْــتَــمِ .

ثَامِنًا : اتِّبَاعُ سُبُلِ النُّبُوَّةِ :

لن يلج أحد الجنة إلا عن طريق ما رسمه رسول الله – ﷺ – لأمته من سبل مستقيمة هي طرق الإسلام التي دلنا عليها المبعوث رحمة للعالمين لتكون نبراسًا لمن أراد الله به خيرًا ، فالصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وصيام التطوع ، والحج والعمرة ، والجهاد في سبيل الله ، وبر الوالدين ، وقيام الليل ، وإكرام الضيف ... كلها سبل فاضلة من سبل النبوة التي جاء بها محمد – ﷺ – .

قــال جــريــر [(٢)] :

خَــالَــفْــتُــمُ سُــبُــلَ النُّــبُــوَّةِ فَاخْــضَعُــوا

بِــجِــزَا الْــخَــلِــيفَــةِ ، وَالذَّلِــيــلُ ذَلِــيْــلُ .

إنَّ جريرًا يهجو الأخطل وقومه بأنَّهم جَنَحُوا عن سُبل النبوَّة وهي طريق الإسلام السَّمْح ولذلك حقّ عليهم القول في دفْع الْجِزْيَة لِلْخَلِيْفَةِ ، وهكذا يجب أن يكونوا لأَنَّ الذَّليل ذليلٌ

---

(١) انظر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ابن الجوزيّ ، تحقيق الدكتورة : زينب إبراهيم القاروط ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم الطبعة ، ص ١١٥ ، وَتَتِمَّة الخبر : (عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطَّاب – رضوان الله عليه – قد اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ على ميسان ، وكان يقول الشِّعْر فقال :

أَلاَ هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا		بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ .
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دهاقين قَرْيَة		ورقَّاصة تحثو على كلِ منْسمِ .
فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسْقِني		وَلاَ تَسْقِنِي بالأَصْغَر المتثلِّم .
لَعَلَّ أميرَ المؤمنين يَسُوْؤُه		تَنَادُمُنَا بالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّم .

فلَمَّا بلغ عمر قوله قال : نعم ، والله إنه ليسوؤني ، مَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ إِنِّي قد عَزَلْته) .
والجوسق هو : القصر .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

وليس له أن يَتَحَوَّلَ عن ذُلِّه وما ينبغي له ، فقد وُلِدَ ذليلاً ، وعاش ذليلاً ، وسيموت ذليلاً ، كما عبَّر عن ذلك جرير .

والمعنى المقابل لهذا المعنى أنَّ المسْلم امتثل سُبُل النبوَّة ووعى جيدًا ما جاء عن النبيّ - ﷺ - ومن ذلك حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : ((خطَّ رسُول الله - ﷺ - خطًّا بيده ثُمَّ قال : هذا سبيل الله مستقيمًا ، ثُمَّ خَطَّ خطوطًا عن يمين ذلك الخطّ وعن شماله ثُمَّ قال : وهذه السُّبُل ليس منها سبيلٌ إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه ، ثُمَّ قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾))[1] [الأنعام : ١٥٣] ، فالمسلم اتَّبَعَ سبيلاً واحدًا وهو سبيل الإسلام ، وترك باقي السُّبُل التي يَتَزَعَّمُهَا الشَّيطان ويدعو إليها ((وهذه السُّبُل تَعُمُّ اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة وسائر أهل الْمِلَلِ ، وأهل البِدَعِ والضَّلالاتِ من أهل الأهواء والشُّذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التَّعمُّقِ في الجدَل والخوض في الكلام))[2] .

وقال جرير[3] :

إِنَّ الَّذِي حَرَمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا
جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلاَفَةَ فِينَا .

فجرير يهجو الأخطلَ وقومَهُ بأَنَّ التَّغْلبيين محرومون من المكارم ، وأمَّا المسلمون فإنَّهم مفضَّلون قد أَنْعَمَ الله عليهم بأن جَعَلَ النُّبُوَّة وجَعَلَ الخلافة فيهم ، وعندما يقول جرير : (جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلاَفَةَ فِيْنَا) فهو يفخر بقومه الذين يمتدّ بهم النَّسب إلى رسول الله - ﷺ - ، ويعتَدّ بهم وفي نهاية الأمر هم من المسلمين ، فالفخر كلّ الفخْر بالإسلام ، وحقّ

---

[1] انظر فتح القدير ، ٢ / ٢٥٣ ، قال الشوكاني عن تخريج هذا الحديث : ((أخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه ابن مردويه عن ابن مسعود)) .

[2] المصدر السابق ، ٢ / ٢٥٢. نقله الشوكاني عن ابن عطيَّة .

[3] ديوان جرير ، ص ٤٣١ .

لجرير أن يفخر به لأنَّهُ دين المكارم ودين العِــزَّة ، ولأنَّهُ الدِّين الذي حفــل بالنُّـــبُوَّة ، ورسَّخ الخلافة الإسلامية ، وصَنَعَهَا على عينه فاستقامت وازدهرت وترعْرَعَتْ .

ولهذا البيت ارتباطٌ وثيقٌ بالبيت السَّابق الذي تحدَّث فيه جرير عن مخالفة نصارى تغلب لسُبُل النُّــبُــوَّة ، فإنَّ مخالفــتهم لهذه السُّــبُل كانت تَقْــدِمَةً لأَنْ حَرَمَهُم الله من المكارم ، وبأنْ كَتَبَ عليــهم الذلَّة وأسكنــهم مساكن الخزي والدناءة ، وَأَلْبَسَــهُم لباسَ العــارِ والشَّــنَار وأدخلهم النيران .

وبالمقابل فإنَّ اتِّباع المسلمين سُبل النبوَّة التي تهديهم – بإذن الله – إلى الصِّراط المستقيم ، وإعراضهم عن بقية السُّبُل المنحرِفة الشَّــيطانيَّة ؛ كان الجزاء أن أعــزَّهم الله ، ورفعهــم ، وجعل النُّــبُوَّة فيهم ، ومكَّنَ لهم دينهم الذي ارتضى لهم .

قال ابن خَلِّكان في تعليقه على قول جرير : (جَعَلَ النبوَّة والخلافةَ فينا) : ((إِنَّمَا قــال ذلك لأنَّ جريرًا تميميّ النَّسب ، وَتَميم ترجع إلى مُضَر بن نزار بن معد بن عــدنان جــدّ رسول الله – ﷺ – ، فالنبوّة والخلافة وبنو تميم يرجعون إلى مضر)) [1] .

* * *

(1) وَفَيَاتُ الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان ، ١ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

تَاسِعًا : غَشيانُ الملائكة قبورَ المسلمين ، واحتفاءُ الأرضِ بأجسادِهِم :

المسلم الصادق هو العبد المطيع لربه ، وهو العبد الذي عرف حق المعرفة الغاية من وجوده على هذه البسيطة ، من أجل ذلك كان جزاؤه من ربه الجزاء الأوفى في الدنيا قبل الآخرة وذلك بأن جعل الملائكة تغشى قبره ، وأوحى إلى الأرض أن تحتفي بجسده الطاهر .

هذه المعاني أشار إليها جرير في سياق نقضه شعر الأخطل فقال [1] :

تَغْشَى مَلائِكَةُ الإِلَهِ قُبُورَنَا

وَالتَّغْلِبِيُّ جِنَازَةُ الشَّيطَانِ .

يهاجم جرير الأخطلَ ويهجوه بما يؤمنُ به المؤمنون جميعًا من أنَّ المؤمن يجد الخير والبِشر من الملائكة عند خروج روحه وفي قبْره ، ويجد من البشارات ومن المكرمات ما لا يجده غيره من الكفار .

وجرير حين هاجم الأخطلَ بهذا الأمر يكشف لنا عن المخزون الهائل الذي يمتلكه من الثَّقافة الإسلاميَّة التي أَثَّرَتْ في شعره فنلحظ جريان المعاني الإسلاميَّة على لسانه في العديد من الأبيات التي هجا بها الأخطل ، وهنا يتمثَّل جرير ويستحضر الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويَّة التي توضِّح لنا حال المؤمن عند موته وفي قبره ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهذا هو العبد المؤمن بالله – تبارك وتعالى – يجد من احتفاء الملائكة به الشيء الكثير ، ويلقى منهم السَّلام ، والتَّطمين والبشارة بدخول الجنَّة ، وفي حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – ، قال : لَمَّا قُتِلَ أَبِي ، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوبَ عن وجْهِهِ ، أَبْكي ، وَيَنْهَوني

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

عنه ، والنبيّ – ﷺ – لا ينهاني ، فَجَعَلَتْ عمَّتي فاطمة تبْكي ، فقال النبيّ – ﷺ – : ((تبكينَ أو لا تبكين مازالت الملائكةُ تُظِلُّهُ بأَجْنحَتِهَا حتَّى رَفَعْتُمُوه)) [1] .

وأما جنازة الكافر فقال عنها جرير : (والتَّغْلِبيُّ جنَازَةُ الشَّيْطَانِ) وهذا الْحُكْم لم يأتِ به جرير من تلقاء نفْسه وإنَّمَا وَعَاه وعَرَفه من القرآن الكريم ، ومن الحديث الشَّريف ، ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] .

وفي الحديث عن عائشة أنَّها قالتْ : إنَّما مَرَّ رسول الله – ﷺ – على يهودّية يبْكي عليها أَهْلُهَا ، فقال : ((إِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ عَلَيْهَا ، وَإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِي قَبْرِهَا)) [2] ، وعن أبي أيوب قال : خرج النبيُّ – ﷺ – وقد وجبتِ الشمسُ ، فسمع صوتًا ، فقال : ((يَهُودُ تُعَذَّبُ في قبورها)) [3] . وهذا هو حال اليهود والنَّصَارى في قبورهم لا تُسَلِّم عليهم الملائكة ، ولا تعتني بهم بل تضربهم وتعذّبهم ، فجنائزهم جنائز للشَّيطان – كما وصفها جرير – لا تباشرها الملائكة ولا تهتم بها وما أحسبُهَا إلا كما قال المتنبي [4] :

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نُفُوسِهِم
إِلاَّ وَفِي يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ .

---

[1] صحيح البخاري ، ١ / ٢٩٩ .

[2] المصدر السَّابق ، ١ / ٣٠٨ .

[3] المصدر السابق ، ١ / ٣٢٩ .

[4] ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء العُكْبري ، ضبطه وصححه مصطفى السَّقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شَلَبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٧ هـ ، ٢ / ٤٢ .

فالموت لا يباشر نفوسهم بيده مباشرة وإنَّمَا يتــناولها بِعُودٍ بســبب نتــنها وقبحهــا كما يفــعل مَنْ رأى جيــفةً في الطريق فَإِنَّه يــبعدها بِعُــودٍ أو بشــيء آخــر حــذرًا من أنْ يــمــسَّ بــيده القــذر .

ويــقــول جــريــر [1] :

أَحْـيَــاؤُهُـم شَــرُّ أَحْـيَــاءٍ ، وَأَلأَمُــهُ ،
وَالأَرْضُ تَـلْـفِـظُ مَـوْتَـاهُـمْ إِذَا قُـبِـرُوا .

إِنَّه استمرارٌ من جرير في هجائه الأخطل وقومه بتركيزه على حال هؤلاء القــوم مــع الأرض ، ومع قبورهم التي يُدْفنون فيها ، فهو حال يختلف تمامًا عن حال المسْلم ، وفــوق ذلك فالتَّغْلبــيُّ كُلُّه شرٌّ سواء في حياته أو في مماته ، والأرضُ تــتــضايق مــن أجســادِ موتاهم ، وتَــتَــأَذَّى منها بســبب نجاستــها مِمَّــا يــجــعلها تلــفــظ تلــك الأجســاد المنــتِــنة وتــتخلّص منها .

وفي تعبير جرير بكلمة (تَلْفِظ) ما يوحي بأنَّ أجساد الموتى من التَّغْلبيــين قد بَلَغَــتْ حدًّا من القذارة والنَّجَاسة والتَّعَفُّن الأمر الذي حدا بالأرض أنْ تَلْفِظَهَا كما يَلْفِــظُ البحْــر الْجِيَفَ المنْــتِــنَة من أعماقه فلا يســتــقر في قاعِه إلا الدُّررُ واللآلئ الثَّمينَة .

وهكذا يؤكِّد جرير على تلك المنــزلة الرَّفيعة التي يحظى بها المسلمُ في حياته وبعد مماتــه وحتَّى في تعامل الأرض معه ، واشتياقها إليه ، واعتنائها به (*) .

وبالمقابل فإنَّ هذه النِّعمة العظيمة قد حُرِمَ منها التَّغْلبــيون فَكُــلُّ أرض تبغــــضهم ، وكُلُّ سماء تــمقــتهم ، وهذه ضربة قويَّة وجَّهَهَا جريــر إلى الأخطــل ضــمن سلســلة الضَّربات التي يتلقَّاها مع كُلِّ بيت يهجوه فيه جرير ، وتزداد هذه الضَّربات قــوَّةً ومتانــةً وجسارة حين تُدْعَمُ بقِــيَم إيمانيَّة إسلاميَّة تَرَعْرَعَتْ في أحضــان الإســلام ، واتَّشَــحَتْ بوشاحِهِ ، واسْتَــنَدَتْ إلى رُكْنه المتــين الشَّديد .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

(*) وَحَرِيٌّ بي هنا أن أُشير إلى اعتناء الأرض بأجساد الأنبياء كما جــاء عن أوس بــن أوس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ((إنَّ من أفضل أيامكم الجمعة ، فيه خُلِقَ آدم ، وفيه قُــبِضَ ، وفيه نفْخة الصور ، وفيه الصعــقــة ، فأكْثِروا عليَّ من الصَّلاة فيــه ، فإنَّ صلاتَكم معــروضة عليَّ ، قالوا : وكيف تُعْرَضُ صلاتُنا عليك وقد أَرِمْتَ ؟ فقال : ((إنَّ الله – تعالى – حَرَّمَ علــى الأرض أنْ تأكل أجساد الأنبــياء)) انظر المستدرك على الصحيحين ، ٤ / ٥٦٠ .

عَاشِرًا : إِعْطَاءُ الْمُسْلِمِ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ :

إن أعطاء المسلم كتابه بيمينه يوم القيامة أمر يؤمن به كل مسلم ، ولا يشك فيه أحد منهم ، بل إنه من المسلَّمات عند كل المسلمين ، وهو أمر بينه الله تعالى لنا في كتابه الكريم والمؤمن يصبو إلى أن ينال كتابه بيمينه في ذلك اليوم العصيب .

قال جرير [1] :

يُعْطَى كِتَابَ حِسَابِهِ بِشِمَالِهِ
وَكِتَابُنَا بِأَكُفِّنَا الأَيْمَانِ .

إِنَّها حقيقة راسخةٌ جاءت في كتاب الله يُهاجم من خلالها جرير خصْمَه الأخطل ، وهي أنَّ المسْلمَ يُعْطَى كِتَابَه يوم القيامة بيمينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحاقة : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢] [*] فهذه نعْمةٌ عظيمةٌ من نِعَمِ الله – تعالى – يمتنُّ بها على عباده المؤمنين و ((يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنَّهُ من شِدَّةِ فَرَحِهِ يقول لكل من لَقِيَه : « هاؤم اقرأوا كتابيه »)) [2] .

ولا يكتفي جرير في مواجهته للأخطل بهذه الحقيقة بل إِنَّهُ يتَصَدَّى له بالحقيقة المقابلة لها وهي أنَّ الكافرَ يُعْطَى كتابَه يوم القيامة بِشِمَاله ، وهي علامة الخزي والعار والخسران والخيبة .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(*) وهذا المعنى أيضا في سورة الانشقاق في الآيات من ٧ – ١٢ .

[2] تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٤٤٢ .

وهذه الحقيــقة نقــلها جرير من القرآن الكريم ويعــرفها كلُّ مؤمــن في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحاقة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧] .

والعقابُ والحسابُ حقــيــقةٌ أخْرى من حقائق الإسلام ، وقيمة إيمانية كبْرى يؤكِّــد عليها جرير ، ويتكئ في هجائه للأخطل وقومه عليــها ، ففي قوله : (كِتاب حســابه) تركيز على هذه القيمة الإيمانيَّة ، وأَظُنُّ أَنَّ مَنْ يهتم بهذه القيمة ، ويعرفها حقّ المعْرفة يتمتَّع بحِسٍّ إيمانــيّ قويٍّ يفــتخر به أمام خصْمه في الوقت الذي يفــتــقر فيه هذا الخـــصم إلى أقل القليل من هذا الحس الذي ليس إلا للمؤمن الصادقِ في إيمانه ، المــؤمن بربِّـــه ، المطَّرِحِ لكُلِّ هــوى ولكُــلِّ زيــفٍ وضــلالة .

* * *

الْمَبْحَثُ الثَّانِي :

الْقِيَمُ الإِيْـــمَـــانِيَّةُ فِي النَّصْرَانِيَّة عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ

تمهيد :

المسلمون يفردن الله تعالى بالعبادة ولا يشركون به عز وجل شيئًا ، ويأتمرون بأمره عز وجل فيفعلون ما يأمرهم الله تعالى به وينتهون عما نهاهم الله تعالى عنه ، ومما نهاهم الله تعالى عنه أكل لحم الخنزير ، كما أنهم يؤذنون للصلاة حينما يحين وقتها ، وبذلك هم يخالفون كلا من اليهود والنصارى . وهم لهم زيهم الإسلامي الذي يخالفون به غير المسلمين ، ولهم كل عام عيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومن هدي القرآن الكريم أن نهاهم عن إتيان النساء في المحيض .

والله تعالى قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجًا . وإن شاعرنا جريرًا المعروف بنزعته الإسلامية الحسنة ، في نقضه شعر الأخطل ، لينطلق في شعره هذا من موقف الإسلام من هذه القضايا ، وهو موقف قد تتفق فيه الشرائع مثل توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، ومنها ما تختلف ، فقد جعل عز وجل لكل شرعة ومنهاجًا .

وكأن جريرًا ينظر بنظارتين اثنتين . فإذا نظر بنظارة الإسلام الأولى بدا مصيبًا ، فإذا نظر بنظارته الخاصة به كانت الإصابة بمقدار الاقتراب من النظر بالنظارة الأولى فمن حق النصارى أن يكون لهم مثلا عيدهم الخاص بهم ، وأن يقرعوا لصلاتهم بالنواقيس ولا ننسى أننا بصدد أحد الشعراء العظماء ، ومن سمات الشعراء الجموح العاطفي ، ولا ننسى كذلك أن شعر النقائض في العصر الأموي بخاصة ، لا يراد به الجد خالصًا ، ولا الهزل محضًا .

وهذه هي القضايا التي لها صدى في نقض جرير شعر الأخطل في هذه الناحية :

١- عِبَادَةُ الصَّلِيْبِ .

٢- أَكْلُ لَحْمِ الْخِنْـــزِيرِ .

٣- قَرْعُ النَّوَاقِيسِ .

٤- لُبْسُ بَرَانِسِ الرُّهْبَانِ .

٥- عِيْدُ الْفِصْحِ .

٦- إِتْيَانُ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ .

أولاً : عبادةُ الصَّليبِ :

خلق الله البشر من أجل غاية نبيلة وشريفة وهي عبادته وحده لا شريك له ، لكن الكثير منهم جنحوا عن الجادة ، وابتعدوا عن الدين الذي لا يقبل الله من أحد أن يدين بغيره وهو دين الإسلام . وفي هذه المسألة تحديدًا تعمد جرير أن يتعرض من خلال نقضه شعر الأخطل لقضية خطيرة جدًا وهي قضية عبادة النَّصارى للصليب مستنكرًا عليهم هذا الفعل الشنيع ، والتصرف المقيت ، مقتطعًا حيزًا من شعره ذاك لهذا الجانب .

قال جرير [1] :

لَيْسَ ابْنُ عَابِدَةِ الصَّلِيبِ بِمُنْتَهٍ
حَتَّى يَذُوقَ بِكَأْسِ مَنْ هَاجَانِي .

يُهاجم جريرٌ الأخطلَ ويهجوه بأنَّهُ ابن تلك المرأة التي تعبد الصَّليب ، وَيهدِّدُهُ بأنَّهُ لن ينتهيَ عن وقوفه في وجهه حتَّى يذيقه من نفس الكأس التي أذاق بقيّة الشُّعراء منها ، عند ذلك سينتهي الأخطل عن مهاجاته ، وسيتوقَّف – حتمًا – عن التعرّض له ، وسيُعْلن انهزامه ، وسينبذه جريرٌ وراء ظهره كما نبذَ غيرَه غيرَ عابئ به .

وجرير يحكم على الأخطلِ وقومه بعبادهم لِلصَّليب ، ويؤكِّد على ذلك في أكثر من موضع .. ولعله يذهب مذْهب ابن الْقَيِّم في ذلك ، فقد وَرَدَ عن ابن الْقَيِّم أنَّه قال : ((ورأوهم [2] ينفرون من الصَّليب ، فإنَّ في التوراة (التي بأيديهم) : ((ملعون مَنْ تعلَّقَ بالصَّليبِ)) والنَّصَارى تُقرّ بهذا فعبدوا هم الصَّليب ...)) [3] .

والمعنى : أنَّ النَّصَارى يتَّبعون ما تكره اليهود ، واليهودُ تكره الصَّليبَ ولذلك عَبَدَهُ النَّصَارى .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٩ .

[2] أي رأوا اليهود .

[3] هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصَارى ، ابن القيم ، تحقيق ودراسة د. محمد أحمد الحاج ، دار القلم ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ، ص ٤٨٦ .

ولا أظنُّ جريرًا يُلْقِي بالكلام على عواهنه خصوصًا في مسألة مهمَّةٍ مثل مسألة عبادة النَّصَارى لِلصَّلِيبِ ، ونحن نعْلَمُ أنَّهُ عاشَ في القرن الأول الهجري وهو أوَّلُ القرون المفَضَّلَةِ حيث النَّقاء الْعَقَدِيّ ، وحيث التأصيل العلمي ، والمرجعيَّة المعتبَرة التي – ربَّما – استأنسَ جريرٌ بآرائها فخرج علينا بهذا الحُكم من كون النَّصَارى يعبدون الصَّلِيبَ .

ومسألة العبادة مسألَةٌ حَسَّاسَةٌ جدًا ربَّما تحْصل بأقل الْقليل ، وربَّما تقع بأَقَلّ من فِعْلِ النَّصَارى مع الصَّلِيب ، ففي الحديث الصحيح أنَّ النبي – ﷺ – تلا قولَه تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١]، على عَدِيِّ بن حاتم الطائي ، فقال : ((يا رسول الله ، لَسْنا نعبدهم . قال : أليس يُحِلُّونَ لكم ما حرَّمَ الله فَتُحِلُّونه ، ويحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه ؟ قال : بلى . قال النبي – ﷺ – : فتلْكَ عبادتهم)) [(1)].

إنَّ جريرًا وهو يهجو الأخطلَ وقومَهُ بعبادتهم لِلصَّلِيب من دون الله إنَّمَا يُؤكد على عِظَمِ الشِّرْك بالله – عز وجل – بل ويَعْلَم – وهو الشَّاعِرُ المسلم – أنَّ الشِّرك بالله هو الذَّنب الذي لا يغفره سبحانه وتعالى وذلك من خلال إدراكه للآيات القرآنية الدَّالَّة على ذلك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

وفي بيت آخر يقول جرير [(2)] :

---

(1) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة دار البيان ، دمشق، سوريا، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ ، ص ١٠٧ .

(2) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

عَــبَــدُوا الصَّلِــيــبَ ، وَكَــذَّبُوا بِــمُحَــمَّــدٍ
وَبِــجِــبْــرَئِــيــلَ ، وَكَــذَّبُــــوا مِــيــكَــالا .

هنا – أيضًا – يهجو جرير التَّغْلبيين ويعيّرهم بعبادهم للصَّلِيب ونلحظ إكثارَهُ من ذلك والسَّببُ هو فداحة هذا الأمر في ذهنية شاعرٍ مسلمٍ ، فلا يمكن أن يتصور جرير أنْ يصْرِفَ أحدٌ من البشر عبادَتَهُ لغير الله الذي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ ، وأحياه ، وهيأَ له سُبل العيش .

ويُرَسِّخُ جرير تأكيده على عبادة التَّغْلبيين لِلصَّلِيب في أكثر من موضع حتَّى في هجائــه لغيرهم ، كهجائه للفرزدق في قوله (1) :

رَهْــطُ الْــفَــرَزدق مِــن نَــصَــارى تَــغْــلِــبٍ
أَو يَــــدَّعِــــي كَــــــذِبًا دَعَــــــــاوَةَ زورِ .
حُــجُّــوا الصَّــلِــيــبَ ، وَقَــرِّبُــوا قُــرْبَــانكُمْ
وَخُــذُوا نَــصِــيــبَــكُــمُ مِــنَ الْخِــنْــزِيــرِ .

والمعنى الَّذي يقصــده جرير أنَّ الفرزدق حين ينسب نفسَهُ للتَّغْلبيين إنَّما ذلك لضعف منه ، وإذا انتسبَ إليهم فعليه أنْ يَحُجَّ معــهم لِلصَّلِيب لا إلى البــيت الحرام ، وأنْ يُقَــدِّمَ – كذلك – الْقَرَابين لِلصَّلِيب لا أن ينْحر الهدْيَ كما يفعل المسلمون .

ويقول جرير كذلك (2) :

وَيَــسْــجُــدُ لِلصَّــلِــيــبِ مَــعَ الــنَّــصَــارَى
وَأَفْــلَــجَ (3) سَــهْــمُــنَــا فَــلَــنَا الْخِــيَــارُ .

ويُؤكد جرير – كذلك – على هذه العبادة للصَّلِيب من قِبَل التَّغْلبيين في قوله (4) :

---

(1) ديوان جرير ، ص ١٣٦ .
(2) المصدر السّابق ، ص ١٦٧ .
(3) أَفْلَجَ : أي فاز وانتصر .
(4) المصدر السّابق ، ص ٢١٧ .

نُبِّئْتُ تَغْلِبَ يَعْبُدُونَ صَلِيبَهُمْ
بِالرَّقَّتَينِ إِلَى جَنُوبِ الْمَاخِرِ [1] .
يَسْتَنْصِرونَ بِمَارَسَرْجِسَ وَابْنِهِ
بَعْدَ الصَّلِيبِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِ .
خَسِرَ الأُخَيطِلُ وَالصَّلِيْبُ وَتَغْلِبٌ
وَيُكَالُ مَا جَمَعُوا بِمُدٍّ خَاسِرِ .

ففي هذه الأبيات نلحظ أنَّ جريرًا لا يزال يُصِرُّ على الحكم على التَّغلبيين في عبادتهم للصَّلِيب في ذلك المكان المعروف بالرَّقتين إلى جنوب الماخر .

وإلى جانب عبادتهم للصَّليب واستنصارهم به ، فهم كذلك يطلبون النُّصْرَةَ والعون من مَارِسَرْجِس – وهو من الأولياء الذين يقدسهم التَّغلبيون – ، ومن ابنه ، وهيهات أن يُقدِّموا لهم شيئًا من النَّفْع أو النَّزر اليسير من النُّصْرة والْعون ، وينفي ذلك جرير بقوله : (وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِ)، وفي هذا التعبير تأثرٌ واضحٌ منه بألفاظ القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٦] . وغير ذلك من الآيات الكريمات التي اشتملتْ على نفس الألفاظ التي ختم بها جريرٌ بيته الذي سبق ذكْرُهُ قريبًا .

ويُمعنُ جرير في تهكمه بالأخطل وبالصَّلِيب الذي يعبده ، والذي يحْمِلُهُ معه في المعارك راجيًا منه العون والنُّصْرَة ، وهو أحقر من ذلك وأضعف من أَن يُقدِّم شيئًا ، فيقول جرير [2] :

(1) الماخر : اسم مكان .
(2) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

سَــتَــعْــلَــمُ مَا يُــغْــنِي الصَّــلِــيبُ إِذَا غَدَتْ
كَــتَــائِبُ قَــيْــسٍ كَالْــمُــعَــبَّــدَةِ الْجُــرْبِ .

وهو تــهــديد شديد اللهجة من جرير وَجَّــهَــهُ إلى الأخطلِ الــمعْتَدِّ بصــليبهِ ، السَّادِرِ في ضــلاله ووهمه ، فكأنَّه يقول لــه : ستعلم أيُّهَــا الأخطــل أنَّ صَــلِيبَكَ لــن يَحْمِــيَــكَ ، ولن يُقدّم لك نصْرًا عندما تنــقَضُّ علــيــك كتائبُ القيــســيــين بما فيها من الفرسان الأبــطــال الْلاَّبــســين تلك الدروع والتــي يُخَــيَّــلُ للنَّاظِرِ أنَّهــم حــين يلبــســونــهــا كأنــهــم الإبل المذلَّلَة المطــليَّة بالقَــطِــران .

وهذا الأسلوب التهديديّ استفاده جريرٌ من القرآن الكريم مــن مثــل قولــه تعــالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ ، [القمر : ٢٦] .

ويــخــتــمُ جــريرٌ تــلــك الأبــيــات الــثــلاثــة الــســابــقــة بالــحُــكْم بالــخــســارة علــى الأخطــل - الذي استخــدَم معه التــصــغــير في قــولــه : (الأُخيطل) لِلتَّحْــقــير والتَّــقْلــيــل من شأنــه - ، والخــســارة كذلك تلْــحــق بالصَّــلِــيــب وبــالتَّــغْــلــبــيــين .

وجرير حين يُصْدِرُ حُكْمَهُ ذاك على الأخطل وعلى الصَّلِيب ، وعلى التَّغْلبيين فإنَّه يعلم تلك الخسارة عِلْم اليقين ، ويؤمن بحصولها حقَّ الإيمان ، فهو مسلم يؤمن بقولــه تعــالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : ٤٥] .

ويقول جرير [(1)] :

أَفَــبِـــالصَّـــلِـــيْـــبِ وَمَارِسَـــرْجِـــسَ تَـــتَّـــقِـــي

شَـــهْـــبَـــاءَ [(2)] ذَاتَ كَـــتَـــائِـــبٍ جُـــمْهُورَا [(3)] .

يتساءل جريرٌ متعجبًا مِمَّا يفعله الأخطل من حَمْله للصَّلِيب في المعارك متوهِّمًا أنَّهُ سَيَرُدُّ به عنه بأس تلك الكتيبة الشَّهباء المجتمعة والمدَجَّجَة بالسِّلاح والحديد ، وفي الحقيقة فالصَّليب لا يردُّ شيئًا ، ولا يُجْدي نفعًا ، ومارِسَرْجسَ كذلك لا يفيد ، ولا يقدّم عونًا ولا نُصْـــرَةً . بل إنَّ الصَّليبَ ومَارِسَرْجِسَ خَدَعَا وَغَرَّا التَّغْلبيين في المعارك ، فبدلاً من أنْ يُقَــدِّمَا النَّصْــرَ والْعون لِتَغْلِب قَدَّمَا لها القبر والموت !! وفي ذلك قال جرير[(4)] :

غَـــرَّ الصَّـــلِـــيـــبُ ، وَمَارِسَـــرْجِـــسَ تَـــغْـــلِـــبًا

حَـــتَّـــى تَـــقَـــاذَفَ تَـــغْـــلِـــبَ الـــرَّجَـــوَانِ [(5)] .

وفي حَمْل الصَّليب من قِبَل النَّصَارى وتقدِيْسِهِم له افتراءٌ على المسيح – عليه السَّلام – : ((وحَمْل الصَّليب – كما يقول كُتَّابُهُم – إِشْعارٌ بإنكار النَّفس ، واقتفاء أثر المسيح في هذا الإنكار ، والسير وراء مُخَلِّصِهِم وفاديهم)) [(6)] ، ولو عَلِمَ المسيـــح بهذا العـــبـــــث لمـــا أقـــرَّه ولأعْلن عبوديَّته لله كما قال تعـــالى : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠] ، وكمـــا قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

(2) شهباء : وَصْفٌ وَصَفَ به جرير الكتيبة لأنَّـــهـــا تظهر كذلك لكثرة السِّلاح والحديد الذي يـــراه النَّاظر أبيض اللَّون لامعًا .

(3) جمهورًا : أي مجتمعة .

(4) ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

(5) الرَّجَوَان : حَافَّـــتَـــا البئر وأراد هنا القبر .

(6) محاضرات في النصرانية ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة، ١٣٨١ هـــ ، ص ١٠١ .

أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

ويقول جرير [1] :

وَلَمْ تَمْسَحِ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ أَكُفُّهَا
وَلَكِنْ بِقُرْبَانِ الصَّلِيْبِ تَمَسَّحُ .

إنَّه استمرارٌ من جرير في هجاء الأخطل ، وذلك بما تفعله المرأة التغلبيَّة من المسْح بيدها على القُربان الَّذي يُقدَّم للصَّليب ، وهذا هو الأمر الذي يليق بالتَّغلبيَّة لا أن تَمْسَحَ بِكَفِّها على البيت العتيق وما ينبغي لها ذلك ؛ لأنَّ المسْحَ على البيت العتيق لا يليق إلا بالمسلم دون غيره ، ونلحظ التعبير بكلمة (تمسَّح) في آخر البيت ، والتشديد لحرف السِّين فيها ، وهذا يوحي بالمبالغة والتَّحمُّس والإصرار من المرأة التغلبيَّة على التَّمَسُّح بالصَّليب .

فجرير حين عبَّر بقوله : (تَمَسَّحُ) إنَّما أراد أن ينقلَ صورةً واضحةً عمَّا يفعله التَّغْلبيون من إسرافٍ في عبادتهم ، وإرهاق أنفسهم فوق ما تحتمل ، ولو اتَّبَعوا الحقَّ والصَّوابَ وأسْلموا لَمَا احتاجوا إلى مثل ذلك ولكنَّهُم أَبَوا فأوكَلَهم الله إلى أنفسهم ، وهذا مِن مَكْرِه – عز وجلَّ – بمن مَكَرَوا ، وَخِدَاعِهِ بِمَنْ خَادَعَ ، قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، [الأعراف:١٨٦].

[1] ديوان جرير ، ص ٨٠ .

ويقول جرير (١) :

وَأَدْعُــــو الإِلَــــهَ وَتَــدْعُــــو الــصَّــلِـيْــبَ

وَأَدْعُـــــــو قُــرَيْــشًــــا وَأَنْـصَـــــارَهَـــــا .

إنَّ جريرًا في هذا البيت يهجو الأخطل ويعيّره بأنَّه يدعو الصَّليب ويتوسَّل به ، ويعتمــد عليه ، بينما هو يَدْعو الله الواحد الأحد ، ويستعين به ، فهو – سبحانه – خــير معــين ، وأكرم مَنْ يُرْجَى ، وأفضل مَنْ يُتَوسَّل به .

فهي مقارنةٌ يعقدهـــا جريرٌ بينه وبين خَصْمِهِ الأخطلِ ، مقارنةٌ بين مَنْ يعبد الله وبــين مَنْ يعبد الصَّلِيب ، مقارنة بين مَنْ يدعو الــواحد الأحد وبين مَنْ يــدعو الصَّــليب ، ... مقارنةٌ بين مَنْ يفخر بقريش وبين مَنْ فَخْرُهُ بالصَّلِيبِ وَبِالرُّهْبان ، ومَارِسَرْجِس وتَغْلِب ... مقارنةٌ بين مَنْ دينه الإسلام وبين مَنْ يدين بالنَّصْرانية .

وبعد تلك الــمقــارنة يــخْلُصُ جريرٌ إلى القنــاعة الراســخــة بأنَّــهُ على حــقٍّ ، وأنَّهُ على صوابٍ ، فلا مجال عنــده لــخــلاف ذلك ، ولا شك يراوده علــى دينــه ، فــيــدعو في بيت آخر بأن يُــقَــبِّحَ اللهُ مَنْ إلــهُهُ الصَّلِيب مقــتــنــعًا أنَّ التَّغْلبيــين عَبَدوا الصَّليب ، واتَّخذوه إلــهًا لهم فيقول (٢) :

قَــبَــــحَ الإِلَـــــهُ مَــنِ الصَّــلِــيــبُ إِلَــهُــهُ

وَالْــلاَّبِــسِــيــنَ بَــرَانِـــــسَ الــرُّهْــبَــــانِ .

فجرير فــي هذا البيت يُكْمِلُ حَــسْــم تلك المقارنــة ، ويؤكد ما توَصَّل إليه مــن قنــاعة بدينه ، وإيمانٍ برَبِّهِ ، وثباتٍ على عقيدته بقوله (٣) :

فَــأَمَّـــا النَّـــصَـــارَى الْعَابِدُونَ صَــلِــيْــبَــهُـــم

فَــخَابُوا ، وَأَمَّا الْــمُــسْــلِــمُونَ فَأَفْــلَــحُــوا .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السّـــابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٧٩ .

إنَّها قناعتُهُ بخسارة التَّغْلبيين وبخيبتهم ، ويقينه في الوقت نفسه بفوز المسلمين وبفلاحهم وكأنَّه يُرَدِّدُ قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، [المؤمنون : ١] .

ويقول جرير [١] :

يـقْـضِـي الْكِـتَـابُ عَلَى الصَّلِـيْب وَأَهْـلِـهِ

وَلِـكُـلِّ مُـنْـزَلِ آيَـةٍ تَـأْوِيـلُ .

يُهاجم جريرٌ في هذا البيت الأخطل بمواجهته مباشرة بأَنَّ القرآن الكريم قَضَى على الصَّلِيب والتَّغْلبيين فليستْ لهم من حياةٍ مادام القرآن قد نَزَلَ ، ولا نَصْرَانية مع وجود الإسلام ، ولا كتاب آخر غير القرآن فكلُّ آيةٍ مُنْزَلَةٍ لها تأويلها ولها تفسيرها ولها غايتها الَّتِي أُنْزِلَتْ من أجلها .

وكأنّي بجرير يريد أن يُوصِل إلى الأخطل وقومه معنًى عظيمًا جليلاً اشتملتْ عليه الآية الكريمة التي قال الله فيها : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، [آل عمران : ٨٥] .

فهو يريد أن ينْقُلَ للتَّغْلبيين هيْمنة القرآن الكريم على ما سِوَاه من الكتب السَّماويّة ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾، [المائدة : ٤٨] .

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

ثانيًا : أَكْلُ لَحْمِ الْخِنْــزِيْرِ :

ما من طيب إلا أحله الله ، وما من خبيث إلا حرمه ، وما كان الله ليحرم أمــرًا وفيــه فائدة لعبادة ، أو يحل شيئًا وفيه ضرر لهم... وما أحله الله لعباده أكثر ممَّا حرمــه علــيهم ، فالغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب أن يحجر المرء واسعًا ، وأن يســير بقدميــه في أضيق الطرق ، وأن يضيق على نفسه بعد أن وسع الله عليه .

ويقينًا أن امرأ بلغ من الخذلان هذا الحد إنَّما هو شخص غير سوي لا يرى نورًا بعينيه في وضح النَّهار ، ولا يجد طعمًا لحلاوة الماء الزلال في فمه المر .

من هنا استغرب جرير أن يُقْدم التغلبيون على أكل لحم الخترير رغم كل صفات القبح التي تتمثل فيه ، ورغم كل ما يحمله من نجاسة وقذارة .

قال جرير [(١)] :

أَيَــفْــخَــرُ عَــبْــــدٌ أُمُّــــهُ تَــغْــلِــبِــيَّــةٌ
قَدِ اخْــضَــرَّ مِــنْ أَكْلِ الْــخَــنَانِيصِ [(٢)] نَابُــهَا .
غَــلِــيْــظَةُ جِلْدِ الْــمِــنْــخَرَينِ مُــصِــنَّــةٌ [(٣)]
عَــلَى أَنْفِ خِــنْــزِيــرٍ يُــشَــدُّ نِقَابُــهَــا [(٤)] .

يهجو جريرٌ التَّغْلبيين ويُحَقِّر الأخطل ويهجوه بِأمِّه الَّتي اعتادتْ أكل الخنــازير حَتَّــى اخْضَرَّتْ أنيابُها من كثرة أكلها ، ولأنَّ جريرًا مسلمٌ فهو يعلم تمامًا أنَّ أكل لحم الخنـــزير مُحَرَّمٌ فــي الإسلام لــقــولــه تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ... ﴾ [البــقرة : ١٧٣] ، وقوله تــعــالــى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ... ﴾

---

(١) انظر ديوان جرير ، ص ٤٦ .

(٢) الخنانيص : صغار الخنازير .

(٣) مُصِنَّةٌ : نَــتِــنَــة كريهة الرائحة .

(٤) نقابها : ما تَــتَــنَــقَّــبُ به المرأة من ثياب .

[المائدة : ٣] ، وغير ذلك من الآيات الكريمات التي تُحَرِّمُ تحريـــــمًا صريــــحًا أكْـــلَ لـــحْم الخنـــزير على المسلمين ، ولأنَّ جريرًا يعلم ذلك ويعلم أنَّ الإسلام إنَّما حَرَّمَ أكـــلَ لحم الخنـــزير لما فيه من الضَّرر والْقَذَرِ ، والإسلامُ دينُ الطَّهارة والنَّظافة ، ودينٌ يحثُّ على ما ينفع المرء وينهى عن كُلِّ ما يضرُّه من أجل كلِّ ذلك فقد جَعَلَ جريرٌ من أكل التَّغْلِبـــيين لِلَحْم الخنـــزير وقودًا يـــذْكي قريـــحَتَهُ لِـــتَـــتَـــوالى منها عبارات الهجاء ، والـــتَّحْقير ، والتَّعيـــيـــر لأولئك القوم وفي مقدمتهم الأخطل ..

وفي البيت الثاني يكْمل جريرٌ هجاءَه بإظهار أمِّ الأخْطل في صورَةٍ حقيرةٍ مـــزْرَيَـــةٍ فهي امرأةٌ غليظة الأنفِ ، مُصِـــنَّـــةٌ ، والْمُصِنُّ هو الـــمُـــنْـــتِـــنُ ، أَصَـــــنَّ اللَّـــحْـــــمُ : أَنْـــتَـــنَ [١] ، فهي نـــتـــنـــة الرائحة تفوح منها روائح الخنانيص القذرة ، وكأنَّ أنفهـــا أنف خنـــزيرٍ يُشدُّ عليه النِّقَابُ .

ويـــقـــول جـــريـــر [٢] :

وَالـــذَّابِـــحِـــيـــنَ إِذَا تَـــقَـــارَبَ فِصْـــحُـــهُمْ [٣]
شُهْبَ [٤] الْـــجُـــلُودِ خَـــسِـــيْـــسَـــةَ الأَثْـــمَـــانِ .
مِـــنْ كُلِّ سَـــاجِـــي الـــطَّـــرْفِ أَعْصَـــلَ نَـــابُـــهُ
فِـــي كُـــلِّ قَـــائِـــمَـــةٍ لَـــهُ ظِـــلْـــفَـــانِ [٥] .

---

[١] لسان العرب ، ١٣ / ٢٥٠ ، مادة (صنن) .

[٢] نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

[٣] عيدهم .

[٤] شهب الجلود : يعني الخنازير فهي كناية عن كثرة الدُّهْن الذي يـــشـــهـــب عند الشواء فيتحوّل لونه إلى غير البياض. (الشُّـــهْـــبُ والـــشُّـــهْـــبَـــةُ : لونُ بَيَاضٍ يَصْـــدَعُـــهُ سوادٌ في خلاله ، وأنشدَ : وعَلا المفَارقَ ربْعُ شَـــيْـــبٍ أَشْـــهَـــبِ . وقال أبو عبيدة : الشُّـــهْـــبَـــةُ في ألـــوان الخيل ، أن تَـــشُـــقَّ معظـــمَ لونهِ شـــعـــرةٌ أو شعـــراتٌ بـــيـــضٌ . كُـــمَـــيْتًا كـــان ، أو أشْقَرَ أو أدهمَ) انظر : لسان العرب ، ١ / ٥٠٨ ، مادة : (شهب) .

[٥] ساجي الطرف : ساكن الطرف وفاتر . أعصل نابه : مُعْوج النَّاب (يصف الخترير) .

إنَّ جريرًا يستمرّ في هجاء التَّغْلبيين بأكلهم لِلَحْم الخنازير ، واصفًا تلك الخنازير بأبْشَع الصِّفَات الَّتي تنفر منها الفطرة السَّليمة فهي خنازير خسيسة الأثمان ، وهي شُهْبُ الجلود ، والواحِد منها ساكنُ الطَّرْفِ مُعْوَجُّ النَّابِ له في كُلِّ قائمة من قوائمه الأربع ظلفان ، ومع كل تلك الصفات القبيحة فإنَّ التَّغلبيين يذبحون الخنزير في أفْضل أيَّامهم وهي أيام عيد الْفِصْحِ عندهم ، وكأنَّ جريرًا عندما يذْكرُ ذبحَ التَّغْلبيين لِلْخَنَازيرِ في يوم عيدهم يريد أنْ يلْفِتَ أنظارَ القومِ إلى ما يفعلُهُ المسلمون من ذبْح الأضاحي المباركة ، السَّليمةِ الخِلْقَةِ ، الطَّيبةِ المأكل في أيَّام عيد الأضحى إحياءً منهم لِسُنَّةِ أبيهم إبراهيم – عليه السلام – واقتداءً بسُنَّةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ – في الوقت الذي يخالف فيه التَّغْلبيون نهج المسيح – عليه السلام – في تحريمه أكل لحم الخنزير ، فهو – عليه السلام – حَرَّمَهُ ، ولم يَطْعَمْ منْه شيئًا ، وهم يُحِلُّونه ويُصِرُّونَ على أكْلهم لِلَحْمِهِ ، افتراءً منهم وانحرافًا عن الْجَادَّةِ ، وإمعانًا في الضَّلالِ .

قال ابنُ الْقَيِّمِ – رحمه الله – : ((والمسيحُ حَرَّمَ الخنزيرَ ، ولَعَنَ آكِلَهُ ، وَبَالَغَ في ذَمِّهِ – (والنَّصَارى) تُصِرُّ بذلك – (ولقد رُفِعَ إلى الله) وما طَعِمَ من لَحْمِهِ وزْنَ شَعِيرة ، والنَّصارى تَتَقَرَّبُ إليه بأكْله)) [(١)] .

ويقول جرير [(٢)] :

إنَّ الأُخَيْطِلَ خِنْزِيرٌ أَطَافَ بِهِ
إحْدى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وتُنْتَظَرُ [(٣)] .
مِنْ كُلِّ مُخْضَرَّةِ الأَنْيَابِ فَغَّرَهَا
لَحْمُ الْخَنَانِيْصِ يَغْلِي فَوْقَهُ السَّكَرُ .

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) هذا الشطر أخذه جرير من قول الأخطل :

وَقَدْ أَصَابَتْ كِلابًا مِنْ عَدَاوَتِنَا إِحْدَى الدَّواهِي الَّتِي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ .

انظر ديوان الأخطل ، ص ٩٤ .

إنَّ هذه الجريمةَ الكبرى والسيئةَ العظْمى التي اقترفها التَّغْلبيون من أكْلهم لِلَحْم الخنــزير لم يكن ليتخيَّلها عقْلٌ سليمٌ ، أو يصدِّقها نَظَرٌ ثاقبٌ مِمَّا حَدَا بجرير إلى أنْ يتخيَّلَ كُلَّ تغْلِبيٍّ وقد مُسِخَ خِنْزيرًا ، إذْ لا يُقْدِمُ على أكْل لــحْم هذا الحيوان القذر ، الكريْه المنظر ســوى مَنْ يُماثله في القذارة والْخِلْقَةِ ، ودناءةِ الطَّبْع وانحدارِ الــهِمَّةِ .

فالأخطلُ أصبح في نظر جرير خنــزيرًا ولذلك يستحقُّ أنْ يَتَلَقَّى الضَّرَبَاتِ الموجعــةِ ، وأنْ تَقَعَ عليه المصائبُ والقوارعُ المهْلكةُ الَّتِي يراها مع كُلِّ بيتٍ يهجوه به جرير .

ومِنْ أعظم تلك المصائب الَّتِي يخشاها الأخطلُ وينــتظرها ما أنزله جرير بِكُلِّ امــــرأةٍ من تغْلب دون هوادة من وصْفــها بأنَّها امرأةٌ أصــبــحت فَاغِرَةً دائمًا من فرْط أكلــها لِلَحْمِ الخنــانيــص الذي يغلي فوقــه السَّكَرُ ، إلى جانب قــذارة أسنانــهــا الــتي أصْبَحَتْ مــخْضَرَّةً من هذا الَّلحم القذر .

ويقول جرير [1] :

الــضَّــاحِــكُــونَ إِلَى الْــخِــنْــزِيــرِ شَــهْوَتَهُ
يَــا قُــبِّــحَــتْ تِــلْكَ أَفْــوَاهًــا إِذَا كَشَرُوا [2] .

وَالْــمُــقْــرِعُونَ عَلَى الْــخِــنْــزِيــرِ مَيْسِــرَهُمْ
بِــئْــسَ الْــجَــزُورُ وَبِئْــسَ الْقَوْمُ إِذْ جَــزَرُوا [3] .

يهجو جريرٌ التَّغْلبيــين بــمــا فيهم مِنْ شهــوةٍ مفْــرِطةٍ في أكْل لــحْم الخنــزير ، وبــمــا يــحْــتَلُّه الخنــزيرُ عندهم من اهتمام يفــوق العــادة فــهــم حــيــن يــرون لــحْــم الخنــزير يُكَشِّــرُون عن أنيابــهــم شهــوةً فيــه ، ورغــبــةً في الأكــل مــنــه، وفــوق ذلك فَــهُــم فــي أثناء جــلــوســهــم مــجــالــس

---

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

(2) كشروا : ضحكوا ، وظهرت أنيابــهم .

(3) جاء الشطر الثاني من هذا البيت هكذا : (بِئْسَ الْجَزُورُ وَبِئْسَ القومُ إِذْ يَسَرُوا) ديوان جرير ، ص ١٨٣ ، والمراد بـــ (يَسَرُوا) : أي يلعبون الميسر وهو ضرب من القمار .

الْقِمَار يجعلون قُرْعَتَهُم هذه الخنازير القذرة ، فَقُبِّحَتْ من خنازير ، وقُبِّحُوا مِنْ قومٍ هَوَتْ بهم نُفُوسُهُم إلى هذه الدَّرَكَاتِ الـمُنْحَطَّةِ .

ويقول جرير [1] :

يَقِئْنَ صُبَابَاتٍ مِنَ الْخَمْرِ فَوْقَهَا

صَهِيرُ خَنَازِيرِ السَّوَادِ الْمُمَلَّحُ [2] .

إنَّه الهجاء المقْذع من جرير لِلنِّساء التَّغْلبيات اللَّوَاتي يشْرَبْنَ من الْخَمْرَةِ إلى دَرَجة التَّقَيُّؤ منها مع ما في بطونهنَّ مِمَّا أكلْنَهُ من لحْم الخنزير الـمُمَلَّحِ والمشْوي إلى درجة السَّوَاد .. وهذه الدَّرجة العالية من الهجاء وُجِدَت عند جرير بسبب تأثير الإسلام فيه ، فالإسلام يُحَرِّم تحْريمًا قاطعًا أكلَ لحْم الخنزير ، والمسلمُ لا يمكن أنْ تُسَوِّلَ له نفْسُهُ الإقدام على الأكْل من لحْم هذا الحيوان القذر ولذلك فقد صَبَّ جريرٌ جامَ غضبه على الأخطل وعلى قومه من التَّغلبيين والتَّغْلبيات ، الأمر الذي رأيتُ معه جريرًا يُنادي الأخطل بغير لَقَبِهِ فيجعل لفظ (الخنزير) بدلاً من لقب (الأخطل) ، ويقول : (الخنازير) عندما يريد أن يتكلَّم عن (التَّغْلبيين) ، ومن ذلك قوله [3] :

تَمَنَّتْ خَنَازِيرُ الْجَزِيرَةِ حَرْبَنَا

وَقَدْ حَجَرَتْ مِنْ زَأْرِ لَيْثٍ كِلابُهَا .

فجريرٌ هنا يُشَبِّه التَّغْلبيين بالخنازير وبالكلاب – أيضًا – حيث يُحْجَرُ عليهم حمايةً لهم مِنْ براثن الأسد القيسيّ .

وفي قوله : (تمَنَّتْ) ما يدُلُّ على أنَّ التَّغْلبيين لا يمكنهم مواجهة القيسيين وأنَّهُم أحْقر وأضعف من ذلك ، فهم يتمنَّون – مجرد تَمَنٍّ – حرْبَ جريرٍ وقومه .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٨٠ .

[2] صُبَابَات : جمع صُبابة ، وهي البقيّة .

صهير : المراد المصهور وهو المذاب .

[3] ديوان جرير ، ص ٤٥ .

ويقول جرير [1] :

وَلِلْـقَـيْـنِ وَالْـخِـنْـزِيْـرِ مِـنِّـي بَـدِيْـهَةٌ

وَإِنْ عَـاوَدَانِـي كُـنْـتُ لِلْـعَـوْدِ أَحْـمَـدَا .

إنَّ جريرًا في هذا البيت يُعَرِّضُ بالفرزدق والأخطل ، فالْقَيْنُ يقصد به الفرزدق ، والخنزير يقصد به الأخطل ، والذي يعنينا في هذا المقام هو قوله : (والخنزير) فنلاحظ أنَّهُ لم يقل : الأخطل كما اعتاد من قبْل وإنَّما رأيناه يُعَرِّضُ به ويُشَبِّهُهُ بالخنزير الذي أكل من لحْمه كثيرًا ، وإلى جانب ذلك التَّعريض فإنَّه يتوَعَّدُ الفرزدق والأخطل إذا كانت البداية منهما بالهجاء ؛ أنَّهُ سوف يعود بقُوةٍ إلى الرَّدِّ عليهما والتَّصَدِّي لهجائهما .

ويستمر جريرٌ في أُسلوب التَّعْريض بالأخطل مُشَبِّهًا له بالخنزير في مثل قوله [2] :

قَالَ الْـخَـلِـيْـفَـةُ وَالْـخِـنْـزِيـرُ مُنْـهَزِمٌ :

مَـا كُـنْـتَ أَوَّلَ عَـبْـدٍ مُـحْـلِـبٍ خَـانَا .

والمـحْلِبُ هنا هو النَّاصِرُ من غير قومك .

فجريرٌ يقول : إنَّ الخليفَةَ يُوَبِّخُ وَيُعَنِّفُ الأخطلَ بأنَّهُ تَنَكَّرَ لِمَنْ نَاصَرَهُ ، وَجَحَدَ مَنْ وقفَ معه ، وَخَانَ مَنْ سَاعَدَهُ .

ويقول جرير [3] :

لَـعَـلَّكَ يَـا خِـنْـزِيـرَ تَـغْـلِـبَ فَـاخِـرٌ

إِذَا مُـضَـرٌ مِنْـهَا تَـسَامَـى بَنُـو الْـحَـرْبِ .

نلاحظ في هذا البيت – أيضًا – تناسي جرير لِلَّقَبِ المعهود لهذا الشاعر وهو (الأخطل) وأصبح يناديه (يا خنزير تغْلب) وهذا إمعانٌ

---

(1) ديوان جرير ، ص ١٣٣ .

(2) المصدر السابق ، ص ٤٤٦ .

(3) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

منــه في الهجاء ، وبســبب فداحة أكْل لحــم الخنــزير عنــده ، وإضــافةً إلى تشــبيــهــه الأخطــل بالخنــزير فإنــه يــهــجــوه - كذلك - بــأنَّه ذلــيــلٌ لا يُمكن أن يَــتَــسَــامَى بأصْله الوضــيــع الحــقــيــر ، وإنَّمــا يــفــخر بأولئك القوم الذين تحالــف مــعهــم ومــنــهــم الأمــويُّــون .

ويقول جرير [١] :

تَــعَــذَّرْتَ يَا خِــنْــزِيــرَ تَــغْــلِــبَ بَــعْــدَمَا

عَــلِــقْــتَ بِــحَــبْــلَــيْ ذِي مُعَاسَرَةٍ صَعْبِ [٢] .

يواصل جرير نداء الأخطل وهجاءه بقوله : (يا خنــزير تغْلب) مُعَنِّــفًا له بقولــه : إنَّك أيُّها الخنــزير وقعْتَ بين يدي شاعرٍ شديدٍ بأْسُهُ ، عسيرٍ نِزَالُهُ ، صعْبٍ مِرَاسُهُ .

ويقول جرير [٣] :

فَلَمَّا سَــقَــيْــتُ الــسُّمَّ خِــنْــزِيــرَ تَــغْــلِــبٍ

أَبَا مَالِكٍ جَــدَّعْــتُ قَــيْــنَ الصَّــعَــاصِــعِ [٤] .

فهذا تعريضٌ جديد من جرير بالأخطل ، وتشبيه له بالخنــزير ، ثُمَّ إنَّهُ انتصَرَ عليه وفي ذلك قال : (سَقَيْتُ السُّمَّ) وفيــه دليلٌ على نشوة الانتصار الذي لا يُتَوَقع معــه عــودة الأخطل إلى الْمُنَازَلة من جديد . ثُمَّ أَكَّدَ جريرٌ أنَّه بعد أن فرَغَ من الأخطل جَــدَع أنــفَ الفرزدق بانتصاره عليه هو الآخر .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

[٢] تَــعَــذَّرْتَ : تَــعَــسَّــرْتَ وصَعُبَ عليك .

[٣] ديوان جرير ، ص ٢٥٧ .

[٤] جَدَعَ : قَطَعَ الأنف .

قين الصَّعَاصِع : الفرزدق حيث نسبَهُ إلى جدِّه صَعْصَعَة .

ويقول جريرٌ [١] :

وَمَـا زِلْـتَ يَا خِـنْـزِيـرَ تَـغْـلِـبَ جَـاحِرًا

بِـمَنْـزِلَةٍ يُـحْمَـى عَلَيْكَ وَلا تَـحْـمِـي [٢] .

لازال هذا اللقب الجديد (خنـزير تغلب) مـلازمًا لـجـرير في هـجـائه الأخطَل مضيـفًـا إليه أنَّـهُ في موقـع القـوَّة والـمـنـعَـة بـحـيـث إنَّ الأخـطـل أصـبـح عـاجـزًا مـخـتـبـئًـا فـي جـحْـرِه لا يـمـلك حـيـلةً ولا يـهـتـدي سبـيـلاً ، مـحـتـاجًا إلى مَنْ يُـقـدِّمُ لهُ الحمـايـةَ فلم يعُد يـسـتـطـيـع الـدفـاع عـن نـفـسـه .

ويقول جرير [٣] :

كَـانَـتْ وَقَـائِـعُ قُـلْـنَـا لَـنْ يُـرَى أَبَـدًا

مِـنْ تَـغْـلِـبٍ بَـعْـدَهَـا عَـيْـنٌ وَلا أَثَـرُ .

حَـتَّـى سَـمِـعْـتُ بِـخِـنْـزِيـرٍ ضَغَا جَزَعًا

فَـقُـلْـتُ : إِنِّـي أَرَى الأَمْواتَ قَدْ نُـشِـرُوا [٤] .

لازال جريرٌ يُلاحق الأخطل ويهجوه ويُشـبِّهُـهُ بالخنـزير ، وهـو في هـذيـن البيتين يذْكرُ أنَّـهـم ألحقوا بالتَّغْـلبيـين الخسائر والهـزائم خـلال تلـك الوقـائع والحروب الطاحنـة التي خاضوها ضدهم ، والَّتِي يَـظُـنُّ الظَّانُّ مِـمَّا حصل فيـها من قتْل عظيمٍ للتَّغْلبيـين ألاَّ يـبقـى منهم بعدها أثرٌ ، وأن يكونَ مآلُـهُـم الموت جميعًـا، لكنَّ جريرًا فُـوجئ بسَـمَاعه صوتَ الأخطل الذي شبَّـهَهُ بالخنـزير الذي يصـيـح من شِدَّة الـهـول فاعْتَـقَدَ أنَّ الأمواتَ قد بُعِـثُوا من قبـورهم .

---

[١] ديوان جرير ، ص ٣٨٣ .

[٢] جاحرًا : مقيمًا في الـجُحْرِ .

[٣] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

[٤] ضغا : صاح .

الأموات قد نُـشِـرُوا : بعثهم الله وأعادهم إلى الحياة .

و لم يكْتفِ جريرٌ بتشبيه الأخطل بالخنــزير وَإِنَّمَا أجْرَى هذا التَّشْــبِــيهَ علــى ســائر التَّغْلبيين والتَّغْــلبيات ، ومن ذلك قوله (١) :

خَـــنَـــازِيـــرُ نَـــامُـــوا عَـــنِ الْـــمَـــكْـــرُمَـــاتِ

فَـــنَـــبَّـــهَـــهُـــمْ قَـــــدَرٌ لَـــمْ يَـــنَـــمْ .

فَـــيَـــا قُـــبْـــحَـــهُـــمْ فِـــي الَّـــذِي خُـــوِّلُـــوا

وَيَـــا حُـــسْـــنَـــهُـــمْ فِـــي زَوَالِ الـــنِّـــعَـــمْ .

فجريرٌ في البــيت الأوَّل يشَــبِّــهُ التَّغلبــيــين بالخــنــازير ، فهو كــأنَّــه يــرى أنَّ مَنْ أكل من لحم هــذا الخــنــزير القَــذِر فلا ينــبــغــي أنْ يُــدْعى باســمــه وإنَّما يــجــب أنْ يُطْلَقَ علــيــه اسم الخــنــزيــر .

وهؤلاء الخنازير – كما وصــفــهم جريرٌ – ناموا عن كلِّ عمــلٍ شــريفٍ كــريمٍ ، ولكنَّ الْقَدرَ الذي لا ينام نبَّــهَــهُمْ له ، وهم يصْبحون قبــيحــين عنــدما يعطيــهم الله النِّعَمَ ، والأفــضــل لــهــم زوالُ تِــلك النِّــعَــمِ عنــهم فبــزوالــهــا يــظهر جمالهم ، إذ لا يصــلــح لهم إلا الفــقــر والعَوَزُ والفاقة .

وقال جرير (٢) :

وَخَــاضَتْ حُــجُــولُ الــوِرْدِ بِالْــمَــرْجِ مِنْــكُمُ

دِمَــــاءً ، وَأَفْــوَاهُ الْــخَــنَــازِيــرِ كُــلَّــحُ (٣) .

يهجو جريرٌ في هذا البيت التَّغْلبيين ويُشَبِّهُهُم بالخنازير ويُذَكِّرُهم بانتصار القيسيين عليهم في مَرْج الكحيل وهو الموقع الذي حَصَلَتْ فيه المعركة بين الطَّرفين حيث أصبحَت الإبل تَرِدُ

---

(١) ديوان جرير ، ص ٤١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٣) حُجُول : الإبل التي في قوائمها بياض .

الْوِرْدُ : الإقبال على الماء والإشراف عليه .

الْمَرْج : مرج الكحيل وفيه انتصرت قيس على تغْلب .

كَلَحَ : تكشَّفَتْ شفتاه عن أسنانه .

وتخوض في دماء التَّغْلبيين ، ومَنْ لم يـــمُـــتْ منهم فإنَّه أضحى كَالِحاً قد تكَشَّفَتْ شـــفتاهُ عن أسنانه ، وعبس وجْهُهُ مِن هوْل الموقف ، ومِنْ فداحة الهزيمة .

ويقول جريرٌ (١) :

أَلَـــمْ تَرَ قَـــيْـــسًـــا قَـــيْـــسَ عَـــيْـــلانَ دَمَّـــرَتْ

خَـــنَـــازِيْـــرَ بَيْـــنَ الشَّـــرْعَـــبِـــيَّـــةِ وَالدَّرْبِ (٢) .

نلاحظ استمرار جرير في تشبيه التَّغْلبيين بالخنازير ويهجوهم ويعيِّرُهُم بالهزيمة السَّـــاحِقَةِ الَّتِي لَحِقَتْ بـــهم على يد القيسيين بين الشَّرعبيَّة والدَّرْب .

*** ***

ويـــبدو أنَّ شِدَّةَ كراهـــيـــة جرير لـــهـــذا الحـــيـــوان القـــذر ، وكـــثـــرة تَـــرْدَاده لاســـمـــه في أثـــناء هجـــائه للأخطـــل وللتَّـــغْلبيـــين جَعَلَـــتْ مـــن اســـم الخنـــزير شيـــئًا مألوفًا دارجًا على لســـانه حَتَّى في هجـــائه لغيـــر التَّغْلبيـــين .

ونظرًا لموقف جريرٍ من الخنـــزير ، وكرهِهِ الشَّدِيد له ، وَتَأَثُّرًا منه بموقف الإسلام مـــن هذا الحيوان القذر حيثُ يُحَرِّمُ الدِّينُ الإسلامي أَكْلَ لحم الخنـــزير ، فقد تَوَلَّدَ عن ذلـــك الموقف من جريرٍ أنْ وَصَفَ الخنـــزيرَ بصفاتٍ كثيرةٍ هـــي غايـــةٌ في القُـــبْح والازدراء ، يـــنْـــفُـــر منها أصحابُ الذَّوق السَّليم ، ويتقزَّزُ مِنْ ذِكْرِها الأسوياءُ ، ولكِنَّ مثل تلـــك الصفات القبيحة لم تَثْنِ التَّغْلبيين عَنْ أنْ يَتَّخِذُوا من لحمه طعامًا مُفَضَّلاً يُقَدَّمُ في المناســـبات الرفيعة عندهم ، ويَتِمُّ الاقتراع عليه في مجالس الْمَيْسر ، فَصَاحِبُ الحظِّ السَّعيد مَنْ ظَفِرَ بِهِ ، والتَّعِيسُ مَنْ حُرِمَ مِنْهُ !! إضافةً إلى الاعتناء بهذا الحيوان غاية الاعتناء ، وتربيته في المنـــازل رغم نجاسَتِهِ وشكْله المقزِّز ، ورغم ما ينقله من أمراض كُلُّ ذلك لأنَّ نفـــوسَ القـــومِ قـــد انْحرفَتْ عن الصراط المستقيم إلى طرق الغواية ، ومهاوي الضَّـــلالة .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

(٢) الشَّرْعبيَّة : موقع بالجزيرة في بلاد تغلب كانت بها وقْعَة بين سُليم وتغلب (انظر المصدر السّـــابـــق ، ص ١١٣) .

الدَّرب : درب الروم في بلاد الروم ، وهو مضيق في الجبل صعب المسلك .

إنَّ مثلَ هذه التَّراكُمات الَّتي ضاق بها جريرٌ ذرْعًا جَعَلَتْهُ يبيِّنُ صفاتِ القُبْح لدى هــذا الحيوان علَّها تقضي حاجةً في نفسه ، أو تُزلزل نفوسَ خُصومه ، ومِنْ هذه الصِّفات ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مثل : خســيسة الأثمان ، وشُهْب الجلود ، وساجي الطَّــرْف ، وَأَعْصَل النَّـــاب .

ومن الصِّفات القبيحة الَّتي وصفَ بها جريرٌ الخنــزيرَ والتي لم يتقدَّم ذِكْرهـــا : قولــه : مُخْتَلِف النَّابَيْن نَخَّار ، حين قال [1] :

أُمُّ الأُخَــيْـطِــــلِ أُمٌّ غَـيْـــرُ مُـنْـجِـبَـــةٍ

أَدَّتْ لِـمُــخْـتَـلِفِ النَّـابَـيْــنِ نَـخَّـارِ [2] .

فهي امرأةٌ غيــرُ منْجِــبَــةٍ ، وفي نــهاية أمرها انْــتَهــتْ إلى وَلَــدٍ مُشَوَّه الْخِلْقَــةِ فيه صفات الخنـــزير .

*** ***

وَمِنَ الصِّفَات القبــيــحة الَّتــــي أطْلَقَهـــا جريـــرٌ علـــى الخنـــــزير أَنْ وَصَـــفَهُ بالْمُخَـــفْــخِفِ وَالْخَنَّانِ وذلك في قوله [3] :

قَــبَــحَ الإِلَــهُ سِـبَـــالَ تَـغْـلِــبَ إِنَّــهَـــا

ضُرِبَتْ بِــكُــلِّ مُـخَـفْـخِـفٍ خَـنَّــانِ [4] .

والْخَــفْــخَــفَـــةُ - كما قال ابـــن منـــــظور في لســـان العـــرب - : صـــوت الـــحُــــبَارى والضَّــــبُعِ والْخِــنْــزِيــــرِ [5] . (وَخَــفْــخَـــــفَ : صَــــوَّتَ .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ ، وقد جاء البيت برواية أخرى هي :

أُمُّ الأُخَيْطِلِ أُمٌّ غَيْرُ مُنْجِبَةٍ أَدَّتْ لأَشْهَبَ وَسْطَ الْبَقِّ نَخَّارِ .

ديوان جرير ، ص ٢٢٠ .

[2] مُــخْــتَــلِفُ النَّـــابَــيْنِ : كناية عن الخنزير .

نَخَّار : يُصَوِّتُ من خياشيمه .

[3] ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

[4] مُخَفْخِفٍ خَنَّانِ : المراد الخنزير .

[5] لسان العرب ،(خفف) ، ٩ / ٨٢ .

(الْخَفْخَافُ) : الَّذِي كَأَنَّ صوْتَهُ يخْرُجُ من أَنْفِهِ ، ويُقال : هو خَفْخَاف الصَّوْت) [(١)] .

و (الْخَنِيْنُ : ضرْبٌ من البكاء دون الانتحاب ، وأَصْلُ الْخَنِين خروج الصَّوتِ من الأَنْفِ ، وفي حديث أَنَسٍ : فَغَطَّى أصحابُ رسول الله – ﷺ – وُجُوهَهُم لهُم خَنِيْنٌ . قال ابن سِيْده : والْخَنَنُ والْخُنَّةُ والمخنَّةُ كالْغُنَّةِ ، وقيل : هو فوقَ الْغُنَّةِ وأقبح منها . وقال ابن الأَعْرابي : والخنينُ مِنَ الأَنْفِ . وقال الفصيحُ من أعراب بني كلاب : الْخَنِيْنُ سَدَدٌ في الخياشيم ، والْخَنَّانُ : داءٌ يأْخُذُ في الأَنْفِ) [(٢)] ، والسِّبَالُ : (السَّبَلَةُ ما على الشَّفَةِ العُلْيا من الشَّعر يَجْمع الشَّارِبَيْن وما بينهما ، والمرأة إذا كان لها هناك شَعَر قيل : امرأةٌ سَبْلاءُ ، والسَّبَلَةُ عند العرب مُقَدَّم اللِّحْيَة ، ويُقال : جَاء فلانٌ وقد نَشَرَ سَبَلَتَهُ إذا جاءَ يتوعَّدُ .

ويُقال للأعداء : هم صُهْبُ السِّبَال) [(٣)] وأراد جرير بالسِّبَالِ وجوهَ التَّغْلبيين .

وفي هذا البيت يدعو جريرٌ على التَّغْلبيين بِأَنْ يُقَبِّحَ الإلهُ وجوهَهُم وأَنْ يمسَخَهُم خنازير .

*** ***

ويُواصل جريرٌ هجاءَ الأخطل حيث يُعيِّرُه بأُمِّهِ فيقول [(٤)] :

نَزَتْ أُمُّ الأُخَيْطِلِ وَهْيَ نَشْوَى
عَلَى الْخِنْزِيرِ تَحْسَبُهُ غَزَالاَ [(٥)]

---

(١) المعجم الوسيط ، مادّة (خَفْخَفَ) ، ١ / ٢٤٦ .

(٢) انظر لسان العرب ، مادّة (خَنَنَ) ، ١٣ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) انظر المصدر السابق ، مادّة (سبل) ، ١١ / ٣٢٢ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٥ .

(٥) نَزَتْ : طَمِحَتْ وَرَغِبَتْ .
نَشْوى : سَكْرى .

ولعل البيت التَّالي يكون ضربةً قاصمةً لِلظَّهْر وجَّـهَـهَا جريرٌ للأخطـل حيـث قـال يهـجوه بِأُمِّـه [(١)] :

تَـغْـلِي الْـخَـنَـانِـيـصُ وَالْفُولُ الَّذِي أَكَلَتْ

فِي حَـاوِيَـا وَيْ رَدُوْمِ اللَّـيْـلِ مِـجْـعَـارِ [(٢)] .

يُريدُ جريـرٌ هنـا أن ينـقل صـورةً بشِـعـةً لِمَـا يُـحْـدِثُـهُ لـحْمُ الخـنـانـيـصِ الَّذي أَكَلَتْـهُ أمُّ الأخـطـلِ مع ذلك الفـول حـيـث يـجـعلها في حـالـةٍ مـزْريـةٍ طوال اللَّيل فـهـي رَدُومٌ طـوال اللَّيـل ، وهي مِجْـعـار ، و (الـمَجْعَرُ : الـدُّبُـرُ . ويُقال للـدُّبر : الْجَـاعِرَةُ والْجَـعْـرَاءُ . والجَـعْـرُ : نـجْـوُ كلِّ ذاتِ مِـخْـلَـبٍ من السِّـبَـاع . والْجَـعْـرُ : ما تَـيَـبَّـسَ فـي الـدبر من العـذرة . والْجَـعْـرُ : يُـبْـسُ الطبـيـعـةِ ، وخـصَّ ابـنُ الأعْـرابـي بـه جَـعْـرَ الإنـسـان إذا كـان يـابـسًا ، والجمـعُ جُـعُـورٌ ؛ ورجـلٌ مـجـعـارٌ إذا كـان كـذلك) [(٣)] .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٨ ، وجاء البيت في ديوان جرير هكذا :

تَضْغُو الخنانيصُ والفولُ الذي أَكَلَتْ في حـاوياتِ ردومِ الليـل مجعـارِ .

ديوان جرير ، ص ٢٢٠ .

(٢) حاويا وَيْ : الأمعاء .

ردوم : ضروط .

(٣) لسان العرب ، ٤ /١٤٠ ، مادّة (جعر) .

ويقول جرير [١] :

لَـــقِـــحَـــتْ لأَشْـــهَـــبَ بِالْـــكُـــنَـــاسَـــةِ دَاجِنٍ

خِـــنْـــزِيـــــرَةٌ فَـــتَـــوَالَـــدَا خِـــنْـــزِيـــــرَا [٢] .

هنـــا جَعَلَ جريرٌ مـــن والِدَي الأخطلِ خِـــنْـــزِيرَيْنِ تزاوجـــا في ذلك المكان القـــذر وكان نـــتيجـــة هذا الزواج أنْ وَلَدَ لهـــما خنـــزيـــرٌ وهو الأخطل .

*** ***

---

[١] نَقَائض جرير والأخطل ، ص ١٢٦ .

[٢] أَشْهَب : أي مثل الخنزير في لونه .

الكُنَاسة : اسم موضـــع بالكـــوفـــة ، والكنـــاسة أيـــضًا : المـــكان الـــذي تُـــلْـــقَـــى فيـــه القمـــامـــة وكذلك مربـــض البهائم . داجن : هو الحيوان الأليـــف المســـتـــوطن .

ثَالِثًا : قَرْعُ النَّوَاقِيْسِ :

قرع النواقيس وسيلة يعبر بها النصارى عموما عن دخول أوقات صلاتهم ، وقد لاحظ جرير ذلك السلوك عند نصارى تغلب خصوصا وذلك السلوك عند أولئك القوم يمثل قيمة إيمانية .

وكأن جريرا يقارن في أعماقه بين الأذان الذي هدى الله تعالى إليه المسلمين وبين وسيلة النصارى للإعلان عن وقت الصلاة وكأنه يشعر بسمو الأذان بالقياس إلى غيره من الوسائل ، ومنها وسيلة النصارى . فها هو ذا شعور جرير يتجلى في هيأة هجومه على الأخطل من زاوية النداء بهذه الوسيلة المرجومة في أعماقه .

قال جرير [1] :

صُبَّتْ عَلَيْهِم عَقِيمٌ لَمْ تَزَلْ بِهِمِ
حَتَّى أَصَابَهُمُ بِالْحَاصِبِ الْقَدَرُ .
رِجْسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا أَذَانُهُمُ
قَرْعُ النَّوَاقِيسِ لا يَدْرُونَ مَا السُّوَرُ .

يهجو جريرٌ التَّغْلبيين واصفًا إيَّاهم بالرِّجْسِ ، ومُعَيِّرًا لهم بما اتَّخَذُوهُ أَذَانًا لهم قبل صلاتهم ، وهو قرع النَّواقيس ، فكأنَّهُ بذلك يعْقدُ مقارنَةً بين ما يفْعله المسلمون قبل الصلاة من أَذَانٍ ، وبَين ما يفعله التَّغْلبيّون من قرْعٍ للنَّوَاقيس .

فالأذانُ عنْد المسلمين يحْمِل كلمةَ التَّوحيد ، ويتضمَّن الشهادة ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ، وإلى التَّكْبير لله – تعالى – بينما رأى جريرٌ أنَّ تلك المعاني والْقِيَمَ الإسلاميَّةَ مغيَّبَةٌ تمامًا في قرْع التَّغْلبيين لِنَواقِيْسِهم قبل صلواتهم [2] . فهذه الْقِيْمة الإيمانية عند أولئك التَّغْلبيين ليست كقيمة الأذان عند المسلمين .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

[2] ((والصلاةُ عندهم ركن من أركان الدين ، وهي في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح ... والصلاةُ عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمنزلة الدِّعامة ، الشرط الأول : أن تُقَدَّم باسم المسيح .. الشرط الثاني : أن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم ، فقد جاء في

وقد وظف جرير هذا الشعور في هجومه العارم على الأخطل .

وفي البيت الأول نلْحظ استحضار جرير في هجائه الأخطلَ والتَّغْلبيين لما وَصَفَ اللهُ به في القرآن الكريم نوعَين من الريح الَّتي سلَّطَهَا على بعض الأقوام عِقَابًا منه – سبحانه – فالنَّوع الأول : هي الريح العقيم [1] الَّتي لا تثير سحابًا ، ولا تأتي بخير ، والثَّاني : هي الريح الْحَاصِب [2] وهي الشديدة القويَّة التي تحْمل معها الْبَرْدَ والحصباء والتراب .

فيذكُرُ جريرٌ أَنَّهُم تصدّوا لِلتَّغْلبيين كتلك العاصفة الْعَقِيم التي لا تُمْطر ، حتَّى دَمَّرُوهُم ، وألحقوا بهم الهزيمة الساحقة .

* * *

...الإصحاح الحادي عشر من إنجيل مرقس ما نصُّهُ : ((لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تُصَلُّون فآمنوا أن تنالوه ، فيكون لكم)))) انظر محاضرات في النَّصْرانية ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

وجاء في (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة) حول بيان كيفية الصَّلاة عند النَّصارى : ((الصلاة : ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتي الصباح والمساء ، وهي عبارة عن أدعية وتسابيح وإنشاد ، كما أنَّ الانتظام في الصَّوم والصَّلاة إنَّما هو تصرف اختياري لا إجباري .)) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ص ٥٠٤ .

[1] الريح العقيم أرسلها الله على قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾، [الذاريات : ٤١] .

[2] الريح الحاصِب أرسلها الله على قوم لوط ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾، [القمر : ٣٣ ، ٣٤]، وفي قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، [العنكبوت : ٤٠] قال ابن كثير : ((وهم عاد وذلك أَنَّهُم قالوا مَنْ أشد منَّا قوَّة فجاءهم ريح صَرْصَرٌ باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جدًّا تحْمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض ...)) انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٢٤ .

رابعًا : لُبْسُ بَرَانِسِ الرُّهْبَانِ :

أباح الإسلام للمسلم أن يلبس ما يشاء من اللباس في حدود ما جاءت به الشريعة السمحة من حث على لباس الستر والوقار والتواضع بعيدا عن كل لباس فيه إسراف أو خيلاء أو تشبه بكافر أو أن يلبس الرجل لباس المرأة ، أو المرأة لباس الرجل ...

أما لباس الرهبنة فليس من الإسلام في شيء ، ولهذا رأينا جريرا يشن حربه الهجائية على التغلبيين بأن هجاهم بما يلبسونه من البرانس .

وجرير ينطلق في هجومه على الأخطل من زاوية الشعور في أعماقه بسمو الملابس الإسلامية ، والزي الإسلامي .

قال جرير [(1)] :

قَبَحَ الإِلَهُ مَنِ الصَّلِيبُ إِلَهُهُ

وَالْلاَّبِسِيْنَ بَرَانِسَ الرُّهْبَانِ .

يهجو جريرٌ التَّغْلبيين ويُعَيِّرُهُم بلبسهم تلك الْبرانسِ الَّتي يرتديها الرُّهْبَانُ ، والْبُرْنُس : كُلُّ ثوْبٍ رأسه منه ، مُلْتَزِقٌ به [(2)] ، وجريرٌ لم يَعِبِ الْبَرَانِسَ جمْلَةً وَإِنَّما عابَ تلك البرانس التي يلْبَسُهَا الرُّهْبَان ، فقال : برانِسَ الرُّهْبَانِ .

ونلاحظ أنَّ جريرًا لم يُغْفلْ حتَّى مسألة اللِّبَاس في هجائه للأخطل ولقومه ، وهذا يدل على تَأَثُّرِهِ بالإسلام تأثرًا واضحًا فهو يعْلَمُ أنَّ المسلمَ له زيُّهُ الخاص الذي يتفرَّدُ به عن سائر أهل الأديان الأخرى فلا يلبس المسلمُ لباسًا فيه تشبُّهٌ بالكُفَّار ، ولا يلبس لباس الْكِبْرِ والخيلاء ، ولا يرتدي الحريرَ ، ولا يجُرُّ ثوبَه خيلاء ، ولا يتنطَّع بلباس الرَّهْبَنَةِ المبتَدَعَة أو التَّصَوّف المقيت ، ولذلك فقد هجا التَّغْلبيين في لباسهم ، وكأنَّه في الوقت نفسه يفخر بلباسه الإسلامي الذي اختاره له الإسلام ، وعُنِيَتْ به الشريعةُ.

---

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(2) المعجم الوسيط ، ١ / ٥٢ مادّة (تَبَرْنَسَ) . وفي لسان العرب (البُرْنُسُ : قَلَنْسُوة طويلة ، وكانَ النُّسَّاك يلبسونها في صدر الإسلام ، وهو من البِرْس ، بكسر الباء ، القطن ، والنون زائدة ، وقيل : إنه غير عربي) انظر لسان العرب ،(بسس) ، ٦ / ٢٦ .

خامسًا : عِيْدُ الْفِصْحِ :

عيد من أعياد النصارى يحيون فيه ذكرى خروج اليهود من مصر مع نبي الله موسى عليه السلام ، ولهم معه الكثير من المراسم والعادات من أهمها ذبح الخنازير احتفاء به والأكل من لحومها .

قال جرير [(١)] :

والـذَّابِحِـيْـنَ إِذَا تَـقَـارَبَ فِـصْـحُـهُـمْ
شُـهْـبَ الْـجُلُـودِ خَـسِـيْـسَـةَ الأَثْـمَان .

يذكر جريرٌ في معرض هجائه التَّغْلبيين عِيْدَ الْفِصْحِ و (هو عيد تذكار خروج اليهود من مصر ، مع موسى عليه السلام ، والنَّصُّ عليه في سِفْر اللاَّويين هو : ((في الشَّهْر الأول في الرابع عشر من الشَّهْر بين العشاءين فِصْحٌ للرَّبِ))) [(٢)] .

و (يبدأ من ١٤ أبريل مساء وينتهي مساء ٢١ منه ويكون الطعام فيه خبزًا غيرَ مختمر) [(٣)] ، وحين يهجو جريرٌ الأخطلَ وقومه ويُعَيِّرُهُم بهذا العيد وبما يصنعون فيه من ذبْح للخنازير ، وأكل للحومها القذرة فكأنه يفتخر في اللحظة ذاتها بإسلامه ، وبما شَرَعَهُ اللهُ للمسْلمين من عِيْدَيْن اثنين في كُلِّ عام يفرحون فيهما الفرح المباح المنضبط بضوابط الشَّريعة ، ويأكلون مِمَّا أَحَلَّ الله لهم من الطَّيبات ، ويلبسون الملابس الجديدة ، ويتطَيَّبُون من الطِّيب الزَّكِيّ الرائحة وليس كما يفعل التَّغْلبيون حين يختارون ذلك الحيوان القذر ليكون طعامهم في أعيادهم فيجمعون بذلك بين ما يصل إلى بطونهم من لحم قذر ، وبين ما ينبعثُ منهم من الروائح الكريهة نتيجة أكل لحم ذلك الحيوان ، وهذا ما يأنف منه المسلمون .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٢) حقيقة النَّصرانية من الكتب المقدَّسة ، علي الجوهري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر ، ص ٢٤٣ .

(٣) انظر الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ٥٧٠ .

سَادِسًا : إِتْيَانُ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيْضِ :

سلوك مشين حرمه الإسلام لما يكتنفه من الضرر الكبير ، ولما فيه من منافاة للفطرة السوية ، لكن نصارى تغلب لم يتحرجوا من أن يأتي الواحد منهم زوجته وهي حائض !! بل والأدهى من ذلك أن يستحب أحدهم أن يواقع زوجته حالة حيضها أكثر من أن يواقعها وهي طاهرة ــ كما زعم ذلك جرير ــ وكأن جريرا يريد أن يبين لنا عظمة الإسلام وطهارته ، ويبرز جانب النقاء والصفاء فيه ، وفي الطرف الآخر نرى الغشاوة التي تعتري التغلبيين وتجعل من توجهاتهم الدينية توجهات مشكوكا في صوابها،وحقيقتها.قال جريرٌ [(١)]:

وَلاَ يَتَّقُونَ مَحِيْضَ النِّسَاءِ
وَلاَ يَسْتَحِبُّونَ أَطْهَارَهَا .

يهجو جريرٌ التَّغْلبيين هجاءً مُقْذِعًا وذلك بأنَّهُم يأتون النِّسَاء حالةَ حيضهِنَّ ، بل ويُبالغ في هجائهم بأنَّهم يرغبون ذلك رغبةً شديدةً ، ويكونُ إتيانهم للمرأة وهي في الحيْض أطيبَ عندهم من إتيانها وهي في الطُّهْر فقال : ولا يستحِبُّون أطهارَهَا .

والتَّغْلبيون إنَّما يفعلون ذلك مُخَالَفةً لِلْيَهود ، وتطبيقًا لما يكرهونه ، قال ابنُ الْقَيِّمِ – رحمه الله – : ((ورأوهم [(٢)] يجتنبون من (مؤاكلة) الحائض (وملامستها) فجامعوها هم ...)) [(٣)] .

إنَّ مؤاكلة الحائض وملامستها أمرٌ لا ضير فيه في الإسلام ، وإنَّما النَّهْيُ والتَّحْريم في الإسلام يكْمن في إتيان النِّساء في المحيض ، وأَمَّا التَّغْلبيون نتيجةً لتخبُّطِهِم ، فقد وَقَعوا فيما وقعوا فيه من الأخطاء الفاحشة مِمَّا هو محل التنديد والاستنكار عند العقلاء ، وقد رأى جريرٌ في ذلك الفعل فرصةً سانحةً لِيَنْقَضَّ على خصْمه زاجرًا له ولقومه على تلك الأفعال الرخيصة ، ومفْتخرًا عليهم في أعماقه بما يَعْلَمُه الأخطل من تحريم الإسلام إتيان النساء في المحيض .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المراد بقوله : (ورأوهم) أي : رأوا اليهود .

(٣) انظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصَارى ، ص ٤٨٦ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ :

الْقِيَمُ السُّلُوكِــيَّــةُ فِي الإسْلام عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ .

عندما نستعرض شعر شاعرٍ مسلمٍ فإنَّنا لا نعدم أنْ نجد الْقِيَمَ السُّلوكيَّة الإسلاميَّة متناثرةً في بعض قصائده إنْ لم يكن فيها جميعًا ، وهذا ما رأيتُهُ واضحًا جليًّا في شِعْرِ جرير ، ويزيد من هذا الحضور الملحوظ لتلك الْقِيَم السُّلوكيَّة الإسلاميَّة في شِعْرِه أنَّه إزاء شاعرٍ يدين بغير دينه فهو معه على طرفي نقيض .

وكانت الْقِيَم السُّلوكيَّة الإسلاميَّة في نقض جرير شِعْر الأخطل على النَّحْو التَّالي :

أوَّلاً : الْخُضُوعُ للهِ وَحْدَهُ – دُونَ سِوَاهُ – ، وَحَمْدُهُ وَشُكْرُه .

ثَانيًا : الْفَخْرُ بِرَسُولِ اللهِ – ﷺ – وَبِالأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَة .

ثَالِثًا : طَلَبُ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيهِ بِالدُّعَاءِ سِرًا وَعَلاَنِيَة .

رَابِعًا : الْمُسْلِمُ يَأْتَمِرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَيَنْتَهِي عَنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْه .

خَامِسًا : كَثْرَةُ الاسْتِمَاعِ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْم .

سَادِسًا : الْكَرَمُ وَإِقْرَاءُ الضَّيْفِ وَحِمَايَةُ النَّازِلِيْنَ وَالدِّفَاعُ عَنْهُم .

سَابِعًا : التَّأَثُّرُ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْم ، وَالْحَدِيْثِ الشَّرِيف ، وَبِمَا فِيْهِمَا مِنْ أَحْدَاث .

ثَامِنًا : الْغَيْرَةُ عَلَى الْمَحَارِم .

تَاسِعًا : إِقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَاسْتِنْكَارُ الضَّيْم .

* * *

أوَّلاً : الْخُضُوعُ لله وحْدَه – دونَ سِواه – ، وَحَمْدُهُ وَشُكْرُه :

المسلم لا يخضع إلا لله تعالى ولا يطأطئ رأسه لغيره لأنه يعلم علم اليقين أن الله تعالى هو الذي بيده النفع والضر ، والحياة والممات وبيده الجنة والنار ، وأنه سبحانه ـــ مالك الملك ، وعالم الغيب والشهادة والسر والنجوى ، فلا يستحق أحد الخضوع له من دون الله ، وبالتالي لا يمكن أن يتوجه المسلم بالحمد والشكر إلا لله ـــ تبارك وتعالى ـــ قال جرير [(١)] :

عَجِبْتُ لِفَخْرِ التغْلِبِيِّ وَتَغْلِبٌ

تُؤَدِّي جِزَى النَّيْروزِ خُضْعًا رِقَابُهَا [(٢)] .

يتعجَّبُ جرير في هذا البيت من فخْر التَّغْلبيين في الوقت الذي يَجْدر بهم أنْ يكونوا ذليلين لأنَّهم يدْفعون الْجِزْيَة وهم صاغرون ذليلون ، وهذا الذُّلّ عبَّر عنه بقوله : خضعًا رقابُها ، والحقُّ – جلَّ وعلا – جَعَلَ أهْل الكِتَاب يعطُون الجزْية يدًا بيد وهم صاغرون بقصْد حمْلهم على الشّعور بأَلم الذُّلِّ كي يتخلَّصوا منه بالمبادرة إلى اعتِنَاق دين الإسلام ، وأمَّا المسلم فلا يَخْضع إلاَّ لله – تبارك وتعالى – فهو عزيز ، أعزَّه اللهُ بالإسلام ، وكَرَّمَهُ بالعقيدة السَّمْحَة ، وبالتَّوحيد الخالص له – سبحانه وتعالى – ومن أجل هذه العزَّة التي جَعَلَهَا اللهُ لعبده المؤمن كان لزامًا على جرير أن يَحْمد ربَّه على ذلك وحده لا شريك له فنجده يقول [(٣)] :

فأَحْمَدُ اللهَ حَمْدًا لاَ شَرِيْكَ لَهُ

إِذْ لاَ يُعَادِلُنَا مِنْ خَلْقِهِ بَشَرُ .

فهذا اليقينُ من جرير حين يقول جازمًا : إذ لا يعادلنا من خلْقه بشرُ ؛ إنَّما هو يقينٌ نابع من عزَّة المسلم وَأَنَفَتِهِ ، وشعوره بعميق الامتنان ، ووجوب القيام بعظيم الشّكر لله – تعالى – على نعمة الإسلام .

(١) ديوان جرير ، ص ٤٥ .

(٢) النيروز : من أعياد الفُرْس يكون أوَّل الرَّبيع .

(٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

ثَانِيًا : الْفَخْرُ بِرَسُولِ اللهِ – ﷺ – وَبِالأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ :

إن الفخر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأماكن المقدسة سلوك إسلامي يتميز به المسلم ، بل ويشرف به فإذا فخر المسلم بهذا الرسول فهو لا يفخر بمجرد رجل كبقية الرجال ، أو بقائد كسائر القادة ، أو بسيد كأولئك السادة ، بل يفخر بأنموذج لم يتكرر ولن يتكرر على مر التاريخ ، وفي فخر المسلم بالأماكن المقدسة ما يوحي إلى التزامه بما هو أعظم منها وأشرف في دين الإسلام كالتوحيد ونبذ الشرك وإقامة الشعائر . قال جرير (1) :

وَمِنَّا رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَلَمْ يَزَلْ
لَنَا بَطْنُ بَطْحَاوَيْ مِنًى وَقِبَابُهَا .

إنَّ تلك العزَّة التي عبَّر عنها جرير فيما سبق والتي تنبع من خضوع المسلم لله وحده لا شريك له تَتَأَكَّدُ هنا من جديد في كُلِّ أمر يتعلَّق بالإسلام وينْضَوِي تحت لوائه ، ومن ذلك افتخار جرير برسول اللّٰه – ﷺ – وأنَّه منهم ، وأنَّهم يُقِيمون بتلك الأماكن المقدَّسة التي زادها الإسلام شرفًا إلى شَرَفِهَا ، ومكانةً إلى مكانتها ، وأنَّهم الذين تُضْرَب عليهم القِباب مِمَّا يدلُّ على منزلتهم العالية الرفيعة .

ويستمرّ جرير وهو يهجو الأخطل فيشيد بذلك العزّ الذي يتقلّب فيه بنو تميم والذي بناه الله لهم وأعلاه ، فلولا بناء الله له ما بُنِيَ ولا ارْتفع فهو عزٌّ قائمٌ على الإسلام اتَّشَحَ بوشاحه ، وتحَلَّى بحليته واتَّزَرَ بإزاره .

يقول جرير (2) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ عِزَّ بَنِي تَمِيْمٍ
بَنَاهُ اللهُ يَوْمَ بَنَى الْجِبَالاَ .
بَنَى لَهُمُ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ
وَعَالَى اللهُ ذُرْوَتَهُ فَطَالاَ .

(1) ديوان جرير ، ص ٤٦ .

(2) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

فَعِزُّ التَّميميِّين عزٌّ قديمٌ بناه الله يوم أنْ بَنَى تلك الجبال الرَّواسي ، وهو كذلك شامخٌ كشموخها .

ويسْتَمِرُّ جرير مُمْعِنًا في هذه الْقِيْمة السُّلوكيَّة الإسلامية فيقول [1] :

إِنَّا تُفَضَّلُ فِي الْحَيَاةِ حَيَاتُنَا

وَنَسُودُ مَنْ دَخَلَ الْقُبُورَ قُبُورَا .

اللهُ فَضَّلَنَا وَأَخْزَى تَغْلِبًا

لَنْ تَسْتَطِيعَ لِمَا قَضَى تَغْيِيْرَا .

فهو فخْرٌ ينبثقُ من دين الإسلام يشعرُ به كلُّ مسلم ، لن يستطيع أحدٌ زحْزَحَة المسلم عنه لأنَّ الله هو الذي قدَّره وقَضَى به ، وهو الذي كَتَبَ الحياةَ الطَّيبة في الأولى والآخرة للمسلمين .

ومن هذا المنطلق يفخر جرير بما في الإسلام من تأصيلٍ للخِلاَفة ، وشيوعٍ لمبدأ الشُّورى ، وَحَثٍّ على التَّشاور في الأمور التي تدعو الحاجة إلى التَّشاور فيها ، والاستئناس برأي كُلِّ عاقلٍ حصيفٍ ، يقول جرير [2] :

فِينَا الْخِلاَفَةُ وَالنُّبُوَّةُ وَالْهُدَى

وَذَوُو الْمَشُورَةِ كُلّ يَوْمِ تَشَاوُرِ .

فالخلافة كما يراها جرير ، والنبوَّة والْهُدى ، وأصحاب الرَّأْي والمشورة كُلُّهَا أمورٌ تدعو المسلم إلى الفخر بدينه ، وتزيده عِزَّةً ومَنَعَةً .

* * *

[1] ديوان جرير ، ص ٢٠٤ .

[2] المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

ثَالِثًا : طَلَبُ الشَّهَادَةِ في سَبِيْلِ اللهِ ، والتَّضَرُّعُ إِلَيه بِالدُّعَاءِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً :

إن الغاية التي يتوق إليها المسلم الحق هي أن ينال الشهادة في سبيل الله لعلمه يقينًا بما للشهيد من خصال جليلة ، ومراتب عليّة ، فهو يقدم أغلى ما يملك ، يقدم روحه التي بين جنبيه مهرًا لجنة عرضها السماوات والأرض .

والتضرع إلى الله بالدعاء سرًّا وعلانية مؤشر مهم من مؤشرات قوة الإيمان بل ربما كان هو العبادة ذاتها . قال جرير [1] :

أَبَا مَالِكٍ مَالَتْ بِرَأْسِكَ نَشْوَةٌ
وَبِالْبِشْرِ قَتْلَى لَمْ تُطَهَّرْ ثِيَابُهَا [2] .
فَمِنْهُمْ مُسَجًّى في الْعَبَاءَةِ لَمْ يَمُتْ
شَهِيدًا ، وَدَاعِي دَعْوَةٍ لاَ يُشَابُهَا .

إنَّ جريرًا يخاطب الأخطل ((أبا مالك)) ويهجوه بفعْلته الشَّنِيعة حيث يتَلَذَّذ بالخمر ويسْتَعْذب نشوتها بينَما لم يفكِّرْ لحظةً في أولئك القتْلى من التَّغْلبيِّين الذين قُتِلوا في (البِشْر) فلم يأخذ بثأرهم . وفي البيت الثَّاني يُبينُ جرير أنَّ أولئك القتْلى من قوم الأخطل لم ينالوا الشَّهادة بمقْتلهم لأنَّهم ليسوا مسلمين فلا ثواب لهم .

وهنا تتأكَّد لنا تلك الْقِيْمة السُّلوكيَّة الإسلامية التي وعاها جرير جيدًا وهي طلب الشَّهادة في سبيل الله وَسَعْي المسلم الحقّ لِلظَّفَر بها وبالأجرِ العظيمِ المترتِّبِ عليها . ولم يتحدَّث جرير عن هذه الْقِيْمَةِ السُّلوكِيَّةِ إلاَّ وهو يعْلم علْمَ اليقين فَضْلها من خلال ثناء القرآن الكريم على المجاهدين في أكْثر من آية ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٧٤] ، ومن خلال ثناء النَّبيِّ – ﷺ – على المجاهدين في سبيل الله على نحو ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه –

---

[1] ديوان جرير ، ص ٤٥ .

[2] البشر : موقع وقعت فيه معركة بين بني تغلب وقيس عيلان .

عن النَّبي – ﷺ – قال : ((تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سبيله ، لا يُخْرِجُهُ من بيته إلاَّ جِهَادٌ في سبيله وَتَصْدِيْقُ كَلِمَتِهِ ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيْمَةٍ)) [1] .

وفي قول جرير : وداعي دعوةٍ لا يثابها ، إشارةٌ منه إلى ذلك السُّلوك الإسْلامي العظيم من دعاء المسلم ربَّهُ الذي يسْتَجيب دعاء من دَعَاه وتضرَّع إليه وابتهلَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦].

فجريرٌ يريد أنْ يَهْجُوَ الأخْطَلَ بِمَا حُرِمَ منه هو وقومه من التَّغْلبيِّين من أنَّ دعوتَهم لا يُسْتَجَابُ لها ، وإنَّمَا يسْتَجِيبُ الله دعاءَ عباده المؤمنين فإنَّه – سبحانه – قريبٌ مجيب [2] .

ويعَزِّزُ جرير حُجَّتَهُ فيما ذَكَرَهُ في بيت آخر حيثُ أشارَ إلى ما يحصل من صاحب السَّفِينَة التي تتجاذَبها الأمواجُ العاتِية في عُرْض البحر حيث لا يجد بُدًّا من أن يدعوَ ربَّه سرًّا وعلانية ليقينه أنَّه – سبحانه – هو الذي يملك نفْعَه ، وهو الذي يسمع مناجاته واستغاثته . يقول جرير [3] :

كَصَاحِبِ الْمَوجِ إذْ مَالَتْ سَفِيْنَتُهُ

يَدْعُو إِلَى اللهِ إِسْرَارًا وَإِعْلاَنَا .

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، ص ٨٠٣ .

[2] قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أبي أنَّ أعرابيًا قال : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه ؟ فسكت النبي – ﷺ – فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى ﴾ إذا أمرهم أن يدعوني فدعوني استجبت)) انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ٢٢٤ .

[3] ديوان جرير ، ص ٤٤٢ .

رَابِعًا : الْمُسْلِمُ يَأْتَمِرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَيَنْتَهِي عَنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ :

إنَّ المسلم يسيرُ في حياته وفْق ما شَرَعَه الله له فليس في دين الإسلام انفصَالٌ بين العبادة والحياة ، ولا تنافر بين الشَّريعة وبين ما يُمَارِسُهُ المسلمُ في عَمَلِهِ وفي تجارته وفي تعامله ، فالمسلم مسلم في كُلِّ مكان ، يضعُ دينَهُ أمامَه في كُلِّ تصرُّفٍ ، وفي كُلِّ تعامل .. ومن هنا كانت الْقِيَمُ السُّلوكِيَّة مبثوثةً في كُلِّ قصيدة من قصائد جرير فالإسلام حَرَّمَ شرْب الخمر والمسلم يشْرف بالتِزَامه بهذا التَّحْريم ، والإسلامُ حرَّم الميسر والمسلمُ يرى أنَّ من واجبه أنْ يسلك طريقًا يبعده عن هذا الميسر ، ولذلك كانت الأبيات التي هجا بها جريرٌ الأخطلَ وقومَه كثيرةً جدًا في جانب شربهم للخمر ، ولعبهم للميسر وهما سلوكان مشينان لا يسلكهما مسلم يخاف الله ، ويصبو إلى جنَّة عرضها السَّماوات والأرض .

قال جرير [(١)] :

نَزَتْ أُمُّ الأُخَيْطِلِ وَهْيَ نَشْوَى
عَلَى الْخِنْزِيْرِ تَحْسَبُهُ غَزَالاَ .
تَظَلُّ الْخَمْرُ تَخْلِجُ أَخْدَعَيْهَا
وَتَشْكُو فِي قَوَائِمِهَا امْذِلاَلاَ [(٢)] .

فهو يُعَيِّرُ أمَّ الأخطل بشربها للخمْر وكأنَّه في الوقت نفسه يريد أن يؤكِّدَ على أنَّ هذا السُّلوك المشين لا يفعله المسلم .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) تخلج : أي تحرك .

الأخدعان : عرقان في العنق .

امذلالا : النشاط الذي يشعر به السكران من نشوة الخمر . (وقيل : استرخاء يصيب الرِّجْل ، يُقال : مَذِلَتْ رِجْلُهُ وامذالَّت) انظر المصدر السّابق ، ص ١٩٦.

ويـــقـــول جـــريـــر [1] :

وَالْمُـــقْرِعِـــينَ عَلَى الْخِنْـــزِيرِ مَيْـــسِـــرَهُـــمْ
بِـــئْـــسَ الْجَـــزُورُ ، وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذَ يَـــسَرُوا .

يشـــير جرير إلى أنَّ التَّغْلبيِّين يمارسون الميسر وأنَّ اقتراعهم يكـــون علـــى الخنـــــزير المعروف بالقذارة .

وفي البيت التَّالي يهجو جريرٌ التَّغْلبيِّـــين بِأَنَّ نساءهم يتـــجردْنَ مـــن الدِّين ، وكأنَّـــه بذلك يشـــيد بما يَتَـــمَتَّعُ به النِّساء المسلـــمات من الالتزام بدين الإســـلام ، وبما فيـــهِنَّ من حِلْمٍ وجمال وَحَسَبٍ وفضـــيلة وكرامة فيـــقـــول [2] :

نِـــسْـــوَانُ تَغْـــلِبَ لاَ حِـــلْمٌ وَلاَ حَـــسَـــبٌ
وَلاَ جَـــمَـــــالٌ وَلاَ دِيْـــنٌ وَلاَ خَـــفَـــرُ [3] .

ومن الواضح في هذا البيت أنَّ جريرًا يهجو النِّساء التَّغْلبـــيات بأنَّهنَّ لا يـــمـــلكْن أي خصـــلة من الخصال التي تجـــعل الرَّجُلَ السَّوِيَّ يُقْـــبِل على الزَّواج بالمرأة منْـــهُـــنَّ.

والمعنى الذي يريد جرير الوصول إليه من خلال البيتين السَّابقَين هو إثبات أنَّه من القِـــيَمِ السُّلُوكيَّة في الإسلام البعد كل البعد عن لعب الميسر ، والتزام النِّساء المســـلمات بـــالحِلْمِ والدِّين ، والقِيَمِ الحسَنَة .

* * *

وهناك قـــيمـــتان سلوكيَّـــتان إسلاميَّـــتان يتـــحلَّى بـــهمـــا المسلـــــم ذَكَرَهُمَـــا جـــرير ذِكْـــرًا عَابِـــرًا ، وَأَوْمَأَ إليـــهـــما في ســـياق تـــهكُّـــمـــــه بالأخـــطـــــل ،

---

[1] ديوان جرير ، ص ١٨٣ .

[2] المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

[3] الـــخَفَر ، بالفتح : الحياء ومنه حديث أم سلمة لعائشة : غَضُّ الأطرافِ وخَفَرُ الأَعْرَاضِ أي الحياء من كلِّ ما يكره لهنَّ أنْ ينظرنَ إليه ، فأضافت الخَفَرَ إلى الأعراض ... انظر لسان العـــرب ، ٤ / ٢٥٤ .

وهـــما الحـــلال والحـــرام ، فالمســـلم يُحِـــلُّ ما أحـــله اللهُ ، وَيُحَـــرِّمُ مَـــا حَرَّمَـــهُ .
يـــقـــول جـــريـــر [١] :

إِنْ حَـــرَّمُـــوكَ لَـــتَحْـــرُمَـــنَّ عَلَى الْعِـــدَى

أَوْ حَـــلَّلُـــوكَ لَـــتُـــؤْكَـــلَـــنَّ حَـــلاَلاَ .

والمعنـــى في هذا البـــيت أنَّ قـــوم جريـــر يســـيـــطرون على الأخطـــل ، فمتـــى حَمَوه أصبـــح آمِنًا ، وإنْ هم أباحوه أصبح لقـــمةً سائغـــةً ، وفريـــســـةً سانـــحـــةً ، وكأنَّ جـــريرًا يريـــد أن يقـــول : إِنَّ المســـلمـــين هـم الذين يحـــمـــون – بإذن الله – أهل الكتـــاب الـــذين يدْفـــعـــون الـــجـــزْية ، وهم الذين يـــخـــذلونـــهـــم حـــال عـــدم دفـــع الـــجـــزية .

وإِنَّ الإشارة إلى الحـــلال والحرام في البـــيت ينـــبِّهان على سلـــوكَيْـــن إسلاميـــين يتـــحلَّى بـــهما المسلمـــون ؛ هما إحـــلال الحلال ، وتـــحـــريـــم الحـــرام .

*** ***

ومن السُّـــلوكيَّـــات الإســـلامية التي يســـلكـــها المســـلمون تطبـــيقًـــا لما أمر الله به إقـــامة الصَّـــلوات الخمـــس في المســـجد ، قـــال جـــريـــرٌ [٢] :

فِيـــنَـــا الْمَـــسَـــاجِـــدُ وَالإِمَـــامُ وَلاَ تَـــرَى

فِـــي دَارِ تَغْـــلِـــبَ مَسْـــجِـــدًا مَـــعْـــمُورَا .

فالمســـاجـــد في الإسلام لم تُبْنَ إلا من أجل إقـــامة الصَّلَـــوات الخمـــس جمـــاعة فيها ، فجرير يعلم فضْل إقامـــة الصَّلاة جـــماعة من خلال مـــا يعـــــرفه مـــن آيـــات كريـــمات ، منـــها قولـــه تعـــالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا

[١] ديوان جرير ، ص ٣٣١ .

[٢] المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور : ٣٦ ، ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

* * *

خَامِسًا : كَثْرَةُ الاسْتِمَاعِ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيْمِ :

القرآن الكريم كتاب منهج وإرشاد يهتدي به المسلم إلى صراط الله المستقيم ،ولهذا فالمسلم الحق وثيق الصلة به يكثر من قراءته ويتدبر معانيه ، ويعمل بكل أوامره ، ويجتنب كل نواهيه . وفي التزام المسلم بكل ذلك الهداية المسددة ، والأجر العظيم والثواب الجزيل من الله ـــ تبارك وتعالى ـــ. وأما غير المسلم فإنه محروم من استماع آيات القرآن الكريم ، ومن الإفادة منه ، ومن ذلك قول جرير (1) :

صَمَّاءُ عَنْ سُوَرِ الْكِتَابِ وَذِكْرِهِ
بَعْدَ الْهُجُوعِ ، سَمِيْعَةٌ لِلْعَافِرِ (2) .

يهجو جرير المرأة التَّغْلبيَّة بأنَّها ليست كالمرأة المسْلمة ، فهي امرأة بعيدة عن ذكر الله ، وعن سماع سور القرآن الكريم أثناء اللَّيل .

ومفهوم المخالفة الذي يريده جرير من هجاء المرأة التَّغْلبيَّة بهذا الشَّيء أنْ يُسَلِّطَ الضَّوءَ بالمقابل على سلوك المرأة المسلمة المطيعة لربها المخْلصة لدينها ، التي تقضي ليلها تالية لآيات القرآن الكريم أو مُسْتَمِعَةً لها ، مبتعدةً عن الخنا والضَّلال .

وقد عبَّر جرير تعبيرًا دقيقًا بقوله : (صَمَّاء) حيث إنَّ هذه اللفظة تبتعد بالمرأة التَّغْلبيَّة عن أقل القليل من الخير ، وعن أيِّ أمل في الصَّلاح ، وكأنَّني به واضعًا آيةً في كتاب الله أمام عينيه وهو يصدر هذا الحكم ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، كما أنَّ لفظة (صَمَّاء) في بيت جرير السَّابق تومئ إلى الذين يصمُّون آذانهم عن سماع الحقّ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ

---

(1) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

(2) العافر : الكلام الفاحش من طَرَبٍ وغيره . ((كلامٌ لا عَفَرَ فيه : لا عَويصَ فيه)) انظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، قدم له وعلّق حواشيه الشيخ أبو الوفا نَصر الهوريني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ ، باب الراء ، فصل العين ، ص : ٤٦٧ .

عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] . فالمرأة التَّغْلبيَّة صَمَّاء عن سماع سور القرآن الكريم ، والمشركون صُمٌّ عن سماع الحق .

وفي اختيار جرير لوقت الهجوع دِلالة كبيرة على تَأَثُّره بآيات الذِّكر الحكيم ، فوقت الهجوع من أفضل الأوقات لِلْخَلْوة مع الله – سبحانه وتعالى – ولقراءة القرآن الكريم ، وللدُّعاء ، وللعبادة كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] وقال تعالى : ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٨].

قال الشاعر [1] :

قُلْتُ لِلَّيْلِ : هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ عَامِرٌ بِالْحَدِيْثِ وَالأَسْرَارِ ؟.

قَالَ : لَمْ أَلْقَ فِي حَيَاتِي حَدِيْثًا كَسُجُودِ الأَبْرَارِ فِي الأَسْحَارِ .

إنَّ جريرًا يعلم أهميَّةَ أوقاتِ السَّحرِ ، وثُلُثِ اللَّيل الأخير ، ويعلم فضْل قيام اللَّيل من خلال سيرة المصطفى – ﷺ – وسيرة أصحابه الأخيار – رضي الله عنهم جميعًا – فالرَّسول – ﷺ – أفضل من قام اللَّيل ، وأجلّ من دعا واستغفر وخَشَعَ لربِّه في أوقات السَّحَر ، وفي هجعة اللَّيل ، والصَّحابة – رضوان الله عليهم – كان لهم شرف اقتفاء أثر خير البريَّة ، ومن هنا كان جريرٌ محقًّا في الإشارة إلى هذا السُّلوك الإسلامي ، وفي هجاء التَّغْلبيين بما يضادّه من سُلوك حين يقضون ليلَهم في الفساد والخنا واللَّهو والفحش .

[1] انظر على شبكة (الإنترنت) موقع :
http://www.islameiat.com/ramadan/article.php?sid=31
من مقال في موقع : رمضان مشاعر وشعائر .

سَادِسًا : الْكَرَمُ وَإِقْرَاءُ الضَّيْفِ وَحِمَايَةُ النَّازِلِيْنَ وَالدِّفَاعُ عَنْهُم :

الخصال الإسلامية الحميدة أكثر من أن يحصيَها حاص ، أو أن يعدها عاد فهي المكارم الأخلاقية النبيلة وهي السمات الرفيعة ، وهي الطباع السوية وما عداها مما يناقضها من أخلاق سيئة ، وصفات ذميمة فالإسلام منها براء .

وقد ذكر جرير عددًا من الصفات الإسلامية الحميدة التي رسخ مفهومها الإسلام وأصل جذورها في معرض نقضه شعر الأخطل فقال في إحدى نقائضه [(١)] :

وَإِنَّا لَنَقْرِي حِيْنَ يُحْمَدُ بِالْقِرَى
وَلَمْ يَبْقَ نِقْيٌ فِي سُلاَمَى وَلاَ صُلْبِ [(٢)] .
إِذَا الأُفُقُ الْغَرْبِيُّ أَمْسَى كَأَنَّهُ
سَلاَ فَرَسٍ شَقْرَاءَ مُكْتَئِبُ الْعَصْبِ [(٣)] .
وَنَعْرِفُ حَقَّ النَّازِلِيْنَ وَلَمْ تَزَلْ
فَوَارِسُنَا يَحْمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ [(٤)] .

يفتخر جريرٌ على الأخطل وقومه بحسن ضيافتهم عندما يحل الجوع ويظهر أثره على الأصْلاب فتضعف ويبدو الهزال على الأصابع ، وتشتد السَّنة على الخلق .

بل ويزداد كرمهم للضَّيف عند قسوة العيش ، واشتداد الجوع الذي عبَّر عنه وكنَّى بصورةِ وهيأةِ الأفق الأحمر الذي يبدو صافيًا خاليًا من السُّحب الممطرة.

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الْقِرَى : طعام الضيف .

نِقْيٌ : النِّقْي المخّ .

السُّلامى : كل عظم مجوَّف كعظام الأصابع .

(٣) سَلاَ : الكيس الذي يكون فيه الفصيل في بطن أمِّه .

المكتئب : الحزين العابس القبيح .

العصْب : نوع من الثياب والبرود وقد استعاره هنا لوجه الأفق .

(٤) السَّرْب : (كل ما رُعي من أموال القوم الإبل والغنم) انظر المصدر السّابق ، ص ١١١ .

حينــئذٍ يتــخلَّى النَّــاس عن الضِّــيافة ، ويزداد البخيل بــخلاً ، ويقلّ الكرمــاء . أمَّا جرير وقــومه فإنَّهم يســتمرُّون في كرمهــم وضيــافتهم وجـــودهم ، وهنـــا يــبرز السُّــلوك الإسلامي الفريد ، وتظــهر ســماحة الإسلام ، وترتـــســم صــورة الجود الإسلامي والعطــاء المحــمَّــدِيّ [1] ، والكرم الإبــراهــيمــي [2] واضحــــةً ، زاهية الألوان أمام عينَي جرير لِيُرَصِّع البيتين السَّابِقين في التأْكيد على السُّــلوك الإســلامي الذي يهــدي إلى الكرم والجــود وإقــراء الضَّــيــف .

وقبل أن أشرحَ البيتَ الثَّــالث أَتَوَقَّــف مع بيت آخــر هجــا به جرير التَّغْلبيِّـــين ووصفَهم فيه بأحطِّ أوصــاف البخــلاء حيــث يقول [3] :

الآكِــلُــونَ خَبِــيــثَ الــزَّادِ وَحْــدَهُــمُ
وَالــنَّــازِلُــونَ إِذَا وَارَاهُــمُ الْــخَــمَــرُ [4] .

يرســم جريــرٌ لوحةً قاتــمة الألــوان للأخطــل وقــومه ، فهم قوم بــخلاء بلــغ بــهم البخل أنْ يستــتروا عن الضــيوف في الأماكن التــي تكثر فيها الأشجار لِتَــحُول

---

[1] كان رســول الله – ﷺ – يعــطــي عطــاء من لا يخــشــى الفــقــر ، وكان سيد الكرماء – عليه الصَّلاة والسَّلام – ، قال ابن عباس : ((كان رســول الله – ﷺ – أجود النَّــاس بالخير ، وكان أجودَ ما يكــون في شهر رمضــان ، إنَّ جبــريل – عليه السَّلام – كان يلــقــاه في كل سنة في رمضان حتَّى ينســلخ ، فيــعــرض عليه رســول الله – ﷺ – القــرآن ، فــإذا لقيه جبــريــل كان رســول الله – ﷺ – أجــود بالخــيــر مــن الريح المرســلــة)) انظر صحيــح مسلم ، كتاب الفــضــائل ، ص ٩٧٢ .

[2] أثنــى الله على إبراهيم – عليه السَّلام – وامتــدحه بالكرم في القرآن الكريم ، كما قال تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هــود : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

[3] ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

[4] الْخَــمَــرُ : الــمــكــان الذي تكــثــر فيه الأشــجــار بحــيــث لا يُرَى النــازل فيــــه من كثــرة الأشــجــار .

بينهم وبين أن يراهم الضَّيف ، وليتهم حين يتخفَّون بين تلك الأشجار بعيدًا عن الضُّيوف يأكلون الزَّادَ الطَّيبَ النَّظيفَ ولكنَّهم لا يفعلون ذلك بل يأكلون الزَّاد النَّجس الخبيث .

إنَّها صورة مغايرة لتلك الصُّورة الجميلة التي يظهر بها قوم جريرٍ من المسلمين الذين يتوقُون لرؤية الضَّيف وإكرامه حتَّى في أحْلك الظروف ، وعند اشتداد السِّنين وشح الزَّاد وقلة الأمطار .

وبعد أن فرغ جرير من الإشادة بكرم قومه ، ومن تعميق تلك السُّلوكيَّات النَّبيلة عند المسلمين فإنَّه ينْتَقِلُ سريعًا مُلْتَفِتًا إلى سلوك آخر يمتاز به المسلمون حيث قال :

وَنَعْرِفُ حَقَّ النَّازِلِيْنَ وَلَمْ تَزَلْ

فَوَارِسُنَا يَحْمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ .

حيث يذكر حماية قومه لأولئك الضعفاء المساكين الذين لا يجدون من يحتويهم ولا من يقف معهم أو يحالفهم ضد من يعتدي عليهم ، وهذه الحماية تأتي بعد إكرامهم ومعرفة حقّهم وضيافتهم .

ولعل هذا البيت يقودنا إلى قيمة سُلوكيَّة إسلاميَّة تَرَبَّى عليها المسلمون صغارًا وكبارًا ، ذكورًا وإناثًا ، وتعلموها من الرسول – ﷺ – حين كان يركب فَرَسَهُ مسْرعًا إذا سمع صوتًا ، أو عَلِمَ خطرًا (1) ، وعندما كان يقتربُ من الأعداء في المعارك ،

---

(1) اقْتَبَسْتُ ذلك من حديث أنسٍ – رضي الله عنه – قال : ((كان النبي – ﷺ – أحسن النَّاس ، وأشجع النَّاس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلةً ، فخرجوا نحو الصَّوت ، فاستقبلهم النبي – ﷺ – ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ وفي عنقه السَّيف ، وهو يقول : لم تُراعوا،لم تُراعوا.ثُمَّ قال:وجدناه بحرًا أو قال : إنَّه لبحرٌ))انظر اللؤلؤ والمرجان ←

والصَّحابة – رضوان الله عليهم – خلفه (١) ناصرًا لدين الإسلام ، وذابًّا عن حياضه من جهة ، ومُعَلِّمًا لأصحابه وللأُمَّة قيمةً سُلوكيَّةً إسلاميَّة من جهة أخرى ألاَ وهي الشَّجَاعة التي أَصَّلَهَا – عليه الصَّلاة والسَّلام – في نفوس أصحابه والتي أصبح معها الجميع يتنافسون على حضور ساحات الوغى وحتى الصبية الصِّغار (٢) بل وحتَّى النِّساء (٣) الكلُّ يتمنَّى أن يموت شهيدًا في سبيل الله . من كان يردُّه رسول الله – ﷺ – بسبب عدم قدرته – عليه الصَّلاة والسَّلام – على حمْله إلى ميدان القتال كان يعودُ وهو يبكي (٤) كما وصفهم بذلك ربنا فقال :

فيما اتَّفَقَ عليه الشَّيخان ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، ١٤٠٧ هـ ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، كتاب الفضائل ، باب شجاعة النَّبيِّ – ﷺ – وتَقَدّمه للحرب . ولا يخفى – كذلك – موقف النَّبيِّ – ﷺ – يوم حُنين ، حتى إن العباس – رضي الله عنه – كان يمنع بغلة النَّبيِّ – ﷺ – من الاندفاع تجاه المشركين .

(١) استفدت ذلك من قول عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – : ((كُنَّا إذا حَمِي البَأسُ ، واحمرَّتِ الْحِدَقُ اتَّقينا برسول الله – ﷺ – ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوِّ منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي – ﷺ – وهو أقربنا إلى العدوِّ ، وكانَ من أشدّ النَّاس بأسًا)) رواه أحمد ، انظر السيرة النبويَّة في ضوء القرآن والسنَّة ، دراسة محررة جَمَعَت بين أصالة القديم ، وجِدَّة الحديث ، د. محمد بن محمد أبو شهبة ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

(٢) جاء في كتاب السيرة النبويَّة في ضوء القرآن والسنة ، تحت عنوان (استعراض الجيش وردّ بعض الصبيان) : ((وفي الطريق استعرض رسول الله الجيش ، وكان خرج مع الرجال بعض الغلمان مِمَّن لا طاقة لهم على الجهاد رغبةً في الجهاد ، وحبًّا للاستشهاد في سبيل الله ، فردّهم النبي لصغرهم ، منهم : عبد الله بن عمر ، والبراء بن عازب ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وعُرابة بن أوس ، وأجازهم يوم الخندق ، وكان الرسول ردَّ سَمُرَة بن جندب ، ورافع بن خُديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة فقيل له : يا رسول الله إنَّ رافعًا رجلٌ رامٍ فأجازه ، فقيل له : فَإِنَّ سَمُرَة يصرع رافعًا ، فأجازه)) انظر المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) مثل أم عُمارة (نُسَيْبة) في غزوة أحد .

(٤) ((قال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثُمَّ إنَّ رجالاً من المسلمين أتَوا رسول الله – ﷺ – وهم البكّاءون،وهم سبعة نفرٍ من الأنصار وغيرهم...فاستحملوا رسول الله – ﷺ – ←

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩٢]

، كل تلك النماذج المشْرقة وغيرها جَعَلَتْ جريرًا يؤكِّد على الشَّجاعة كَقِيْمَةٍ سُلوكيَّة إسلاميَّة وهو يهجو الأخطل وقومه ، ومن ذلك قوله [(١)] :

وَإِذَا الدُّعَاءُ عَلاَ بِقَيْسٍ أَلْجَمُوا
شُعْثًا عَوَابِسَ كَالْقُنِيِّ ذُكُورَا [(٢)] .

حيث يفتخر بِأَنَّ داعي القتال إذا دعا القيسيِّين فإنَّهم يُجَهِّزُون الخيول لِلْقِتَال فهم ليسوا جبناء ، بل يسعون إلى الموت سعيًا ، ويطلبونه طلبًا .

* * *

وكانوا أهل حاجة فقال : ((لا أجدُ ما أحملكم عليه ...)) انظر تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، وفيهم قال – ﷺ – : ((إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُمْ مسيرًا ، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا ، إِلاَّ كَانُوا معكم ، حَبَسَهُم المرضُ)) انظر صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ص ٨١٤ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

(٢) شعثًا : الأشعث : ملبَّد الشَّعْر مغَبَّره .

ذُكورا : الذكور قطع الفولاذ تزاد في رأس الفأس أو السَّيف . (انظر شرح ديوان جرير ، ص ٣١٨) .

سَابِعًا : التَّـأَثُّـرُ بِأَلْفَاظِ الْقُـرْآنِ الْكَـرِيْمِ ، وَالْحَـدِيثِ الشَّـرِيْـفِ ، وَبِمَا فِيْـهِـمَا مِـنْ أَحْـدَاثٍ :

من السلوكيات التي تظهر على المسلم تأثره الملحوظ بما في كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من معانٍ وألفاظ ،وذلك لصلته الوثيقة بهذين المصدرين وفوق ذلك تأثره بما فيهما من أحداث ومن ذلك ما رأيته واضحًا في الكثير من أبيات جرير محل الدراسة حيث أتى بألفاظ قرآنية ، وبألفاظ من أحاديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كانت واضحة أشد الوضوح لا يملك القارئ أمامها إلا أن يعزوها إلى ألفاظ في القرآن أو الحديث ، ومن ذلك قول جرير [1] :

مُـوتُـوا مِنَ الْغَـيْظِ غَـمًّا فِي جَـزِيرَتِـكُمْ
لَنْ تَـقْـطَـعُوا بَـطْـنَ وَادٍ دُونَـهُ مُضَـرُ .

أي إنَّ التَّغْلبيِّين لن يستطيعوا الخروج من جزيرهم لأَنَّ الْمُضَرِيّين أمامهم سوف يعترضونهم ويمنعونهم من ذلك . وفي قول جرير : مُوتوا من الْغَيْظ ما يُذَكِّرُنَا بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١١٩]. فالمسلمُ الذي يعيش مع القرآن الكريم تلاوةً وسماعًا لا تغيب عنه آيات الذِّكْر الحكيم مع كُلِّ حديث يتحدَّث به ، أو في كل قصيدةٍ ينظمها فالآيات تُسْعِفُهُ في كلِّ موقف ، وألفاظُ القرآن الكريم تَجْري على لِسَانِهِ في كُلِّ مناسبةٍ ، وهذا هو سلوك المسلم الحقّ سواءٌ أكان خطيبًا أم شاعرًا أو واعظًا أو معلِّمًا أو كاتِبًا ...

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٣ .

وقـــال جـــريـــر [1] :

وَأَجِــرَّ مُــطَّــرِدُ الْــكُــعُــوبِ كَــأَنَّـــــهُ

مَــسَدٌ يُــنَــازِعُ مِــنْ لَصَــافَ جَــرُورَا [2] .

يصفُ جرير ما يفعلونَه في أعـــدائهم في المعارك من طعـــنهم بالرِّماح الَّتـــي تبـــقى غارزةً في أجسادهم وكأنَّـــها تلك الحبال الموجـــودة في آبار بنـــي نـــهـــشل .

ونلاحظ التَّـــأَثُّر من قِبَل جرير بلفْـــظةٍ من ألفـــاظ القـــرآن الكريم وهـــي (مَسَد) الواردة في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ٥] .

وقـــال جـــريـــر [3] :

فَأَمَّا النَّــصَارَى الْعَــابِدُونَ صَلِــيْــبَــهُــمْ

فَــخَابُوا ، وَأَمَّا الْمُــسْلِــمُونَ فَــأَفْــلَــحُوا .

فقول جرير : وأمَّا المسلـــمون فَأَفْـــلَحُوا ، يُذَكِّرُنَـــا بقـــوله تعـــالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ١] ، وقبل ذلك فَإِنَّ قول جـــريـــر : فَأَمَّـــا النَّصَـــــارى الْعَابِـــدون صَلِيْـــبَـــهُم فَـــخَـــابُوا ، فَإِنَّه قـــولٌ يُـــذَكِّرُنَا بـــقـــولـــه تـــعـــالـــى : ﴿ ... وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٢٠٥ ، وهو بيـــتٌ ضمْن نقيـــضة نَقَـــضَ بها جرير قصيـــــدةً للأخطـــل ، ولكنَّـــهُ لم يَرِدْ في القصـــيدة الموجـــودة في نقائض جريـــر والأخطـــل ، ولم أجدْه إلاَّ ضِـــمْنَ القصـــيـــدة الموجـــودة في ديـــوان جريـــر .

[2] أُجِرَّ : طعن وترك الرمح مكان الطعنة .

المسد : صـــفـــة للحـــبـــل .

لَصَافَ : ماءٌ لبـــنـــي نـــهشل .

الجرور : البئر البعـــيـــدة القعر .

[3] المصدر السابق ، ص ٧٩ .

وقال جرير [1] :

فَقَدْ قَــذَفَتْ مِــنْ حَرْبِ قَــيْــسٍ نِسَــاؤُكُــم

بِــأَوْلَادِهَــا ، مِنْــهَا تَــمَــامٌ وَمُــعْــجَــلُ .

يهجــو جريرٌ التَّغْلبــيــين ويُذَكِّرُهُم بــهــول تلــك الحــرب الــتي خاضهــا القيســيُّون ضدهم والتي لِشِــدَّتِهَا وَضَرَاوتِهَا وَضَعَتِ النِّسَاءُ التَّغْلِبــيَّاتُ ما في بطونــهنَّ من أولاد مكْتــملــين وغيــر مكْتــملــين ، وهــذا المشــهد الذي ذَكَــره جريـــر يذهبُ بِنَا إلى قوله تعالى : ﴿ ... وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ... ﴾ [الحج : ٢]. مع الفرق الكبــير فيما بين الْمَــشْهَــدَيْن فلا مقــارنة أصــلاً بــين مــا حــصــل لِنِــسَــاء تَغْلب حين أَغَــارَ القيســيُّون عَلَيْــهِنَّ وبــين ما يحدث لِلْحَــوَامِلِ عند زَلْزَلَةِ السَّاعَة ، فَأَمْرُ السَّــاعَةِ أمرٌ مَهُــولٌ لا يعــادله شــيء .

وقــال جــريــر [2] :

لَقَدْ سُــلَّ أَسْــيَــافُ الْهُــذَيْلِ عَلَــيْــكُــمُ

رِقَاقَ النَّــوَاحِي لَيْــسَ فِــيْهِــنَّ مُصْــفَحُ [3] .

إِنَّهُ يهجــو الأخطلَ وقومَه بما أَحْــدَثَهُ الــهــذليُّون فيهم حيــثُ سَــلُّوا علــيهم السُّــيــوف الحادَّة القاطعــة فَمَــزَّقُوا أوصَالــهــم ، وَقَطَّــعُوا أعــضــاءَهم ، وَأَعْــمَــلُوا فيهم القتْل الشَّــنــيع .

وفي قول جرير : ليس فيــهنَّ مُــصْفَــحُ ، ما يُــذَكِّرُنَا بقــول سَعْــدِ بن عُبَــادَة : لو رأيتُ رَجُــلاً مع امْرأتي لَضَرَبْــتُهُ بِالسَّيْفِ غــيرَ مُصــفِــحٍ عَــنْــهُ ، فَبَــلَغَ ذلــك

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٣٤ ، في قصيدة يهجو بها الأخطل وقومه .

[2] المصدر السابق ، ص ٧٩ ، في قصيدة يهجو بها الأخطل وقومه .

[3] المصْفح : الذي يضــرب بعرض السيف ، وليس بِحَــدِّه .

رقاق النواحي : حــادّة شــديدة القــطْــع .

رســـول الله – ﷺ – فقال : ((أَتَعْجَـــبُونَ مِنْ غَـــيْرَةِ سَعْدٍ ؟ فَوَاللهِ ، لأَنَا أَغْـــيَرُ مِنْـــهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي ، ...)) [١] .

وقـــال جـــريـــر [٢] :

جَـــاءَتْ سَـــوَابِقُـــنَـــا غُـــرًّا مُـــحَـــجَّـــلَـــةً

إِذْ لَـــيْـــسَ بِالنَّاسِ تَحْـــجِـــيـــلٌ وَلاَ غُـــرَرُ [٣] .

فهـــو يفـــتـــخرُ بتلك الخيول الشَّـــهـــيرة التي تـــمـــتازُ بســـرعتها وبـــجـــمالها فهي خيـــولٌ غُـــرٌّ مُحَـــجَّلَةٌ يـــخـــوضون بها المعـــارك .

وفي قوله : غُـــرًّا مُحَـــجَّلَةً ، تَـــأَثُّرٌ بقـــول النَّبيِّ – ﷺ – : ((أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِسْـــبَاغِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْـــجِـــيْلَهُ)) [٤] ، وبقوله – ﷺ – : ((إِنَّ أُمَّتِي يَأْتُـــونَ يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ غُـــرًّا مُحَـــجَّلِيْنَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُـــوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيْلَ غُـــرَّتَهُ فَلْيَـــفْـــعَلْ)) [٥] .

فـــهـــذا التَّأَثُّرُ الملحُـــوظُ من جرير بألفـــاظ القرآن الكريم ، وبألفـــــاظ الحـــديث الشَّريف في نقـــائضه يَـــدُلُّ دِلالَةً واضـــحةً على سُلُـــوكٍ إســـلاميٍّ دَرَجَ عليـــه الرَّجُلُ في شِعْرِهِ كمـــا هو الحال عند الكثـــير من شعـــراء الإســـلام مِـــمَّا جَعَـــلَـــني أُصَنِّفُ ذلك كقـــيـــمةٍ سُلُـــوكِيَّـــةٍ إِسْلاميَّـــة عنـــد جـــريـــر ، وهي ليـــســـت حكْـــــرًا عليه فَحَسْب بل إنَّها ظاهرةٌ سُلُوكِيَّةٌ – كما سبق وَذَكَرْتُ – عند المسلمين بجميع فئاتهم .

* * *

---

[١] انظر صحيح مسلم ، كتاب اللعان ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

[٢] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

[٣] سوابقنا : السَّـــوابـــق من الخيل الشـــريفة .

غُرًّا : الغُـــرَّة بيـــاضٌ في جبـــهة الفـــرس .

مُحَجَّـــلة : التَّحْجيل بيـــاضٌ في القـــوائم .

[٤] صحيح مسلم ، كتاب الطَّهارة ، ص ١٢٢ .

[٥] المصدر السَّابق ، كتاب الطَّهارة ، نفس الصفحة .

ثَامِنًا : الْغَيْرَةُ عَلَى الْمَحَارِمِ :

سلوك إسلامي حميد تربى المسلمون عليه ، بل وأصبح جزءًا من حياتهم فلا يهنأ مسلم إذا انتهك عرضه ولا تقر له عين إذا مس شرفه واعتدي على أمه أو ابنته أو أخته أو زوجته ، أو على أي مسلمة من المسلمات ، بل يقدم روحه ودمه ويجود بحياته في سبيل حفظ الأعراض والمحرمات . قال جرير [1] :

كَذَبَ الأُخَيطِلُ مَا لِنِسْوَةِ تَغْلِبٍ

حَامِي الذِّمَارِ ، وَمَا يَغَارُ حَلِيْلُ [2] .

إنَّه يهجو الأخطل بالْكَذب فنساء تَغْلِب لا حامي لهنَّ ، ولا أحد يصون أعراضهُنَّ ، ولا أزواجَ يغارون عليهنَّ . وهو بذلك يُقَرِّرُ سُلُوكًا إسْلاميًّا عَظِيمًا وهو حماية الأعراض ، والْغَيْرَة على المحارم ، فالمرأة في الإسلام دُرَّةٌ مَصُونَةٌ لها قدْرها واحترامها وإجلالها فهي طاهرة عفيفة تصون نَفْسَهَا وحياءَها عن كُلِّ ما يَخْدش ، وعن كُلِّ ما يَعِيْب ، وهي ليست وحْدَها في القيام بذلك بل يساعدها ويساندها الأب إذا كانت بنتًا ، والزَّوجُ إذا كانت زوجةً كما سبق وَذَكَرْتُ قولَ سَعْد بن عبادة : ((لو رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ)) وما كان من رَدٍّ من النَّبيِّ – ﷺ – لَمَّا بَلَغَهُ ذلك فقال : ((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ فَوَاللهِ ، لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي ، ...)) [3] ، وَكَأَنَّ جريرًا حين أطلق البيت السَّابق في وجه الأخطل يتساءل : هل في شريعة التَّغْلبيِّين ما يَصُون الأعراض ؟ وهل عندهم مَا يحمي المرأة ؟ وهل في رجالهم مَنْ يغار على زوجته ؟!! .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٦ .

[2] الذِّمار : كل ما يجب حمايته وصونه كالأَهْل والعِرْض .

الحليل : الزَّوج .

[3] صحيح مسلم ، كتاب اللِّعان ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

تَاسِعًا : إِقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَاسْتِنْكَارُ الضَّيْمِ :

ما كان المسلم ظالما ولا ينبغي له ذلك ، وما كان أبدا ليعيش ذليلا قابعا تحت وطأة ضيم أو منقصة . ومن أجل ذلك عاب جرير على التغلبيين ظلهم واستنكر عليهم دعتهم ومسكنتهم في الوقت الذي يضامون فيه أشد الضيم فقال [1] :

وَتَغْلِبُ لاَ وُلاَةُ قَضَاءِ عَدْلٍ

وَلاَ مُسْتَنْكِرُونَ لأَنْ يُضَامُوا .

فهو يهجو تَغْلب وَيُعَيِّرُهُم بِأَنَّه ليس منهم أهل قَضَاءٍ وَعَدْلٍ ، وهم ذَليلون ومع ذلك لا تجد فيهم مَنْ يَسْتَنْكِر أو يَقِفُ في وجه مَنْ يظلمهم ، ومن خلال تلك الصُّورة القاتمة التي يُصَوَّر بها التَّغْلبيُّون ، أراد جرير أنْ يكشف السِّتَار عن الصُّورة المشْرقة والسُّلوك العظيم في الإسلام في قضية إقامة العدْل فهو يعلم حَثَّ الإسلام على العدل ، ونبْذه للظُّلم ، وأخْذِه على أيدي الظالمين من خلال ما جاء في القرآن الكريم على نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ... ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقوله تعالى : ﴿ ... فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ... وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ... ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة : ١٠٦] إلى غير ذلك من الآيات الكريمات التي توجب إقامة العدل في كل منحًى من مناحي الحياة ، وهذا ما وعاه جرير وَفَطِنَ له قَبْلَ أنْ يُؤَكِّدَ على هذه القيمة السُّلوكيَّة الإسلاميَّة في البيت السَّابق من خلال ذكر ضدها فَبِضِدِّه يَتَمَيَّزُ الضِّدُّ .

والمسلم – كذلك – يسْتنكر الضَّيْم فهو عزيز دائمًا وأَبِيُّ النَّفْس يستمدُّ كُلَّ ذلك من عِزَّة الإسلام وعدْله ، وتعاليمه السمْحة وتوجيهاته الحكيمة التي تزيد المسلم إِبَاءً وَشَمَمًا فلا يُطَأْطِئُ رأسه إلا لله .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٧٨ .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ :

الصِّفات السُّـــلُوكِـيَّـــةُ عنْد نصَارى تَغْلب عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرٍ شِعْرَ الأَخْطَلِ .

تمهيد :

حينما ننظر إلى الصفات السلوكية عند نصارى تغلب في ضوء نقض جرير شعر الأخطل ، نستطيع أن نكرر قولنا السابق بين يدي القيم الإيمانية في النصرانية على ضوء نقض جرير شعر الأخطل . فلا نزال بصدد النظارتين اللتين يرتديهما الشاعر جرير . الأولى هي نظارة الإسلام ، وذلك حينما يتحدث مثلا عن فرض الإسلام الجزية ، وتبيين حكمة الإسلام من كيفية إعطائها، والنظارة الأخرى هي التي ضخم بها جرير بعض السلوكيات التي ارتبط بها في ظن جرير بعض السلبيات مثل عدم استنكار الضيم والخوف والجبن وما إلى ذلك . ولا ننسى أننا أمام شاعر من أكبر شعراء النقائض ، وبصدد فن النقائض الذي يختلط فيه الحق بالباطل ، والحابل بالنابل .

وينبغي أن أذكر من باب الإنصاف أن هذه الصِّفات التي ذكرها جرير إنّما تعبِّر عن رأيه ، وقد قالها في عنفوان غضبه وحرصه على أن يؤلم خصمه الأخطل أشد الإيلام ، ولا يمكننا أن نتخذَ منها قاعدةً ، أو أن نصدر من خلالها حكماً على أولئك القوم من نصارى تغلب بأنهم جبناء ، أو حمقى أو غير ذلك من الصِّفات التي وصفهم بها.

فالشجاعة موجودة في كل زمان ومكان ، وفي كلِّ قوم ومجتمع ، وكذلك الحماقة موجودة في الأفراد والجماعات بنسب مختلفة .

وأنا أجزم أنه لا ينبغي تصيّد العثرات لمن عثر ، أو تتبع الزَّلات لمن زلّ ، أو السعي المفرط وراء السَّقطات فالكمال لا يمكن أن يكون إلا لله وحده ، وأمّا البشر جميعاً — لا أستثني أهل دينٍ، أو لونٍ ، أو جنسٍ _ فإنَّ النَّقص مركبهم ، والزَّللَ مطيتهم .

الصِّفة الأُولَى : الذِّلَّةُ وَدَفْعُ الجِزْيَةِ :

الجزية : " وهي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عـام ، وهـي فعلة من جزى يجزي إذا قضى " [1].

فلا مجال أمام الذمي ليتخلص من هذا الذل إلا بدخوله في الإسلام ، وما عدا ذلك فـلا عزة له . ومن هنا كان الإسلام حكيما ورحيما في أن ينتشل الذليلين ويجعل منهم أعـزاء شرفاء لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، ولا تمييز بين أحد عند ذلك إلا بالتقوى .

وهنا كان جرير مقتنصا لهذه الصفة عند أولئك القوم مشنعا لهم ما هم فيـه مـن ذل فقال [2] :

لَـنَـا كُـلَّ عَـامٍ جِـزْيَـةٌ تَـتَّـقِي بِهَـا
عَلَـيْـكَ ، وَمَا تَلْـقَى مِنَ الـذُّلِّ أَبْـرَحُ.

إِنَّهُ يهجـو الأخطل وقومه من نصارى تغلب بـدفـع الْجِزْيَة فـي كـلّ عـام ، ويقـول : إنَّ ما تلـقـاه – أيُّها الأخطل – عند دفعك لـهـا من الـذُّلِّ والصَّغـار أقـوى وأعنـف وآلم .

---

[1] المغني والشرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبـل ، للإمـامين موفـق الـدين وشـمـس الدين ابني قُدَامة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ ، ج ١٠ ، ص ٥٥٧ .

[2] ديوان جرير ، ص ٧٩ .

ويقول جريرٌ [1] :

وَيَسْعَى التَّغْلِبِيُّ إِذَا اجْتَبَيْنَا

بِجِزْيَتِهِ وَيَنْتَظِرُ الْهِلاَلاَ .

يستمرُّ جريرٌ في هجاء نصارى تغلب بدفعهم الجزية للمسلمين عندما يحين وقت خراجها فقد أصبح التَّغْلِبِيُّ ينتظر ويترقَّب الهلال بعد الهلال حتَّى يقوم بدفع الجزية .

وهذه الصِّفة السُّلوكيَّة أدركها جريرٌ من خلال القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]، وأدركها - كذلك - من خلال معاصرته لبعض النَّصارى في الدولة الإسلاميَّة ، وما يراه من دفعهم للجزية في كل عام ، الأمر الذي معه أصبحت الفرصة سانحةً في أن يوظِّفَ هذه الْقِيمَةَ ضد خصمه ، وأنْ تُصبح رافدًا ضمن مجموعة الرَّوافد التي اتَّكَأ عليها في مشواره الطَّويل مع الأخطل .

ولا بدّ أن أُعيد هنا حِكْمة الإسلام في أن يدفع أهل الذمَّة الجزية عن يدٍ وهم صاغرون وذلك من أجل أن يتخلّص الذِّميُّ من هذا الصَّغَار وتلك الذِّلَّة بدخوله في دين الإسلام .

ويقولُ جريرٌ [2] :

أَدِّ الْجِزَى وَدَعِ الْفَخَارَ بِتَغْلِبٍ

وَاخْسَأْ بِمَنْزِلَةِ الذَّلِيْلِ الصَّاغِرِ .

إنَّهُ يستمرّ في تعييره الأخطلَ قائلاً : ما ينبغي لك أن تفتخر بقبيلتك فليس لها من أمجادٍ تستحق الفخر ، ولذلك فليس لك إلاَّ أن تبقى ذليلاً صاغرًا خاسئًا تؤدِّي الجزْية المفروضة عليك .

---

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٥ .

(2) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

ونلاحظ استخدام جرير للفظة (الصَّاغر) التي تدلُّ على تأثُّره بالآية السَّابقة وبالتَّحديد بقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة : ٢٩] ، و (صاغرون) كما قال ابن كثير – رحمه الله – : ((أي ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمَّة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاَّء صغرة أشقياء ...)) [١] .

وإمعانًا في هذه المذلَّة التي يراها جريرٌ في نصارى تغلب فإنَّهُ ركَّزَ جهدَه عليها كثيرًا حيث لحظَ مفعولها القوي في دحْرِ خصمه ، وردّه بغيظه لم يَنَلْ خيرًا، ولذلك قال في بيتٍ آخر [٢] :

تُكَفِّرُ بِالْيَدَيْنِ إذَا الْتَقَيْنَا

وَأَدِّ إِلى خَلِيفَتِنَا جِزَاكَا .

فمن إمعان جرير في تحقير الأخطل وإصراره على ذلك قوله : إنَّ عليك – أيُّها الأخطل – أنْ تكفِّرَ عن كلِّ زلَّةٍ اقترفتها بحقِّي بتقبيل يدي ، وقبل ذلك أن تؤدي الْجِزْية إلى الخليفة . فبسبب هذه الْجِزْية التي يدفعها التَّغْلبيُّون حَفِظ المسلمون لهم مكانًا وقدْرًا وهو ما جَعَل جريرٌ يقول [٣] :

لَوْلاَ الْجِزَا قُسِمَ السَّوَادُ وَتَغْلِبٌ

فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَكُنْتُمُ أَنْفالاً [٤] .

---

[١] تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٦١ .

[٢] ديوان جرير ، ص ٢٩٩ .

[٣] نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٧ .

[٤] السَّوَادُ : هو سواد العراق ، وهي الأماكن الخصبة التي يراها القادم من الجزيرة العربيّة خضراء بسبب كثافة الأشجار والنباتات الأمر الذي يجعل تلك الخضرة سوادًا في نظر الرائي لها من بعيد بسبب الكثافة والكثرة .
الأنفال : مفردها نَفَلٌ وهي غنائم الحرب .

فالمعنـــى الذي يرمي إليه جريـــرٌ أنَّـــهُ لولا أنَّ التَّـــغْـــلبـــيِّـــين يـــدفعون الْجِزْيـــة للمســـلـــمين لكانوا في المعامـــلـــة كغـــنائم الْحَـــرب .

ويواصل جريرٌ فَخْرَه على نصارى تغلب بأنَّ الْمُضَرِيِّـــين هُم الذين يحكـــمـــون عليهم بدفع الجزْية ، ولكـــنَّهم – أي المضريِّـــين – في الوقـــت نفـــــسه هُـــــدى ونـــــورٌ لإخوانـــهم المسلـــمين ، وفي ذلك يقول [1] :

الضَّـــارِبُـــونَ عَلَـــى النَّـــصَـــارَى جِـــزْيَـــةً
وَهُـــدًى لِمَـــنْ تَـــبِـــعَ الْكِـــتـــابَ وَنُورَا [2] .

*** ***

وأما الأسباب التي عَلَّلَ بها جريرٌ دفْع نصارى تغلب الْجِزيَةَ ، وَوجَّهَـــهَا للأخطـــل في سياق هجائه ، وجعل منها أسبابًا مقـــنعة لهذا الْفِعْلِ فإنَّهُ أوجـــزها في الأبيـــات التَّالية :

قال جرير [3] :

فَعَـــلَـــيْكَ جِزْيَـــةُ مَعْـــشَرٍ لَمْ يَـــشْـــهَـــدُوا
وَاللهِ إنَّ مُـــحَـــمَّـــــــدًا لَـــرَسُـــــــولُ [4] .

فهـــذه الْجِزْية يفرضهـــا الخلـــيفة على نصارى تغلب لأنَّهـــم لم يشـــهـــــدوا و لم يعترفوا بأنَّ محـــمـــدًا رســـول الله .

وقـــــال [5] :

خَـــالَفْـــتُمُ سُـــبُلَ النُّـــبُـــوَّةِ فَاخْـــضَـــعُـــوا
بِجِـــزَا الْخَـــلِـــيْـــفَةِ ، والذَّلِـــيْـــلُ ذَلِـــيْـــلُ .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

[2] الكتاب : القرآن الكريم .

[3] المصدر السَّابق ، ص ١٨٤ .

[4] جاء الشطر الثاني من هذا البيـــت مع اخـــتـــلاف طفـــيـــف في ديـــوان جـــرير هكـــذا : لِلَّهِ إنَّ محمدًا لرسولُ . انظر ديوان جرير ، ص ٣٤٧ .

[5] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

إنَّ ابتعاد نصارى تغلب عن طريق الإسـلام ، وعن هَـدْي الإسـلام أوجبَ عليـهم أن يدفعوا الْجِزْيَة للخلـيفة فما ينـبغي لِلـذَّليل إلاَّ أن يـبـقى ذليلاً .

وقـال [1] :

عَجِـبْـتُ لِفَخْرِ التَّـغْـلِـبـيِّ وَتَغْـلِـبٌ
تُـؤَدِّي جِـزَى النَّـيْـرُوزِ ، خُضْـعًا رِقَـابُهَا .

إنَّ الخضوع لغـير الله أوجب على نصارى تغلب دفْع الْجِـزْية ، وهذا سبـب مهـم عَلَّلَ به جريرٌ دفعهم لـهـا .

فَمِنَ الـذِّلَّةِ عدم شهـادتهم بأنَّ مـحمـدًا رسول الله ، ومن الذِّلَّـةِ أنْ يُخالـفوا طـريق الإسـلام ، ومـن الـذِّلَّةِ خضـوعـهم لغـير الله ربِّ العـالمـيـن . وبعـد ذلك يرى جريـرٌ أسـبابًا عديـدةً لتـلك الذِّلَّةِ التـي يَقْـبَعُ تحتَ وطْأَتـهـا قوم الأخطل من نصارى تغلب ؛وهي :

أ – أنَّ نصارى تغلب لا أمجاد لهم ؛ وفي ذلك يقول [2] :

قَيْـسٌ وَخِـنْـدِفُ أَهْـلُ الْمَجْدِ قَـبْـلَكُمُ
لَسْـتُمْ إِلَيْـهِمْ وَلاَ أَنْـتُـمْ لَـهُمْ خَـطَـرُ .

فالتَّـغْلِبـيُّون – كما حكم عليهم جرير – لا يسـتـطيعون منافسـة خِنْـدفَ وقيـسٍ في الرفـعـة والسـؤدد ،إذ لا قـدرة لهم على ذلك .

ويـقـول كذلك [3] :

وَمَا لِـتَـغْلِبَ إنْ عَـدَّتْ مَـسَـاعِـيَـهَا
نَجْـمٌ يُـضِـيْءُ وَلاَ شَـمْـسٌ وَلاَ قَـمَـرُ .

إنَّـهُ بيتٌ يكمل معنى البـيت السَّابق فالتَّـغْلبـيُّون غارتْ نـجـوم أمـجـادهم وَكَـسَـفَتْ شـمـسُها وخَسَـفَ قمـرها .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٤٥ .
[2] المصدر السَّابق ، ص ١٨٣ .
[3] المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

ب – أنَّهُم في منـــزلة العبـــيد فهُم في مؤخـــرة القوم دائمًا :

يـــقـــول جـــريـــرٌ [1] :

وَالــتَّــغْــلِــبِــيُّ إِذَا تَــمَّــتْ مُــرُوْءَتُــهُ

عَبْــدٌ يَسُــوقُ رِكَابَ الْقَــوْمِ مُــؤتَــجَــرُ .

فَمِنْ طبع العبـــيد أن يســـوقوا الرَّكائب والمطـــايا ، وأنَّـــهُـــم أُجـــراء .

ويـــقـــــول [2] :

تَلْــقَى إِذَا اجْــتَــمَعَ الْكِــرَامُ بِــمَــوْطِــنٍ

أَشْــرَافَ تَــغْــلِــبَ سَــائِــلاً وَأَجِــيــرَا .

إِنَّ الأُخَــيْــطِــلَ لَوْ يُفَــاضِــلُ خِنْــدِفًــا

لَقِــيَ الْهَــوَانَ هُــنَــاكَ وَالتَّــصْــغِــيرَا [3] .

يُحقِّرُ جريرٌ التَّـــغْلبيِّـــين بأنَّ أشرافـــهـــم وأسيـــادهم يقـــومـــون علـــى خـــــدمة الكرام مقـــابل الأجرة ، ثـــمَّ يُحقِّر الأخطل خاصةً وذلك بلفظ التَّصـــغـــير (الأخيطل) فهو صـــاغـــرٌ وذليـــلٌ دائـــمًا .

---

[1] ديوان جرير ، ص ١٨٤ .

[2] المصدر السَّابق ، ص ٢٠٤ .

[3] خِنْدف : اسم لقبـــيـــلة .

ويـــقـــول جـــريـــرٌ [1] :

تَــفِــدُ الْوُفُــودُ وَتَــغْــلِــبٌ مَنْــفِــيَّــةٌ

خَــلْــفَ الزَّوَامِلِ ، وَالْــعَــوَاتِــقُ مِــيلُ [2] .

يُــدْعَــى إِذَا نَــزَلُـــوا لِــيَــأْخُــذَ زَادَهُ

وَيُــقَــالُ : إِنَّكَ لِلــضَّــيَــاعِ مَــخِــيْلُ [3] .

حَــظُّ الأُخَــيْــطِلِ مِنْ تَلَمُّــسِــهِ الــرِّشَــا

فِي الرَّأْسِ لاَمِــعَــةُ الْــفَــرَاشِ دَحُــولُ [4] .

إنَّهـــا ضرباتٌ قـــويَّةٌ يوجهـــها جريرٌ للأخطـــل وقومـــه التَّـــغْلبيِّـــين فهـــم أُجراء يبـــقـــون وراء المطـــايا ، وأمَّـــا الكرام فـــــفي المقــــدّمة دائمًـــا ، والتَّـــغْلبــــيُّون يصفـــهم بالعبـــيـــد ، والأخطـــل يُدْعى ذليـــلاً ليأخذ لقمـــتَهُ فهو مظـــنَّة الشــــؤم ، ونظـــرًا لكـــثرة الأحمـــال التي يحـــمـــلها للقـــوم فإنَّ الحـــبـــل الذي تُشـــــدُّ بـــــه تـــلك الأحمـــال يتـــركُ أثـــرًا في رأســـه تـــمامًا كالأثـــر الـــذي يـــتـــركه الحـــبـــل الذي يُرْبَـــط فِيه الـــدّلْوُ ؛ في حـــافَّةِ البـــئر .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٤٩ .

[2] الزَّوامل : المطايا التي تحمل الأحمال .

العواتق : المتون مفردها مَتْنٌ .

مِيْلُ : أي مائلات .

[3] مَخِيْلُ : المخيل : طائر الشؤم ، والذي يُتشاءم منه .

[4] الرِّشا : الحبل .

الْفَرَاش : فراش الدِّماغ .

الدَّحُول : البئر .

ج – أنَّ التَّـــغْلبيِّـــين لا أحساب لهم ولا أنساب :

يــقـــول جـــريـــرٌ [1]:

وَكَــيْــفِ يَــصُــولُ أَرْصَــعُ تَــغْــلِــبِيٌّ

وَمَــا لِلْــعَــبْــدِ مِنْ حَــسَــبٍ قَــدِيْمِ [2] .

وقـــــال [3] :

وَلَــو انَّ تَــغْــلِبَ جَمَّــعَتْ أَحْــسَــابَــهَا

يَــوْمَ الــتَّــفَاضُلِ لَمْ تَــزِنْ مِــثْــقَــالاَ [4] .

د – أنَّ التَّـــغْلبيِّـــين ليست لهم خُـــؤولةٌ أصـــيـــلةٌ :

يــقـــول جـــريـــرٌ [5] :

لاَ تَــطْــلُــبَــنَّ خُــؤُولَــةً فِي تَــغْــلِــبٍ

فَــالــزَّنْــجُ أَكْــرَمُ مِــنْــهُــمُ أَخْــوَالاَ [6] .

فَهُم – كما يقول جرير – أقل من العبـــيد أصالةً إذ لا أصـــل لخـــؤولـــتـــهـــم .

هـــ – أنَّ الله ضَـــرَب عليـــهم الـــذِّلَّةَ والعـــار بـــدايةً :

قـــال جـــريـــرٌ [7] :

لاَ تَــفْــخَـــرَنَّ فَــإِنَّ اللهَ أَنْـــزَلَــكُــمْ

يَــا خُــزْرَ تَغْــلِــبَ دَارَ الــذُّلِّ وَالْــعَــارِ .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٦٣ .

[2] الأرْصَعُ : الخفيف العجز .

[3] المصدر السَّابق ، ص ٣٣٢ .

[4] المثقال : وزنٌ مقـــداره درهم وثـــلاثة أســـبـــاع درهم . انظر المعجم الوسيط ، مادة (ثَقَلَ) ، ١ / ٩٨ .

[5] ديوان جرير ، ص ٣٣٢ .

[6] الزنج : العبـــيد .

[7] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

فهو يرى أنَّ التَّـغْلبيِّين أذلَّهم الله ، وكتب العار عليهم ، وهذا سببٌ يُضاف إلى أسباب ذلتهم بل ربَّما يكون أهمها لأنَّ الله إذَا أهانَ قومًا فما لهم من مكْرِمٍ كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

و – الْحُمْقُ الذي يُميِّزهم :

قال جريرٌ [1] :

فَإِنْ تُغْلَبْ فَإِنَّكَ تَغْلِبيٌّ

نَزَلْتَ بِغَايَةِ الْحَمِقِ اللَّئِيْمِ .

يرى أنَّ التَّغْلِبيَّ – ويقصد الأخطل – إذا غُلِبَ فهو أمرٌ معهود لا غرابة فيه لأنَّهُ نشأ على الْحَمَاقَةِ وَاللُّؤْم .

[1] ديوان جرير ، ص ٣٦٣ .

الصِّفةُ الثَّانيَةُ : الْخَتْمُ عَلَى رِقَابِ نصارى تغْلب بِطَابَعٍ مِنَ الرَّصَاصِ :

سلوك عرفه نصارى تغلب واعتادوا عليه حين يطبع على رقبة أحـدهم ختمـا مـن الرصاص دليلاً وعلامة على أهم نصارى ، وهذا الأمر كان محل ملاحظة جريـر ومتابعتـه حين جعل منه سـبّـة يعنف من خلالها الأخطل فقال [١] :

أَتَحْسِـبُ فَـلْـسَ أُمِّـكَ كَانَ مَـجْـدًا

وَجَـذُّكُـمُ عَنِ النَّـقَـدِ الْـجُـفـالاَ [٢] .

والْفَـلْسُ : الْخَـاتَمُ من الرَّصـاص يُخْـتَمُ به عُـنُـقُـهَا [٣] .

إنَّ جريرًا يُعَـيِّر الأخطل ويتهكَّم به قائلاً : أتظنُّ أنَّ الْخَـتْمَ على عُـنُـقِ أُمِّكَ بطابَعٍ من الرَّصاص هو مجدٌ لكم ؟ وأنَّ مجـدَكم أن تَقُصُّوا وَتَجُـزُّوا شَعَرَ وَصُوفَ صغارِ الماعزِ ؟

فهو هجاءٌ لاذعٌ من جريرٍ يوجهـه للأخطل ويُعَـيِّره بخصْـلَتَـيْن ذمـيْـمَـتَـيْن أولاهمـا الطَّـبْعُ على رقابهم بِطَابَعٍ من الرَّصاص ، وثانيـتهـما : الفقر المـدْقـع الذي لا يملك معه التَّـغْلبـيُّون سوى جزِّ شَعَرِ صغارِ الماعز .

وقـال جـريـرٌ [٤] :

جَـزِعْتَ ابنَ ذاتِ الْفَـلْـسِ لَمَّـا تَـدَاركَتْ

مِنَ الْحَـرْبِ أَنْـيَـابٌ عَلَيْـكَ وَكَلْـكَلُ [٥] .

يهجو جريرٌ الأخطل قائلاً : إنك قد خِفْتَ يا بنَ المرأة التي خُتِمَ على عنقها بالرَّصاص ، لَمَّا تَـوَالَتْ وَتَـتَابَعَتْ عليك الْحَرْب القـويّة .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٦ .

[٢] النَّقَدُ : صغار الغنم وهي من المعزى خاصَّة قِصار الآذان قليلة الألبان كَمِشُ الضُروع .
والجُفَال : الشَّعَرُ والصوف .	انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٣] انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٤] المصدر السَّابق ، ص ٦٦ .

[٥] الكلْكل : الصَّدْر .

الصِّفَة الثَّالثة : عدم إقامة العدل ، وعدم استنكار الضَّيم :

إن الحياة لا يمكن أن تكون سعيدة ما لم يحفل البشر فيها بإقامة العدالة ، وبنبذ الظلم الذي يمقته الإسلام ، فالعدل أساس الحياة وأساس العيش وعنصر الألفة والمحبة بين البشر وحين يُقصى الظلم ويشيع العدل تسير الحياة سيرها الصحيح وفي حالة افتقاد العدل يجب على أصحاب الطباع السليمة أن يقفوا موقفا يبعد بهم عن الاستكانة والقبوع تحت استبداد الضيم والقهر ، فالضيم والرضا بالذل يستويان في ميزان الشرفاء مع الموت ،من أجل ذلك عاب جرير على أولئك القوم ظلمهم وعدم استنكارهم لأن يضاموا فقال [1] :

وَتَغْلِبُ لاَ وُلاَةُ قَضَاءٍ عَدْلٍ
وَلاَ مُسْتَنْكِرُونَ لأَنْ يُضَامُوا .

إنَّهما صفتان سلوكِيَّتان عند نصارى تغلب – كما ذكر ذلك جريرٌ – يقابلهما – كما ذكرْتُ في المبحث الثَّالث – قيمتان سلوكِيَّتان إسلاميَّتان هما إقامة العدل ، واستنكار الضَّيم .

وكنتُ قد ذكرْتُ في المبحث الثَّالث قيمةً سُلوكيّةً إسلاميَّةً ذكرها جريرٌ ، وهي من أهم الْقِيَمِ السُّلُوكِيَّةِ التي يتميَّزُ بها المسلمون ، والَّتِي لا يمكن أن ينازعهم فيها أحد ، ألا وهي الكرمُ وإقراء الضَّيف ، وهي قيمة نفاها جرير عن التَّغْلبيِّين في قوله [2] :

وَتَغْلِبُ لاَ يُصَاهِرُهُمْ كَرِيْمٌ
وَلاَ أَخْوَالُ مَنْ وَلَدُوا كِرَامُ .
إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى سَكَرٍ بِفَلْسٍ
فَنَصْوٌ عِنْدَ ذَلِكَ والْتِطَامُ [3] .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٧٨ .

[2] المصدر السَّابق ، ص ٣٧٩ .

[3] النَّصْو : أَنْ يأخذ كلٌّ واحد منهم بناصية صاحبه .

إنَّهُ يهجوهم بالبــخل حيث لا يتــقدَّم إليهم كــريمٌ ليتــزوج مــن بناهم لأنَّ الكريم لا يُصاهر البخلاء ، وأبناء التَّــغْلبيِّــين بخلاء لأنَّ أخوالهم بخلاء .

ومن إمعــان جريرٍ في وصــف أولئــك القــوم بالبــخل أنَّهــم إذا اجتــمــعوا على شــرب خمْرٍ قيمــتُــهُ فلْــس واحــد حصــل النِّــزاع بيــنــهــم ، واحتدمت المعركة وأخذ كلٌّ واحدٍ منهم يشــدُّ ناصية صاحبه ، وحصــل اللطْم بيــنــهم ،فقــد اجتمع فيــهــم ضيــاع العــقــل بسبــب السُّكــر ، والبــخــل الشَّــديــد .

وقد ســبــق وأن ذكرْتُ في المبــحث الثَّــالث بــيتًا وصــف فيــه جــرير التَّــغْلبيِّــين بأقــبح صفات البخْــل وذلك أنَّهــم يتخــفّون عــن الضُّــيوف بــين الأشجــار الكثــيــفة حتَّى لا يرونــهــم ،فــقــال في ذلك (١) :

الآكِلُــونَ خَــبِــيْــثَ الــزَّادِ وَحْــدَهُــمُ
والــنَّـــازِلُـــونَ إذَا وَارَاهُــمُ الْــخَــمَــرُ .

عند ذلك يســتــحق جريــرٌ أن يفــخر بقومــه الكــرماء ، وأَنْ يعــلــن هــذا الكرم في وجــه الأخــطــل وقــومــه فــيــقــول (٢) :

مَا أَوْقَــدَ النَّــاسُ مِن نِــيــرَانِ مَــكْــرُمَــةٍ
إِلاَّ اصْــطَــلَــيْــنَا وَكُــنَّا مُــوقِدِي النَّــارِ .

** ***

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص ٢٢٠ .

الصِّفة الرَّابعة : الْخَــوْفُ وَالْجُــبْنُ :

صفتان مقيتتان يستنكرهما الشرفاء في كل مجتمع وفي كل ديــن ولا يمكــن أن تحمــى الأعراض ولا أن تصان الحدود أو تسترد الديار المغتصبة والحقوق المنهوبة إذا تمكنتا في مجتمع من المجتمعات .

قال جرير مستنكرا على نصارى تغلب ما هم فيه من خوف وجبن. [1] :

وَلاَ عَــرَفُــوا مَــوَاقِــفَ يَــوْمِ جَــمْــعٍ ،
وَلاَ حَــــوْضَ الــسِّــقَــايَــةِ وَالأَرَاكَــــا .
تُــكَــفِّــرُ بِالْــيَــدَيْنِ ، إِذَا الْتَــقَــيْــنَا ،
وَتُــلْــقِــي مِــنْ مَخَــافَــتِــنَا عَــصَــاكَا .

يهجو جريرٌ القومَ بــجُــبْنِهم وخوَرِهم المعــهــود مؤكدًا علــى ذلــك بأَنَّــهــــم لم يعرفوا البطــولات ، ولم تُســجــلْ لهم الانــتــصارات ، ولم يظــفــروا بأماكن المياه أو الأماكن الخصبة لأنَّهم أحقــر وأضعف من أن يحصلوا على شــيءٍ من ذلك كما زعم.

وهذا الهجاء جَمَعَ فيه جريرٌ التَّــغْلبيِّــين جمــيعًا ، ثمَّ أفــرد بعــد ذلك الأخــطــلَ بــهجاءٍ خاصٍّ حيث ذَكَر أنَّــهُ من شِدَّةِ خوفه يعلن الاستــسلام فيُــــلْقي ســــلاحه ويهُبُّ مسرعًا إلى أن يُقَــبِّلَ يدي جريرٍ طالــبًا رضاه وَصَفْــحَهُ عن كلِّ ما اقترفَهُ بحقِّه.

ويــقــول جــريــرٌ [2] :

أَنَسِــيــتَ يَوْمَكَ بِالْــجَــزِيْــرَةِ بَــعْــدَ مَا
كَــانَــتْ عَــوَاقِــبُــهُ عَــلَــيْــكَ وَبَــالاَ .
حَمَلَتْ عَــلَــيْكَ حُمَــاةُ قَــيْسٍ خَــيْــلَهَا
شُــعْــثًا عَــوَابِــسَ تَحْــمِــلُ الأَبْــطَــالاَ .
مَا زِلْــتَ تَحْــسِبُ كُلَّ شَــيءٍ بَعْــدَهُــمْ
خَــيْــلاً تَــشُــدُّ عَــلَــيْــكُــمُ وَرِجَــالاَ .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٢٩٨ .

[2] المصدر السَّابق ، ص ٣٣٠ .

إنَّهُ هجاءٌ شديدٌ يوجهه جريرٌ لخصمه حيث يذكّره بذلك اليوم الــذي دارتْ الدوائــر فيه عليه وكانت عواقبه وخيمةً ، وذلك عندما خاض القيــســيُّون الأبطالُ حربًــا ضِــدَّه بخــيــولهم وبفرسانهم الأشــاوس . ومن هول ما رآه الأخطل وقومه في هذه المــعــركة فقد تَسلَّلَ الخوف إلى قلوبهم ، وَدَبَّ الرُّعبُ في مفــاصلهم فأصبح يُخَــيَّــلُ إليهم أنَّ كلَّ شيءٍ بعدها خيلٌ تُهاجمــهــم ، وفرسانٌ يغــيرون علــيــهم .

وتجــســيدًا لنــفس الــصُّورة التي يظهر فيــها القــوم في حالــةٍ مــن الخــــوف والرُّعْــب قال جــريــرٌ [١] :

وَكَأَنَّ تَــغْــلِــبَ يَــوْمَ لاَقَوْا خَــيْــلَــنَــا

خِــرْبانُ ذِي حُــسُــمٍ لَــقِــينَ صُــقُورَا [٢] .

إنَّهُ يصف الحالة المزرية للتَّــغْلبيِّــين عندما وَقَعَتِ المعركة فيصــف انقــضَــاضَهُم عليهم بهجــوم الصُّــقــور على الحبــارى التــي في وادي ذي حُسُــمٍ حيــث تقــوم الصُّقور بتمزيق تلك الطُّــيــور شَرّ مــمــزَّق.وفي نفس المــوقــف قال جــرير [٣] :

فَلاَ خَــيْــلٌ لَكُــمْ صَــبَــرَتْ لِــخَــيْلٍ ؛

وَلاَ أَغْــنَــتْ رِجَــالُــكُــمُ رِجَــالاَ .

وَأَسْــلَمْــتُمْ شُــعَــيْثَ بَــنِي مُــلَــيْــلٍ ،

أَصَــابَ السَّــيْــفُ عَاتِــقَــهُ فَــمَــالاَ [٤] .

لا زال جرير يهجو التَّــغْلبيِّــين بما عَهِدَه فيهم من الخوف والرُّعب فخــيــولــهــم ورجالهم لا تــمــلك حولاً ولا قوَّةً أمام خيول القيــسيِّــين ورجالهم الصَّــنــاديد ، ولو كان التَّــغْلبــيُّون شجعــانًا لما تَخلَّوا عن صاحبــهم الذي ضربه القيــســيُّــون

---

[١] ديوان جرير ، ص ٢٠٥ .

[٢] خِرْبان : جَمْعٌ مفرده خِرْبٌ وهو ذَكَرُ الحبارى . ذو حسم : اسم لواد معروف وقتئذ .

[٣] المصدر السَّابق ، ص ٣٠٢ .

[٤] شعيث بني مُليل : رَجُلٌ من تغْلب .

بالسَّـــيـــف في عاتـــقـــه فســـقـــط ، ولكنهم أثـــبـــتوا – كما وصفهم بذلك جرير – أنَّـــهـــم جـــبـــنـــاء . وقال جـــريـــرٌ [1] :

تَـــرَكَ الْـــفَـــوَارِسُ مِنْ سُـــلَـــيْمٍ نِـــسْـــوَةً

عُجُلاً لَـــهُـــنَّ عَلَى الـــرَّحُوبِ عَـــوِيـــلُ [2] .

إِذْ ظَلَّ يَحْـــسَـــبُ كُلَّ شَـــخْـــصٍ فَـــارِسًـــا

وَيَـــرَى نَـــعَـــامَـــةَ ظِـــلِّهِ فَـــيَـــحُـــولُ [3] .

يواصل جريرٌ هجاء التَّـــغْلبيِّـــين فيقول : إنَّ فرسان بني سلـــيم خاضوا معركةً شرسةً أسْفرت عن جعل النِّساء التَّـــغْلبـــيَّات ثكالى يبـــكـــين بكاءً شديدًا على أولئك القتْلَى ، ونتـــيـــجة لهذا الرُّعب ، وبسبـــب شدَّة الأهوال أصبح التَّـــغْلِـــبـــيُّ يتوهَّم كلَّ ما يراه وقد صار فارسًا مِنْ سُـــلـــيم ، بل وأصبح يخاف من ظِـــلِّـــه ..

وهذه صورة مخزية أراد أن يرسمها جريرٌ للتَّـــغْلبيِّـــين ، وضَّحَ من خلالها حالـــةً مـــن الْخَوف والْجُبْن والْهَلَع تُسيطر عليـــهـــم في كلِّ معركةٍ يدخلونـــها الأمر الذي ولَّدَ قنـــاعة عنده بأنَّهم قوم جبـــناء لا يريدون الدخول في أي معركة وهذا ما جَـــعَـــلَـــهُ يقول [4] :

قَـــــالَ الأُخَـــيْـــطِـــلُ إِذْ رَأَى رَايَـــاتِـــنَـــا :

يَـــا مَـــارَ سَـــرْجِـــسَ لاَ نُـــرِيـــدُ قِـــتَـــالاَ .

فالأخـــطـــل – كما يقول جريرٌ – ما إن يرى رايات القيـــسيِّـــين حتَّـــى يَهُـــــبَّ مسرعًا مستـــنـــجدًا بمارسرجس قائلاً له : إنـــنـــا لا نريد القـــتـــال .

---

[1] ديوان جرير ، ص ٣٤٨ .

[2] الرَّحوب : يوم البِشر وهو اليوم الذي انتصر فيه الجحاف على تغْلب .

العُجُل : مفردها العجول وهي الثكْلى .

[3] الشخص : ما يخايل للعين رؤيته .

[4] نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٠ .

الصِّفة الخامسة : اللُّؤْمُ وَالْحَمَاقَةُ :

خصلتان من خصال النقض عابها جرير على نصارى تغلب وكانتا أداتين مهمتين من أدوات الهجاء الذي شنه جرير على خصمه الأخطل فقال [1] :

والتَّغْلِبيُّ لَئِيمٌ حِينَ تَجْهَرُهُ
وَالتَّغْلِبيُّ لَئِيمٌ حِينَ يُخْتَبَرُ [2] .

إنَّهُ هجاءٌ من نوع آخر حين يهجو جريرٌ خصمَه الأخطلَ بخصْلَةٍ قبيحة وهي اللؤم . واللؤمُ لا يمكن أن يكون في المسلم الحقّ ، ولذلك فهو تأثرٌ من جرير بالإسلام ، وهذا التأثر جَعَلَهُ يهجو الأخطل بما ليس في الإسلام من خِصال النَّقص كهذه الْخصْلَةِ الذَّميمة والتي أصبحتْ طبيعة – على حد قوله – في الأخطل ، وفي التَّغْلبيِّين ولا يمكنهم التَّنصُّل منها أوالانفكاك عنها .

بل والأكثر من ذلك أنَّ هذه الخصلة ورثها التَّغْلبيُّون ، وأصبحت ملازمةً لهم تمامًا كما تلازمهم ثيابهم التي يتسربلون بها ، وكما تلازمهم جلودهم التي لن يعيشوا بدونها ، ومثل تلك الأخلاق التي يتخلّقون بها .

---

[1] ديوان جرير ، ص ١٨٣ .

[2] تجهره : أي تصبح معه وجهًا لوجه لا يحول بينكما حائلٌ .

وهذا هو تمامًا ما قـال عنـه جريرٌ (١) :

تَسَـرْبَـلُـوا اللُّـؤْمَ خَلْـقًا مِنْ جُلُـودِهِـمُ

ثُـمَّ ارْتَـدَوا بِـثِـيَـابِ اللُّـؤْمِ وَاتَّـزَرُوا .

ورأيتُ أن جريرًا في بيت آخر هجا به الأخطل ، قد أضافَ خَصْـلَـةً ذميمةً أخرى إلى جانب اللُّـؤم وهي الحمـاقة حـين قـال (٢) :

فَـإِنْ تُـغْـلَـبْ فَـإِنَّـكَ تَـغْـلِـبِـيٌّ

نَـزَلْـتَ بِـغَـايَةِ الْحَـمِـقِ اللَّـئِـيْـمِ .

حيث يسـخرُ من الأخطـل قائـلاً : إِنَّك – أَيُّهَا الأخطل – لا يسـتـغرَب منـك أن تُغْـلَـبَ لأنَّ الهزائمَ طـبْـعٌ للتَّـغْلبيِّـين الذين اشـتـهروا بالْحَمَـاقة واللُّـؤْم .

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٤ . وهذه الخصلة الذميمة لم يخص بها جريرٌ الأخطلَ وقومه من التَّغْلبيـين فَحَسْب وإنَّما رأيتُهُ أَصَّلَهَا وأكَّدَ عليها كصفةٍ ذميمةٍ خُلِقَتْ مع الفرزدق وهو في بطن أُمِّهِ ، بل ورضعها من الثدي الذي يرضع منه اللبن من صدرها ، وفي ذلك يقول :

أصابَ قَرَارَ اللُّؤْمِ فِي بَطْنِ أمِّهِ وَرَاضَعَ ثَدْيَ اللُّؤْمِ فَهْوَ رَضِيْعُ انظر المصدر السَّابق ، ص ٢٥٥ .

وهذا الهجاء للفرزدق جاء في سياق هجاء جرير للأخطل حين قال :

أَبَا مَالِكٍ لاَ بُـدَّ أَنِّيَ قَـارِعٌ لِعَظْمِكَ ، إِنِّي لِلْعِظَـامِ قَرُوعُ .

أَتَغْضَبُ لَمَّا ضَيَّعَ الْقَيْنُ عِرْضَهُ وَأَنْتَ لأُمٍّ دُونَ ذَاكَ مُضِـيعُ ؟.

انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة . وقرع العظم : أي كَسْره .

فكأنَّ جريرًا حين هجا الفرزدق باللؤم أرادَ أنْ يُعَرِّضَ بالأخطل وأن يَصِفَهُ باللؤم بطريقـة غـير مباشرة ، فإذا كان الفرزدق قد ضَيَّعَ عِرْضَه – كما حَكَمَ بذلك جرير – وإذا كان الأخطل قـد ضَيَّعَ عِرْض أُمِّه كثيرًا – على حد قول جرير – فالنـتيجة تلتقي في نقطة واحـدة ، والأخطـل والفرزدق يلتـقيان في بؤرة واحدة وهي أن كليـهـما لئيمٌ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .

الْبَابُ الثَّانِي

الْقِيَمُ الْفَــنِّــيَّةُ والْجَــمَالِيَّةُ

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ

الْمُعْجَمُ اللُّغَوِيُّ لِجَرِيْرٍ فِي نَقْضِهِ شِعْرَ الأَخْطَلِ

من خلال معايشتي لشعر جرير ، ومن خلال قراءتي المتأنِّية لكلِّ بيت قاله وبـالأخَصِّ فيما يتعلَّق بنقضه شعر الأخطل ، استوقفتني ألفاظه السَّهْلة التي لا ثِقَل فيها ، ولا تعقيـد ، ولا تكلُّف ، فاسْتَنْتَجْتُ أنَّ له معجمًا لُغَويًّا شعْريًّا سهلاً ميسَّرًا ، لا تحتـاج ألفاظـه — في الغالب — إلى كثير بحث ، ولا يحتاج القارئ أو السَّامع معها إلى الرُّجوع إلى المعاجم اللُّغَويَّة إلاَّ فيما قلَّ ونَدَرَ .

((وكأنَّ جريراً سَكَبَ من عاطفته شيئًا على مبناه فجاء أسلوبه لطيفًا جذَّابًا يتنكَّب فيه عن الألفاظ الثَّقيلة والتَّعابير الجافَّة ...))[1]

غير أنَّ هذه الألفاظ السَّهلة الميسَّرَة في شعر جرير عامَّة ، وفي نقائضه خاصة ، لم تضعف من شِعْره ، بل رأيناه شِعْرًا قويًّا مؤثِّرًا ، وذا عاطفة جيَّاشة .

ولا نستغرب ذلك عند جرير فقد ((وَهَبَهُ اللهُ عاطفةً رقيقة ، ووفَّرَ له مـن الأحـوال مازادها نُمُوّاً ورِقَّة . فاسْتغلَّهَا في كلِّ مظاهر حياته : في الدِّين كـان مؤمنًـا مخلصًـا . في الحبِّ ، كان زوجاً وفيًّا . في المديح : كان شاعرًا مسْلمًا . وفي الهجـاء : كـان جرَّاحًـا مؤلـمًا . وفي الفخر كان مُتَحَمِّسًا حتَّى التَّهَوُّر))[2]

ومن أجل كلّ ما تقدَّم فقد حاولتُ أن أدرسَ المعجم اللُّغَويّ الشِّعْري عنـد جريـر ، مُحَدِّدًا هذه الدِّراسة في نقْضه شـعْر الأخطـل ، ومختصـراً في ذلـك بالقْـدر الـذي لا إخلال فيه .

وقد دارت دراستي حول التَّقسيمات التَّالية :

أ- ألفاظ من جسم الإنسان وغيره .

ب- ألفاظ لبعض الأماكن والمواضع .

ج- ألفاظ الحرْب .

د- ألفاظ من الطَّبيعة .

---

(1) انظر جرير ، د. محمد حَمُّود ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، ص٨٦ .

(2) المرجع السَّابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

أ – ألفاظ من جسم الإنسان وغيره في نقْض جرير شعْر الأخطل :

فقد لا حظتُ أنَّ جريرًا قد أكثر من ذِكْر أعضاء الجسم الإنساني خاصــةً ، وربَّمــا تعرَّض لبعض الألفاظ الخاصَّة بأجسام بعض الحيوانات .

وأنا هنا أقومُ بذكر أكثرها على سبيل الإجمال أوَّلاً ، ثمَّ أقوم بالتَّعليق اليسير عليها رغبةً في عدم الإطالة . وهذه الأعضاء هي :

الأعضاء الموجودة في الرأس ؛ ومنها : الْمَفْرِق واللَّهَازِمُ والْجَبِينُ والسَّمْعُ ، والْعَــيْن ، والأنف والمراسن ، والفم والأسنان واللَّحْيَان ، والخدُّ والعوارضُ ، وَذَكَرَ الوجْــه إجمــالاً والسِّبَال .

وقد تناول جريرٌ بقيّة أعضاء الجسم ومنــها العنــق حيــث أطلــق عليــه أحيانًــا (الْجِيْد) وذكر النُّحُورَ والْعَوَاتِقَ وَ الْمَنَاكِبَ وَالْيَدَ ، والصَّدْرَ حيث أطلق عليه أحيانًا لفظة (الْكَلْكل) ، وذكَر القَلْبَ مُعَبِّرًا عنه أحيانًا بـــ (الْفُؤَاد) ، وذكر الظَّهْرَ والصُّلْبَ والرِّجْلَ والعظم والسُّلاَمى ، والشِّلْوَ والجلد ، وغير ذلك .

وقد ساعدتْهُ ألفاظُ هذه الأعضاء في أنْ وَظَّفَها التَّوظيف المناسب في ردِّه على خصْــمه الأخطل فبها قَوِيَ هجاؤه وفخرُه ، ومن خلالها أجاد وأبدع وتفوّق .

- **الْمَفَارِق** : قال جرير [1]:

قَـــالَ الْغَـــوَانِي مَا لِجَهْـــلِكَ بَعْـــدَمَا
شَـــابَ الْـــمَـــفَـــارِقُ وَاكْتَسَـــيْنَ قَتِيْـــرًا . [2]

(وَالْمَفْرِقُ من الرأْس : حَيْثُ يُفْرَقُ الشَّعْرُ) [3]

- **اللَّهَازِم** : قال جرير [4] :

أَقَــــيْنٌ يَــا تَـــمِـــيْمُ يَعِيْبُ قَيْـــسًا
يَـــطِـــيْرُ عَـــلَى لَـــهَـــازِمِهِ الشَّـــــرَارُ؟

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٢.

(٢) القَتير : الشَّيْب .

(٣) انظر المعجم الوسيط ، ٢/٦٨٦ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٣ .

واللَّـــهَازِمُ : جمع لِهْزِمة ، عظم ناشئ في اللّحي تحت الحنك وهما لِهْزِمتان .

فنحنُ نلاحظ أنَّ لفْظة (لَهَازِمِهِ) قد وَقَعَتْ موقعها المناسب ، وكان لها التأثير الملحوظ في قوَّةِ الهجاء .

- **الْــجَــبِــيْنُ :**

قال جرير[1] :

فَــــــيَا رُبَّ جَبَّـــــــارٍ وَطِئْنَ جَــــبِيْنَهُ

صَرِيْعٍ وَنَــــهْبٍ قَــدْ حَوَيْــــنَ إِلَــــى نَهْبِ. [2]

و (الْجَبِيْنُ : مَا فوق الصُّدْغِ عن يمين الْجَبْهَةِ أو شِمَالها .) [3]

ومن ذلك قوله تعالى : **[فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ]** ، **{الصَّافات:١٠٣}** .

ومعنى تَلَّهُ للجبين أي : (أَكَبَّهُ على وَجْهِهِ) [4]، والجبين هو من أكرم المواضع في جسم الإنسان ، ولهذا السبب وظَّفَهُ جريرٌ في البيت السَّابق توظيفًا مناسبًا بحيث كان لـــه الأثـــر الكبير في تقوية الهجاء .

- **السَّــمْــع :**

قال جرير[5] :

حَــتّى سَــمِعْتُ بِــخِنْزِيرٍ ضَغَــا جَزَعًــا

فَــقُلْتُ : إِنِّي أَرَى الأَمْــوَاتَ قَــدْ نُــشِرُوا .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٢ .

[2] جَبَّار : ملك جبَّار . النَّهْب : ما انتهبوه من الأموال .

[3] انظر المعجم الوسيط ، ١٠٦/١ .

[4] تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٤ / ١٧ .

[5] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

وقال[١] :

إِنَّ الــــغَــــوَانِي قــَدْ رَمَــيْنَ فُــؤَادَهُ

حَــــتَّى تَرَكْــنَ بِــسَمْعِهِ تَــوْقِـــــيرَا . [2]

- **الــبَــصَــرُ :**

وقد كان استخدام جرير لهذه الحاسَّة في نقائضه مع الأخطل في صُوَرٍ شَــتَّى حيــث جاءت لفظة (عين) – وهي أداة الإبصار – مُعَرَّفَةً بالإضافة مرَّتين في بيتٍ واحدٍ ، حــين قال جرير[٣] :

لَــمَّا رَمَــتْنِي بِعَيْــنِ الــرِّئْمِ فَــاخْتَلَــبَتْ

عَقْلِي ، رَمَتْنِــي بِــعَيْنِ الأَجْــدَلِ الضَّارِي . [4]

وجاءت - كذلك – مُعَرَّفَةً بـــ (ال) ، وفي صيغة الجمْع هكذا (العيون) ، في قول جرير[٥] :

مِــلءُ الْــعُيُونِ جَــمَالاً ثــُمَّ يــُونــِقُنِي

لَــحْنٌ لَذِيْذٌ ، وَصَــــوْتٌ غَــيْرُ خَوَّارِ . [6]

وكذا في قوله[٧] :

وَلَــكِــنْ بِــالْــعُــيُونِ وَكُــلِّ خَــــدٍّ

تَــخَــالُ بــِهِ لِــبَــهْــجَتِــهِ صِــقَــالاَ .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢١ .

[٢] التَّوقير : الصَّمَمُ .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٤١ .

[٤] اختَلَبَتْ : خَدَعَتْ . الأَجْدَل : الصَّقْر . الضَّارِي : الذي قد ضَرِيَ بالصَّيْد .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٢ .

[٦] يُونقُني : يُعْجِبُني . ، والْمُوْنِقُ الْمُعْجِبُ وَالأَنِيقُ الْحَسَنُ .

[٧] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٣ .

وجاءت بلفظة (الْبَصَر) في قول جرير[١] :

كَـمْ دُونَـهُـمْ مِـنْ ذُرَى بِـيْدٍ مُـخَفِّـقَـةٍ
يَـكَادُ يَنْشَـقُّ عَـنْ مَـجْهُولِـهَا الْبَـصَرُ . [2]

وجاءت بلفظة (نَظْرَة) مفردةً في قوله [٣] :

مَـا كَـانَ مِثْـلُكِ يَسْـتَخِفُّ بِنَظْـرَةٍ
يَـوْمَ الْمَـطِيُّ لِغَـرْبَةٍ مَـرْحولُ . [٤]

- **الأَنْـفُ :**

قال جرير[٥] :

لَـنَا الْـفَضْلُ فِي الـدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِـمٌ
وَنَـحْنُ لَـكُمْ يَـوْمَ الْـقِيَامَـةِ أَفْـضَـلُ .

ومعلومٌ أنَّ الأَنْفَ من الأجزاء المهمة في وجْه الإنسان ، وهـو منـاط الكرامـة ، وفي شموخه عزَّةُ العزيز ، وكرامةُ الكريم ، وإقدامُ الشُّجَاع ، وَمِنْـهُ قَوْلُنـا : (رَجُـلٌ حَمِـيُّ الأَنْفِ ، أي : آنِفٌ يَأْنَفُ أَنْ يُضَام .) [٦]، وَإِذا مُرِّغَ هذا الجزء من الوجه في التُّرَاب – لغير لغير الله – فهو دليل الذِّلَّةِ ، والهزيمة ، والصَّغَار إلى النُّخَاعِ ، والمسْكَنَةِ إلى أقصاها ، ولهـذا اختار جرير في بيته السَّابق الأنفَ كلفْظةٍ مُخْتَارةٍ منَ الجسم البَشَرِيِّ ليكـون لهـا وقعها الشَّديد في سياق الهجاء الْمُقْذِعِ الْمُوَجَّهِ نحو الأخطل .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .
[٢] ذُرَى : أعالي . بِيْد : جمع بيداء وهي الصَّحْراء . مُخَفِّقَة : بعيدة .
[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٨١ .
[٤] غَرْبة : رحلة بعيدة .
[٥] المصْدر السَّابق ، ص ٦٩ .
[٦] انظر القاموس المحيط ، باب الفاء ، فصل الهمزة ، ص ٨١٠ .

ويقول جرير[1] :

وَشَـــرِبْتَ بَـــعْــدَ أَبِـــي ظُهَيْـــرٍ وَابْـــنِــهِ

سَـــكَرَ الـــدِّنَانِ كَـــأَنَّ أَنْـــفَـــكَ ثِـــيـــلُ. [2]

وقد استخدمَ جريرٌ لفظًا آخرَ يدلُّ على الأنف وهو (الْمَرْسِــنُ) ، بصــيغة منتــهى الجموع (فَوَاعِل) ، مرَّةً واحدةً في قوله [3] :

قَـــبَـــحَ الإلَـــهُ وُجُـــوهَ تَـــغْـــلِبَ إنـــَّهَـــا

هَـــانَـــتْ عَـــلَـــيَّ مَـــرَاسِـــنًا وَسِـــبَـــالاَ .

و (الْمَرْسَنُ : الأَنْفُ وموضع الرَّسنِ من أَنْف الدَّابَّة) [4]

- **الأَفْوَاهُ :**

وقد ذكرها جرير مجموعةً جمع قلَّة ، مرَّةً واحدةً في قوله [5]:

الـــضَّاحِـــكُونَ إِلَـــى الْـــخِنْزِيرِ شَـــهْوَتَـــهُ

يَـــا قُـــبِّـــحَتْ تِـــلْكَ أَفْـــوَاهًا إِذَا كَـــشَرُوا .

فقد صوَّرَ لنا جريرٌ الشِّكْلَ القبيحَ لأفواه التَّغْلبيِّين حين يضــحكون وَيُكَشِّــرون عــن أسنانهم القبيحة ، ولنا أن نتأمل كيف أَسْعَفَتْ هذه اللَّفْظة جريرًا ليقع هجاؤه مَوْقِعَهُ الْمُؤَثِّر من نفوس القوم .

- **الأَسْنَانُ :**

وقد عبَّر عنها جرير في صُوَرٍ ثلاث ؛

الأولى : جمع القلَّة (أَفْعَال) المضــاف إلى ضــمير الغائبــة في لفظــة (أنيابهــا) ،

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٨ .

[2] الثِيل : غِلافُ مِقْلَم الْفِيلِ وَ الْبعير . انظر المصدر السَّابق نفس الصَّفحة .

[3] المصدر السَّابق ، ص ٨٧ .

[4] انظر المعجم الوسيط ، ٣٤٥/١ .

[5] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

حين قال [١]:

لَــمْ يَــجرِ مُــذْ خُــلِقَتْ عَــلَى أَنْــيَابِــهَا

مَــاءُ السِّــوَاكِ ، وَلَــمْ تَــمَــسَّ طَــهُــورَا .

الثَّانيَة : جمع القلَّة (أَفْعَال) المسبوق بــ (ال) في لفظة (الأنياب) ، كما في قــول جرير[٢] :

مِــنْ كُــلِّ مُــخْــضَرَّةِ الأَنْيَــابِ فَــغَّــرَهَا

لَــحْمُ الْــخَــنَانِيصِ يَــغْلِي فَــوْقَهُ الــسَّكَرُ .

الثَّالِثَة : الْمُثَــنَّى الْمُذَكَّر ، كما في قوله[٣] :

أُمُّ الأُخَــيْطِــلِ أُمٌّ غَــيْرُ مُــنْــجِــبَــةٍ

أَدَّتْ لِــمُــخْــتَلِــفِ النَّــابَيْــنِ نَــخَّارِ .

ولاشك أنَّ كلَّ لفظة قد وَقَعَتْ موقعها المناسب الْمُــؤَثِّر في ســياق هجــاء جريــر للأخطل . فكلمة النَّاب فيها من القُبْح ما يشعر به مَنْ يقــرأ البيتَــيْن السَّــابقَيْن ، فأمَّــا (الأنياب) في البيت الأول فهي مخضرَّةٌ بسبب تراكم الأقذار فوقها ، وأمَّا(النَّــابَيْن) في البيت الثَّاني ، فهما مختلفان لم يقعا موقعهما المناسب ، إذ في خِلْقَتِهِمَا قبحٌ بَيِّنٌ .

- **اللَّحْيُ :**

وقد ذكره جرير مرَّةً واحدةً بصيغة الْمُثَــنَّى في قوله[٤] :

شَــبَّــهْــتُ أَرْآدَ لَــحْيَــيْهَــا إِذَا سَــكِــرَتْ

خُــصْــيَيْ حِــمَــارٍ مُــدَلٍّ عِــنْــدَ بِيْطَارِ . [5]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٧ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٧٦ .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٧ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٨ .

[٥] أَرْآد اللَّحْيين : أصول اللَّحْيين .

و (اللَّحْيُ : منبت اللِّحْيَة من الإنسان وغيره . وهما لَحْيان . والعظمان اللَّذَان فيهمــا الأسنان من كلِّ ذِي لَحْيٍ .) [1]

- **الْخـَـدُّ :**

وقد استخدم جرير هذه اللَّفْظَةَ بصيغة المفرد في قوله[2] :

وَلَــكِــنْ بِــالْـعُـيُــونِ وَكُــلِّ خَــدٍّ

تَــخَــالُ بــِهِ لِـبَــهْــجَــتِــهِ صِــقَــالاَ .

- **الْعَوَارِضُ :**

وقد استخدم هذه اللفظة بصيغة منتــهى الجمــوع (فَوَاعِــل) ، مــرَّةً واحــدة في قوله[3] :

حُــلِّيْــنَ بِــالْمــَرْجَــانِ فَــوْقَ ذَوَائِــبٍ

وَالــدُّرُّ زَانَ عَــوَارِضــًا وَنـُــحـُــورَا .

و (الْعَارِضُ : جانب الوجه و – صفحة الخدِّ وهما عارضــان ؛ يُقَــال : هــو خفيــف العارضَيْن : شَعْرِ الْعَارِضَيْن . و – صفحة الْعُنُق .) [4]

- **الْــوَجْــــهُ :**

وقد استخدم جرير هذه اللَّفْظَةَ بصيغة الجمع ، في قوله [5] :

يَــحْــمِي الَّــذِيْــنَ بِــبَــطْحَــاوَيْ مِنِّى حَسَبِي

تِــلْكَ الْــوُجُوهُ الَّــتِي يُــسْقَى بــِهَا الْــمَــطَرُ .

واستخدمها بصيغة الجمع المعرَّف بالإضافة حيث أضافها إلى تَغْلِب مــرَّتَيْن في بيــتَين منفصِلَين .

---

[1] انظر المعجم الوسيط ، ٨٢٠/٢ .

[2] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٣ .

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٣ .

[4] انظر المعجم الوسيط ، ٥٩٤/٢ .

[5] انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٣ .

قال في الأول [١] :

قَــبَــحَ الإلَــهُ وُجُــوهَ تَــغْــلِبَ إنَّــهَــا

هَــانَــتْ عَــلَيَّ مَــرَاسِــنًا وَسِــبَــالاَ .

وقال في الآخر[٢] :

قَــبَــحَ الإلَــهُ وُجُــوهَ تَــغْــلِــبَ كُــلَّــمَا

شَــبَــحَ الْــحَــجِــيْــجُ وَكَــبَّرُوا إهْــلاَلاَ .

ومعلومٌ أنَّ الوجه هو أكرم ما في الإنسان ، فإذا قَبُحَ فقد أُهِينَ المرء بأقْسى درجات الإهانة .

ونرى في البيت الأول ذِكْر جرير لجزء من الوجه وهو السِّبَال ، و (السَّبَلَةُ : طرف الشَّارب مِنَ الشَّعَر . و – مُقَدَّم اللِّحْيَة) . [٣]

- **الْــعــنُــقُ :**

وقد عبَّر عنه جرير بـ (الْجِيْد) ، في قوله [٤] :

كَــأُمِّ الطَّــلاَ تَــعْــتَــادُ وَهْــيَ غَــرِيــرَةٌ

بِــأَجْــمَادِ رَهْــبَــى عَــاقِدَ الْــجِيْدِ كَالْقُلْبِ . [5]

و (جِيْدٌ : الجيم والياء والدَّال أصْلٌ واحدٌ ، وهو الْعُنُق . يُقَالُ : جِيدٌ وَأَجْيَادٌ) [٦]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

[٢] المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٣] المعجم الوسيط ، ٤١٥/١.

[٤] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

[٥] أم الطَّلا : الظبية . أجماد : جمع جمْد وهو ما غلظ من الأرض . رَهْبَى : مكان . الْقُلْب : سوار من عاج .

[٦] انظر معجم المقاييس في اللغة ، ابن فارس ، باب الجيم والياء ، وما يثلثهما ، ص ٢٣١ .

وفي الْعُنُقِ (الأَخْدَعان) ، كما ورد في قول جرير[١] :

تَـــظَـــلُّ الْـــخَـــمْـــرُ تَخْـــلِجُ أَخْـــدَعَـــيْـــهَا

وَتـَــشْـــكُو فِـــي قَـــوَائِـــمِـــهَا امْـــذِلاَلاَ .

والأخدعان مفرد الأخدع وهو أحد عِرْقَين في جانبي الْعُنُق ، فإن شكلهما يصبحُ مُقَزِّزًا ويتحرَّكان بسبب تأثير الخمرة حركة غريبة فيها القبح والاشمئزاز .

- **النَّحْـــر :**

وقد استخدم جرير هذه اللَّفْظَةَ بصيغة الجمع ، في قوله [٢] :

حُـــلِّـــيْنَ بِـــالْمَرْجَـــانِ فَـــوْقَ ذَوَائِـــبٍ

وَالـــدُّرُّ زَانَ عَـــوَارِضـــًا وَنُـــحُـــورًا .

والنَّحْرُ : (نَحْرُ الصَّدْرِ : أعلاه ، أو مَوْضعُ الْقِلاَدَةِ ، مُذَكَّرٌ ج : نُحُورٌ .) [٣]

- **الْـــعَـــوَاتِـــق :**

وقد استخدم جرير هذا اللفظ بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِل) ، في قوله[٤]

وَقَـــدْ شَـــقَّـــقَتْ يَـــوْمَ الـــرَّحُـــوبِ سُـــيُـــوفُنَا

عَـــوَاتِـــقَ لَـــمْ يَـــثْـــبُـــتْ عَلِيْهِنَّ مِـــحْـــمَلُ . [5]

وَ (الْعَاتِقُ : ما بين الْمَنْكِبِ وَ الْعُنُقِ) . [٦]

ونلحظ الدَّور المهم لكلمة (عَوَاتِق) في هذا البيت ، وفي غرض الهجـــاء بالتَّحديـــد، وهو أنَّ عواتِق التَّغْلبيِّين قد تمزَّقت وَتَشَقَّقَتْ من قوَّة ضرْب سيوف القيسيِّين ، فلم تعد تلك العواتِق مُسْتَقَرًّا لِمَحَامل سيوفهم .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٦ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٣ .

[٣] القاموس المحيط ، باب الراء ، فصل النُّون ، ص ٥٠٤ .

[٤] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٩ .

[٥] يوم الرَّحُوب : يوم البِشْر ، والرَّحوب قريب من البِشْر .		مِحْمَل : أراد مِحْمَل السَّيف .

[٦] انظر المعجم الوسيط ، ٥٨٢/٢ .

وقال جرير[١] :

وَلَّــوْ ظُـــهُـــورَهُـــمُ الأَسِـــنَّةَ وَالْـــقَـــنَا
قُـــبْـــحًا لِـــتِلْـــكَ عَـــوَاتِـــقـــًا وَظُـــهُـــورَا .

إنَّ جريرًا قد استفاد من ذِكْرِه لأعضاء جسم الإنسان في هجائه الأخطلَ فنرى في هذا البيت كيف وظَّفَ لفْظَتَي (عَوَاتِقًا) و (ظُهُورًا) ، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ هؤلاء القـــوم قبيحون سواءً في إقبالهم أو في إدْبارهم .

- **الْـــمَنَاكِـــبُ :**

وقد وظَّفَها جريرٌ بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِل) ، مرَّةً واحدةً في قوله[٢] :

بُـــزْلاً كَـــأَنَّ الْـــكُـــحَـــيْلَ الْجـــَوْنَ ضَـــرَّجَـــهَا
حَـــيْـــثُ الْـــمَـــنَاكِبُ يَـــلْقَى رَجْـــعَـــهَا الْقَصَرُ. [3]

و (الْمَنْكِبُ : مُجْتَمَع رأس الْعَضُد والكَتِف) [٤]

- **الْـــيَـــد :**

وقد استخدم جرير هذا اللَّفْظ بصيغة الْـــمُثَنَّى ، في قوله في هجاء الأخطل[٥] :

قَـــصُـــرَتْ يَـــدَاكَ عَـــنِ الْـــفَـــعَـــالِ وَطَالَمَا
غَـــالَـــتْ أَبَـــاكَ ، عَـــنِ الْـــمَـــكَـــارِمِ ، غُـــولُ. [6]

فَلَمَّا كانت اليد هي أداة العطاء ، والكرم ، والشجاعة ، والجود فقد وظَّفَها جريرٌ كما ينبغي في هذا البيت حيث عبَّر عن مجافاة الأخطل للمكارم ، وبعده عنها بانقباض يَدَيه .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٦٨ .

[٣] البُزل : جمع بازل وهو الذي قد انتهت سِنُّه .   الكُحَيل : القَطِران .
الجَوْنُ : الأَسْوَد ويعنى هنا الْعَرَق .   ضَرَّجَهَا : لَطَّخَهَا .   الْقَصَرُ : أصل الْعُنُقِ .

[٤] انظر المعجم الوسيط ، ٢/٩٥٠ .

[٥] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٩ .

[٦] غَالَتْ : أهْلكَت واحتجزت .   غُول : مَنِيَّة وَبَلِيَّة .

وقال جرير[١] :

وَلَــوْ كُــنْــتَ مَــوْلَى الْــعِــزِّ أَيَّــامَ رَاهِــطٍ

شَــغَــبْتَ وَلَــكِنْ لاَ يَــدَيْ لَــكَ بِالشَّــغْبِ .

فالأخطل لا حيلة له بالقتال والمقاومة – كما يقول جرير – لأنَّه لا يملك عِزًّا قديمًا ولا ماضيًا تليدًا . وكلّ ذلك ضَمَّنَهُ جريرٌ كلمة (يَدَيْ) .

- **الصَّدْر :**

وفيه القلْب الذي عبَّر عنه جرير – أحيانًا – بالفؤاد :

فقد استخدم جرير لفظ (الصُّدُور) بالتَّعريف مرَّةً واحدةً في قوله [٢] :

تَــعْــلُو الــرِّجَــالَ إِذَا النَّــجِيُّ أَضَــجَّــهُمْ

أَمْــرٌ تَــضِــيقُ بِــهِ الــصُّدُورُ ، جَــلِــيلُ. [3]

إنَّ توظيف جرير لكلمة (الصُّدُور) كان توظيفًا موفَّقًا لأنَّ الصُّدُور إذا ضاقت بسبب أمْرٍ مِنَ الأمور آذنت بالانفجار ، وضيق الصَّدْر يقابله انشراحه ، كما في قوله تعالى : [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ] {الشرح:١} .

واستخدم جرير لفظ (الصُّدُور) مُنَكَّرًا في قوله [٤] :

طَــرَقَــتْ نَــوَاحِــلَ قَــدْ أَضَــرَّ بِهَا السُّــرَى

حَــتَّى ذَهَــبْــنَ كَــلاَكِلاً وَصُــدُورَا .

ونلحــظ اســتخدام جريــر للفظــة (كَلاَكِــلاً) مــن قبيــل التَّنويــع لأنَّ (الْكَلْكَلُ وَالْكَلْكَالُ : الصَّدْرُ ، أو ما بينَ التَّرْقُوَتَيْنِ ، أو بَــاطِنُ الــزَّوْرِ ومِــنْ الْفَــرَس : مَا بَيْنَ مَحْزِمه إلى ما مَسَّ الأَرضَ منه إذا رَبَضَ) . [٥]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٣ .

[٣] النَّجِيُّ : القوم ينتجون .　　أَضَجَّهُم : أَزعجهم وَحَمَلَهُم على الضَّجَاج . جَلِيلُ : عظيم .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٢١ .

[٥] القاموس المحيط ، باب اللام ، فصل الكاف ، ص ١٠٦٦ .

ومعنى البيت أنَّ تلك المطايا قد نَحُلَتْ بسبب كثرة السَّيْر ليلاً ، وقطْعهـــا للصَّـــحاري الواسعة ، فأصابها الضَّررُ والهزالُ .

واستخدم جرير لفظة (الصُّدُور) معرَّفةً بالإضافة في قوله[١] :

قَــادَ إِلَــيْــكُم صُــدُورَ الْــخَــيْلِ مُــعْــلِــمَةً

تَــغْــشَى الــطِّــعَانَ ، وفِــي أَعْــطَــافِــهَا زَوَرُ .[2]

وفي استخدام جرير لكلمة (صُدُور) ما يـــدلُّ على الإقدام في المعركة والمواجهة التي لا فرار معها .

وقد قُدِّمَتْ لفظة (الصُّدُور) على لفظة القلب أو الفؤاد لأنَّ الصَّدْر له معنًى أشمل وأوسع ، (صَدْرُ الإنسان : الجزء الممتدّ من أسفل العنق إلى فضاء الجوف ؛ وَسُمِّيَ القلْبُ صَدْرًا لحلوله به . وفي التنـــزيل : [**قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**]) [٣] {آل عمران:٢٩}

وأما لفظة (الفؤاد) ، فقد استخدمها جرير في قصائده التي نقض بها شِـعْر الأخطـل ثلاث مرات مُعَرَّفَةً في مرَّتَيْن بـــ (ال) ، ومرَّةً مُعَرَّفَةً بإضافتها إلى الضَّمير ، وتفصيل ذلك كما يلي :

❖ قال جرير [٤]:

طَــرِبَ الْــفُــؤَادُ لِــذِكْرِهِــنَّ وَقَــدْ مَــضَتْ

بِــاللَّــيْلِ أَجْنِــحَةُ النُّــجُومِ ، فَــمَــالاَ .[5]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

[٢] مُعْلِمَةً : الَّتِي عُلِّمَتْ بعلامة القتال .   الزَّور : الْمَيْلُ .

[٣] انظر المعجم الوسيط ، ١/٥٠٩ .

[٤] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

[٥] أجنحة النجوم : ما جنَحَ منها للسقوط .

❖ وقال [1] :

أَمَّـــا الْــفُــؤَادُ فَــلَيْــسَ يَــنْسَــى ذِكْرَكُمْ

مَـــا دَامَ يَـــهْـــتِفُ فِـــي الأَرَاكِ هَـــدِيـــلُ .

والمعنى أنَّ قلبه لن ينسى حبيبته مادام الحَمَام يهدل فوق شجر الأراك .

❖ وقال [2] :

إِنَّ الْــغَــوَانِي قَـــدْ رَمَـــيْـــنَ فُـــؤَادَهُ

حَـــتَّـــى تَـــرَكْـــنَ بِسَـــمْـــعِـــهِ تَـــوْقِـــيـــرَا .

وربَّما كانت لفظة الفؤاد أَرَقَّ من لفظة القلْب ، ومن ذلك ما عبَّر الله به في القرآن الكريم عن حال أمِّ موسى مع ولدها ، فلم يقل – سبحانه – وأصبح قلب أمِّ موسى فارغًا ، وإنَّما قال : [وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ] {القصص:١٠} .

ثُمَّ يأتي استخدام جرير لكلمة (الْقَلْب) ، فقد استخدمها في معـــرض نقضـــه شـــعر الأخطل ثلاث مرات ، مرَّةً بالتَعْرِيف والجمع (القلوب) ، ومرَّة بإضافتها إلى ضمير المتكلم (قلبي) ، وأخرى بإضافتها إلى الضمير الكاف (قلبك) .

قال جرير [3]:

تِـــلْـــكَ الْـــقُـــلُوبُ صَـــوَادِيـــا تَـــيَّـــمْنَـــنَا

وَتَـــرَى الـــشِّـــفَاءَ فَـــمَا إِلَـــيْـــهِ سَـــبِـــيلُ . [4]

ولأنَّ القلْب هو موطن الحبِّ أو البغض فقد أحسن جريرٌ في تعبيره عن شِدَّة حُبِّه لحبيبته بعطش القلب .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٩ .

[2] المصْدر السَّابق ، ص ١٢١ .

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١٧٩ .

[4] الصوادي : الْعِطَاش . تَيَّمْننا : ذَهَبَتْ عقولنا وقلوبنا من شدَّة الحُبِّ .

وقال [١] :

إِذَا أَنَـــا فَـــارَقْــتُ الأَحَــــصَّ وَمَــــاءَهُ

سُــقِــيْــتُ مِــلاَحــًا لاَ يَعِــيجُ بِهَا قَلْبِي . [2]

وقال [٣] :

أَتَــذْكُــرُهُــمْ وَحَــــاجَــتُــكَ ادِّكَـــارُ ،

وَقَــلْبُــكَ ، فِــي الظَّــعَــائِنِ ، مُــسْــتَعَارُ .

يقول : إنَّ صويحباته امتلكْنَ قلبَه ، وَرَحَلْنَ بِهِ مَعَهُنَّ .

- **الــظَّــهْــرُ :**

وقد استخدم جرير لفظة (الظَّهْر) ، مجموعة في بيتٍ واحدٍ مرَّتَيْن ، حيــث جــاءت مضافةً في الشَّطْر الأول إلى ضمير الغائب ، هكذا (ظُهُورَهُمُ) ، وجاءت نَكِــرَةً في آخــر البيت ، هكذا (ظُهُورَا) ، قال جرير [٤] :

وَلَّـــوْا ظُــــهُورَهُــمُ الأَسِــنَّــةَ وَالْــقَنَا

قُــبْــحــًا لِــتِلْــكَ عَــوَاتِــقــًا وَظُهُورَا .

إنَّ جريرًا يعي تمامًا أنَّ الأسِنَّةَ وَالْقَنَا إذا أصابتْ الْــمُقَاتل في ظهْره فهو علامة الْفِرار والجبْن ، وهذا هو ما فَعَلَهُ القوم الجبناء ، ومن ذلك – أيضًا – قول جرير [٥] :

تَــهْــجُــونَ قَيْسًا وَقَدْ جَــذُّوا دَوَابِرَكُمْ

حَــــتَّى أَعــَزَّ حَصَــاكَ الأَوْسُ والنَّمِــــرُ . [6]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

[٢] الأَحَص : وادٍ لبني تغلب كانت فيه بعض وقائعهم مع إخوتــهم بكر .

لا يَعِيجُ : لا يعرفها ولا يَعْلَقُ بــها .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٣١ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٥ .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ١٧٥ .

[٦] جَذُّوا دَوَابِرَكُمْ : قطعوها واستأصلوها .الْحَصَى : العدد .

الأَوْسُ وَالنَّمْرُ : قبيلتان صغيرتان من تغلب ، نسبة إلى الأوس بن تغلب ، والنَّمر بن قاسط .

والمعنى أنَ القيسييِّن تغلَّبوا على التَّغلبيِّن ، وفتكوا بهم حتَّى لم يبق منهم إلاَّ القليل حتى أصبح الأَوسيُّون والنَّمِريُّون أكثَر منهم عددًا الأمر الذي أصبح معه التَّغلبيُّون محتـــاجين إلى هاتين القبيلَتَيْن الصَّغِيْرتَيْن ، ففي اســـتخدام جريـــر لِلَفْظتَـــي الظَّهْـــر وَ الـــدُّبُر إشـــارة – لا تخفى – إلى جُبْنِ قوم الأخطل وانـــهزامهم في المعارك التي خاضوها مع القيسييِّن .

- **الصُّلْبُ وَالسُّلاَمَى :**

وقد استخدم جريرٌ هاتَيْن اللَّفْظَتَين مُنَكَّرَتَيْن ، في قوله مفتخرًا [١]:

وَإِنَّـــا لَـــنَقْـــرِي حِـــيْـــنَ يُحْمَدُ بِالْقِـــرَى

وَلَـــمْ يَـــبْقَ نِقْـــيٌ فِـــي سُلاَمَـــى وَلاَ صُلْبِ . [2]

و (السُّلاَمَى ، ... عَظْمٌ في فِرْسِنِ البعير ، وَعِظَامٌ صِغَارٌ طولُ إصْبَع أو أَقَـــلُّ في الْيَـــدِ وَالرِّجْل) [٣] .

و(الصُّلْب : فَقار الظَّهْر . وفي التنـــزيل العزيز : [**يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**] {**الطَّارق:٧**} ، ويُقال : هو من صُلْب فلان : من ذُرِّيَتِه . وفي التنـــزيل العزيز :[**.. وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ**] {**النساء : ٢٣** }) . [٤]

ومعنى البيت السَّابق أنَّ جريرًا يفتخر على الأخطل بأنَّهم يكرمون الضُّيوف حَتَّـــى في أضيق الظروف حين يشتد الجوع ، وتضعف الأصلاب والأصابع . وفي اســـتخدام جريـــر لهاتين اللَّفْظَتَيْن ما كشف عن مراده بوضوح ، وقوَّى من فخره أمام خصمه .

- **الْـــعَـــظْـــمُ :**

وقد استخدم جرير لفظة (العَظْم) ، مُفْرَدَةً مرَّتَيْن ، حيث كانت في الأولى مضافةً إلى كاف الْخِطَاب (عَظْمُك) ، وفي الثَّانيـــة مضـــافة إلى (نـــا) الدالَّـــة علـــى الْفَـــاعِلِين (عَظْمُنَا) .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

[٢] النِّقْيُ : المخ .

[٣] القاموس المحيط ، باب الميم ، فصل السِّين ، ص ١١٣٤ .

[٤] المعجم الوسيط ، ٥١٩/١ .

قال جرير [١] :

وَ إِذَا وَطِئْـــتُـــكَ يَـــا أُخَـــيْطِـــلُ وَطْـــأَةً

لَـــمْ يَـــرْجُ عَـــظْـــمُكَ بَـــعْـــدَهُنَّ جُـــبُورَا .

وقال كذلك [٢] :

إِنَّـــا ، وَأُمِّـــكَ ، مـــَا تُـــرْجَـــى ظُلاَمَتُنَا

عِـــنْـــدَ الْـــحِفَـــاظِ ، وَمـــَا فـــي عَظْمِنَا خَوَرُ . [3]

فكلمة (عَظْمُكَ) في البيت الأول دَلّتْ على الضَّعْف والهزيمة لأنَّ انكســـار العظْـــم يوحي بذلك .

وأما كلمة (عَظْمُنَا) في البيت الثَّاني فقد وظّفَها جرير لتدلّ على القوَّة والصَّلابة .

- **الـــرِّجْـــلُ :**

وقد استخدم جريرٌ كلمة (الرِّجْل) مضافةً إلى هاء الغائبة (رِجْلهَا) ، وفي بيت آخر عبَّر عن الأَرجُل بـــ (القوائم) .

قال جرير [٤] :

وَمَـــقْـــتُوْلَةٍ صَـــبْـــرًا تَرَى عِـــنْدَ رِجْلِـــهَا

بَـــقِيـــرًا ، وَأُخْـــرَى ذَاتُ بِنْـــتٍ تُـــوَلْـــوِلُ . [5]

وقال كذلك ، يهجو أُمَّ الأخطل [٦]:

تَـــظَـــلُّ الْـــخَـــمْـــرُ تَـــخْـــلِـــجُ أَخْدَعَيْهَا

وَتَشْـــــكُـــو فِـــي قَـــوَائِمِـــهَا امْـــذِلاَلاَ . [7]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٧٠ .

[٣] الْحِفَاظ : ما يجب أن يُحَافظ عليه ، والمراد عند القتال .		الْخَوَرُ : الضَّعْفُ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ٦٨ .

[٥] بقيرًا : الجنين الذي بُقِرَ بطن أمِّه وسقط عند رجليها .

[٦] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٦ .

[٧] امذلالا : استرخاءً في الرِّجْلَيْن .

فقد صوَّرَ لنا جريرٌ باستخدام اللَّفظتَيْن السَّابِقَتَيْن الحالة المزرية ، والوضع المؤلم لِلرِّجْـل في الموقِفَيْن السَّابِقَيْن .

- **الْجِـلْـدُ :**

قال جرير (1) :

تَـسَـرْبَـلُوا اللُّـؤْمَ خَـلْقًا مِـنْ جُـلُودِهِمُ

ثُـمَّ ارْتَـدَوْا بِـثِـيَابِ الْـلُّؤْمِ وَاتَّـزَرُوا .

فقد استخدم جريرٌ لفظة (جُلُودهم) لتفيد شمول اللؤم لكلِّ جزء من جسم التَّغلبِـيِّ ، فلا يمكن أن ينفك اللؤم عن أولئك القوم أبدًا .

- **الـشِّلْـوُ :**

قال جرير (2) :

لَـوْلاَ الْـخَلِيْـفَةُ ، يـَا أُخَـيْـطِلُ ، مَا نَجَا ،

أَيَّـامَ دِجْـلَـةَ ، شِـلْـوُكَ الْـمَأْكُـولُ .

و (الشِّلْو بقيَّة الجسد) . (3)

فتعبير جرير بـ (الشِّلْو) يدلُّ على أنَّ الأخطل كاد يصل بـه الحـال إلى درجـة الهلاك ، و لم يبق منه إلاَّ بقيَّة من جَسَدِه حفظها له الخليفة .

ب- أَلْفَاظٌ لِبَعْضِ الأماكنِ والمواضعِ في نَقْضِ جريرٍ شِعْرَ الأخطل :

لقد رأيتُ أنَّ جريرًا أكثَرَ من ذِكْرِ الأماكنِ والمواضع في نقْضِهِ شِعْرَ الأخطل ، وهـذا الأمرُ يوحي بأَنَّ الرَّجُلَ كان يملكُ مُقَوِّمًا مُهِمًّا من مقوِّماتِ شعراء النَّقائض أَلاَ وهو المعرفة المتعَمِّقَة بأسماء الأماكن والمواضع ، إِذْ لا يَخْفَى ما في ذلك – في الغالـب – مـن تـذْكير الشَّاعر خَصْمَهُ بتلك الأماكن التي حَصَلَتْ فيها المعارك والوقائع ، ومن ثَمَّ الوصول إلى قَهْر الخصْم بإجادة الهجاء من خلال التَّرْكيز على أماكن القتال ، وساحات الْـوَغَى ، أو مـن خلال الفخر بما حصل فيهـا مـن قَتْـلٍ للأعـداء ، وانتصـارات علـيهم ، وتمزيـق

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

(2) المصْدر السَّابق ، ص ١٨٦ .

(3) المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

للأعضاء ، والظَّفر بالغنائم ، واستخدام مُختَلَف أنواع الأسلحة المعروفة وقتئذٍ ، وتصوير ما حصل في تلك الأماكن من أحداث .

ومن جهة أخرى فإنَّ معرفة الشَّاعر بالأماكن ، والدِّيار ، والمواقع ، يُسَهِّلُ عليه أمْرَ المقدِّمات الطلليَّة وما فيها من ذِكْرٍ لِلظَّعائن والأماكن التي ذهبْنَ إليها أو مَرَرْنَ بها خلال الرِّحلة .

وقد ذكر جريرٌ ما يزيد على أربعين موْضِعًا في مَعْرِض نقضه شِعْرَ الأخطل ، سوف أذكر أكثرها إجمالاً ، ثمَّ أقوم بالتّعْليق متى دَعَتِ الضرورة إلى ذلك ، وفيما يخدم الموضوع تحاشيًا للإطالة الـمُمِلَّة وغير المفيدة .

ومن تلك الأماكن والمواضع التي ذكرها جرير : دَارَةُ الْجَأْبِ[1] ، وَرَهْبَى[2] ، والْمُلَيْحَةُ[3] ، والنَّقْبُ[4] ، والشَّرْعَبِيَّةُ[5] ، والدَّرْبُ[6] ، وَتُوْضِحُ ونَاظِرَةُ[7] ، وذُو الْبَيْضِ[8] ، ودُوَّارُ[9] .

---

[1] دَارَةُ الْـجَأْب : موضع بديار بني تميم ، انظر شرح ديوان جرير ، تاج الدِّين شَلَق ، ص ٧٦ ، و (الجأْب : ماء لبني هُجَيْم عند مَغْرَة) ، انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٠٩ .

[2] رَهْبَى : (خبراء في الصَّمان في ديار بني تميم) ، المصْدر السَّابق ، ص ١١٠ .

[3] (الْمُلَيْحَةُ : موضع في بلاد بني تميم) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[4] النَّقْب : (قرية باليمامة لبني عدي بن حنيفة) ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٣٧٦هـ ، ٢٩٨/٥ .

[5] (الشَّرْعَبِيّة : بالجزيرة من بلاد تغْلِب كانت بها وقعة بين سُليم وتغلب) ، انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

[6] (الدَّرْب : درب الرُّوم وهو مضيق في الجبل صعْب المسْلك) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[7] تُوْضِح : ((كثيب أبيض من كثْبان حُمْر بالدهناء قرب اليمامة)) ، معجم البلدان ، ٥٩/٢

وناظرة : ((بالظاء المعجمة ، بلفظ اسم الفاعل المؤنث من نظر : جبل من أعلى الشَّقيق ، وقال ابن دُريد : موضع أو جبل ...)) ، المصْدر السَّابق ، ٥ / ٢٥٢ .

[8] (ذُو الْبَيْض : جبل رملٍ في الدَّهناء) ، نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .

[9] (دُوَّار : ماء لبني أُسيد بن عمرو بن تَمِيم بجُرَاد التي هي ماءٌ في ديار بني تميم) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

والنَّقِيعَـــةُ[1] ، وَأَعْيَـــارُ[2] ، وذُو بَهْـــدَى[3] وَالأَحْقَـــافُ[4]، وَطِخْفَـــةُ[5] ، وذُو نَجَـــبٍ[6] ، وَمَـــارِدِين[7] ، وَالْوَرِيْعَـــةُ[8] ، والْمَقَـــادُ[9] ، والسَّـــلَوْطَحُ[10] ، وَعَاجِنَةُ الرَّحُوبِ[11] ، والرَّحُوبُ[12] ، وَحَضَنٌ[13]،وَمُخَاشِنٌ[14]، وَذُو الْمَجَـــازِ[15]،

---

[1] (النَّقِيعَةُ : خبراء بين بلاد بني سَليط وضبَّة) ، نقائض جرير و الاخطل ، ص ١٤١ و (النَّقِيعَةُ : في في ناحية خطٍّ بني ضبَّة خبراوات يستنقع فيها الماء بِلَببِ الدَّهناء الأعلى) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[2] (أَعْيَار : قارات لبني ضبَّة جبال صغار) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصَّفحة .

[3] ذُو بَهْدَى : موضع كانت فيه وقْعة . المصْدر السَّابق ، ص ١٧١ .

[4] (الأحقاف : ديار عاد ... هي رمالٌ بظاهر بلاد اليمن كانت عـــاد تنـــزل بهـــا) ، المصْـــدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[5] طِخْفَة : ((موضع بعد النباج وبعد إِمَّرَة في طريق البصرة إلى مكة ، وفي كتاب الأصمعي : طِخْفَة جبل أحمر طويل حذاءه بئار و منهل)) ، انظر معجم البلدان ، ٤ / ٢٣ .

[6] (ذو نَجَبٍ : وادٍ لمحارم وله يوم مشهور) ، شرح ديوان جرير ، تاج الدِّين شَلَق ، ص ٢٨٠ .

[7] (مَارِدِين : حِصْنٌ بالجزيرة) ، نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

[8] (الْوَرِيعة : ماء لبني يربوع أو جبل بناحية الدّوِّ) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٠ .

[9] المقاد : (طريق الوريعَة مَن أمَّ فيه القبلة فهو مُصْعِد ، ومَنْ أمَّ العراق فهـــو منْحـــدر) ، المصْـــدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[10] (السَّلَوطَح : موضع بالجزيرة) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٥ .

[11] (عَاجِنَة الرَّحوب : موضع كانت فيه وقعة بين قيس وتغْلب) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٧ .

[12] (الرُّحُوب : موضع بـــالجزيرة وهـــو مـــاء لـــبني جشـــم بـــن بكـــر رهـــط الأخطـــل) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٦ .

[13] (حَضَن : اسم جبل في أعالي نجد ، وفي المثل السَّائر أَنْجَدَ مَنْ رأى حضنًا أي مَنْ عاين هذا الجبل فقد دخل ناحية نجد) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[14] (مُخَاشِن : جبل مشرف على البِشْر وهما بديار بني تغْلب) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[15] (ذُو الْمَجَاز : أحد أسواق العرب) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٨. و (ذو المجاز : مكان بالطائف كانت تقام به سوق موسميّة) ، شرح ديوان جرير ، تاج الدِّين شلق ، ص ٥٢٩ .

وَذَاتُ الْعُشَرِ[1] ، وقَوّ[2] ، وأَوَالُ[3] ، وَشَطِبٌ[4] ، وذُو بَقَرٍ[5] ، ورُمَاحٌ[6] ، والسِّــتَارُ[7] ، والسِّتَارُ[7] ، وغيرها.

- **الشَّرْعَبِيَّةُ وَالدَّرْبُ :**

قال جرير هاجيًا الأخطل [8] :

أَلَــمْ تَــرَ قَــيْــسًا قَيْسَ عَيْلاَنَ دَمَّــرَتْ

خَــنَازِيــرَ بَــيْــنَ الشَّــرْعَبِــيَّــةِ والــدَّرْبِ .

إنَّ هذين الموقِعَيْن مَكَّنا جريرًا من أن يُذَكِّرَ الأخطلَ بالمعركة التي دارت رحاهــا بــين القيسيِّين والتَّغلبيِّين حيث دُمِّرَت قوة تغْلِب .

- **تُوْضِحُ ونَاظِرَةُ :**

قال جرير [9] :

وَقَــدْ أَبْكَــاكَ حِــيْنَ عَــلاَكَ شَــيْبٌ

بتُوضِــحَ أَوْ بنَــاظِرَةَ الــدِّيَارُ .

إنَّ جريرًا بكى حين تذكَّر أحباءه برؤية آثار تُوضِــحَ ونَــاظِرَة علــى رغــم كِبَــره وهرمه ، فلولا هذان الموضِعان لَمَا تَذَكَّر أحبته .

---

[1] (ذاتُ العُشَر : بِبَطْن فَلْج يفضي منها إلى الدَّهناء بينها وبين الدهناء أميال) ، انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩١ .

[2] (قَوّ : وادٍ بالعقيق عقيق بني عقيل بين النباج و عوسجة) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[3] (أوال : جزيرة بالبحرين) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[4] (شَطِب : جبل في بلاد بني تميم) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[5] (ذو بَقَر : قرية في ديار بني أسد) ، المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[6] (رُماح : قال عُمارة رُماح بأرض بني ربيعة بن مالك بن زيــد منــاة بــني تمــيم) ، المصْــدر السَّابق ، ص ١٩٣ .

[7] (السِّتَار : جَبَلٌ بالْحِمَى) ، المصْدر السَّابق ، ص ١٨٠ .

[8] المصْدر السَّابق ، ص ١١٣ .

[9] المصْدر السَّابق ، ص ١٣١ .

ومِمَّا يعزِّزُ التَّقارب بين مقدِّمات القصائد الجاهلية ، والقصائد في العصر الأمـــوي أنَّ (تُوْضِحَ) ذكرها امرؤ القيس في معلقته ، حين قال [١] :

فَتُـــوْضِـــحَ فَـــالْـــمِقْرَاةِ لَـــمْ يَعـــْفُ رَسْـــمُهَا

لِـــمَا نَـــسَجَـــتْهَا مِـــنْ جَـــنُوبٍ وَشَمْـــأَلِ .

- **ذُو بَهْدَى والأَحْقَافُ :**

قال جرير [٢] :

هَـــلْ تَعْرِفُـــونَ بِـــذِي بَهْـــدَى فَوَارِسَـــنَا

يَـــوْمَ الْهُـــذَيْـــلُ بِأَيْـــدِي الْقَـــومِ مُقْتَـــسَـــرُ . [3]

إِنَّ الْهُـــذَيْلَ بذِي بَـــهْدَى تَـــدَارَكَـــــهُ

لَـــيْـــثٌ إِذَا شَـــدَّ مِـــنْ عَادَاتِـــهِ الظَّـــــفَرُ .

كَانَـــــتْ بَنُـــو تَغْلِبٍ – لاَ يَعْلُ جَدُّهُمُ –

كَالْمُهْـــلَكِيـــن بِـــذِي الأَحْقَـــافِ إِذْ دَمَـــرُوا . [4]

يُذَكِّرُ جريرٌ خَصْمه الأخطل بموضع ذِي بَهْدَى الذي انتصر فيه القيسيُّون على التَّغلبيِّين وأسروا الْهُذيلَ التَّغْلِبِيَّ وقهروه .

ويذكِّر التَّغلبيِّين بالهلاك الذي حصل لقوم عاد في الأحقاف ، وأنَّ ما حصـــل لهـــم في موضع ذي بَهْدَى هو أشبه بتدمير عاد في الأحقاف .

---

[١] ديـــوان امـــرئ القـــيس ، تحقيـــق حنـــان الفـــاخوري ، دار الجيـــل ، بـــيروت ، لبنـــان ، ط١ ، ١٤٠٩هـــــ ، ص ٢٦ .

[٢] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧١ .

[٣] الْهُذَيْلُ : ابن هبيرة التَّغْلبي .	مُقْتَسَرُ : مَقْهور .

[٤] لا يَعْلُ جَدُّهُمُ : يدعو عليهم أي لا عَلا جَدُّهم .

- **ذُو الْبَيْضِ ودُوَّارُ :**

قال جرير في مقدمة قصيدة له[١] :

إِذَا أَقُــولُ تَرَكْــتُ الْجَــهْــلَ هَيَّجَــنِــي

رَسْــمٌ بذِي الْبَيْــضِ أَو رَسْــمٌ بِــدُوَّارِ .

فكلما أراد جرير أَنْ يترك الْهَوَى تَذَكَّرَ أحبابه بأطلال ذِي الْبَــيْضِ ودُوَّارِ ، فلــولا أطلال هذين الموضِعَيْن لَمَا عاد إلى الجهل والهوى .

- **النَّقِيْعَةُ وَأَعْيَارُ :**

قال جرير[٢] :

هَلْ بِالنّــَقِيــعَةِ ذَاتِ السِّــدْرِ مِنْ أَحَــدٍ

أَوْ مَنْبِــتِ الشِّيْــحِ مِنْ رَوْضَــاتِ أَعْيَــارِ .[3]

تَذَكَّر جرير بالنَّقِيعَةِ وَأَعْيَارِ أحبتَه ، ومعرفته بــالمواقع زادت مــن قدراتــه الشــعريَّة المبْدِعة ، وتوظيفه لأسماء الأماكن أكْسَب شِعْرَه القوَّة والرَّصَانة .

- **السَّلَوْطَحُ وَالْفُرَاتُ وَمُخَاشِنٌ وَحَضَنٌ وَدِجْلَةُ وذو الْمَجَازِ :**

قال جرير مفتخرًا وهاجيًا [٤] :

وَغَــدَتْ هَــوَازِنُ بِالْــجُيُــوشِ وَأَنْــتُــمُ

بَيْــنَ السَّلَــوْطَــحِ وَالْفُــرَاتِ ، فُــلُــولُ .[5]

لَوْ أَنَّ جَمْــعَــهُــمُ غَــدَاةَ مُــخَــاشِــنٍ

يُــــرْمَــــى بِــهِ حَضَــنٌ لَكَــادَ يَــــزُولُ .

لَــوْلاَ الْخَــلِيــفَةُ يَا أُخَيْــطِلُ مَا نَــجــَا

أَيَّـــامَ دِجْــلَــةَ شِــلْــوُكَ الْــمَــأْكُــولُ .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٤١ .

[٣] السِّدْر و الشِّيْح : نوعان من النبات .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

[٥] فلول : الفُلُولُ بقايا الجيش .

وَكَــأَنَّ عَافِــيَــةَ النُّسُــورِ عَــلَــيْــهِمُ
حَــجٌّ بِأَسْــفَــلِ ذِي الْمَــجَــازِ نُــزُولُ . [1]

لقد ذَكر جريرٌ في الأبيات السَّابقة ، والتي هي جزء من إحدى نقائضه ، ستة أمـــاكن استطاع من خلالها أن يُقَوِّيَ الغرضَين الشِّعْريين اللَّذَين جـــاء ذِكْـــر تلـــك الأمـــاكن في سياقهما ؛ فموقع السَّلَوْطَح ، وموقع الْفُرَاتِ جاء ذكرهما في سياق فَخْرِه بِهوازن وهجائــه للتَّغْلِبيِّين الذين هُزِموا وكُسِرَت شوكتُهُم . فكان لذكرهما الأثر الواضح في تدعيم الأدعـــاء بالحِّجة والبرهان .

وأمَّا ذِكْرُ جرير لموقِعَي مُخَاشِنٍ وَحَضَنٍ فقد وردا في معرض فَخْرِه بـــالْجَمْعِ الحاشِـــدِ لجيش القيسيِّين ، ذلك الْجَمْعُ الذي تتهدَّم منه الجبال إذا تصدَّت له ، وتزول من أماكنها.

وَأَمَّا دِجْلَةُ فقد جاء ذكْره حين هجا جريرٌ الأخطلَ بأنَّه لولا نجدة الخليفة له في معارك دجْلة لهلك هلاكًا شديدًا .

وأما موقع ذي الْمَجَاز فقد وظَّفَهُ جريرٌ في سياق فَخْرِه بانتصار القيسيِّين على التَّغلبـــيِّين وما حصل مع ذلك الانتصار من قَتْل أعداد غفيرة من التَّغلبيِّين .

- **ذَاتُ الْعُشَر ، ورَهْبَى ، وَقَوّ ، وَأَوَالُ ، وشَطِبٌ ، وذُو بَقَرٍ ، ورُمَاحُ :**

قال جرير [٢] :

أَجَــدَّ الْيَــوْمَ جِيــرَتُــكَ احْــتِمَــالاَ
وَلاَ نَــهْــوَى بِــذِي الْعُــشَــرِ الزِّيَــالاَ . [3]
قِفَــا عُوْجَــا عَلَــى دِمَــنٍ بِرَهْــبَــى
نُــحَــيِّــي رَبْعَــهُــنَّ وَإِنْ أَحَــالاَ . [4]

---

[١] الْعَافِيَةُ من الطَّير والسِّباع التي تأتي الموتى لتأكل من لحومهم .

[٢] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩١ ، ١٩٣ .

[٣] أَجَدَّ : يُقال جَدّ وأجَدَّ في الأمر وهو جاد .   احتمالاً : ارتحالا .   ذي العُشَر : أراد أن يقول : ذات العُشَر فلم يتمكَّن بسبب الوزن .
الزِّيال : الفراق .

[٤] عُوْجا : مِيْلا .   دِمَنٍ : ما تبقى من أطلال .   أحالا : أتى عليه حَوْلٌ .

وَشَـــبـــَّـهْـــتُ الْـــحُـــدُوجَ غَـــدَاةَ قَـــــوٍّ
سَـــفِـــيـــنَ الْـــهِـــنْـــدِ رُوِّحَ مِـــنْ أَوَالاَ . [1]
جَـعَـــلْـــنَ الْقَصْــدَ عَنْ شَــطِــبٍ يَمِيــنًا
وَعَـــنْ أَجْـــمَـــادِ ذِي بَـــقَـــرٍ شِـــمَـــالاَ . [2]
وَفِـــي الأَظْـــعَـــانِ مِـــثْـــلُ مَـــهـَــا رُمَــاحٍ
نَصَـــبْـــنَ لَـــنَا الْمَـــصَـــايِدَ وَالْحِـــبـَــالاَ .

نلحظ هنا أنَّ جريرًا ذَكَرَ سبعةً من الأماكن في المقدِّمة الطَّلَلِيَّة وفي وصف الظَّعـــائن ، وهذا العدد الملحوظ من أسماء الأماكن في عددٍ متقارب من الأبيات في قصيدة واحدة يمثـــل غزارة عند جرير في جانب معرفته بالمواقع والأماكن ، ولولا هذه الغزارة لما ظَهَرَت تلـــك المقدِّمة في هذا القدْر من التَّمَاسُك ، وفي تلك الصُّورة البهيَّة من الجزالة والقوَّة ، وهنا يكون الإبداع عندما يتكشَّف لنا جرير عن شخصيّةٍ أقرب ما تكون إلى رَحَّالةٍ كبير أو جُغْرَافِـــيٍّ ماهر .

- **السِّتَارُ ، والْوَرِيعَةُ ، والْمَقَادُ :**

قال جرير [٣] :

أَيُقِـــيـــمُ أَهْـــلُـــكِ بالسِّـــتَـــارِ وَأَهْـــلُـنَـــا
بَيْـــنَ الْوَرِيْـــعَـــةِ وَالْـــمَـــقَـــادِ حُـــلُـــولُ .

جاء هذا البيت في المقدِّمة الطَّلَلِيَّة لإحْدى نقائض جرير ، وقد ضَمَّنَه ذِكْر ثلاثة مواضع استطاع من خلالها أن يُقرِّب الصورة لحبيبته ، تلك الصورة التي لايمكن معها أن ينساها فهي باقية في قلْبه ما بَقِيَتْ آثار تلك الطلول .

* * *

(١) الحُدُوج : جمعُ حِدْج وهومركب للنساء .
(٢) أجْمَاد : الأراضي الصُّلْبة .
(٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٠ .

● **دَارَةُ الْجَأْبِ ، وَالْمُلَيْحَةُ ، والنَّقْبُ :**

قال جرير في مُقَدِّمَةٍ طَلَلِيَّةٍ لإِحْدى نقائضة[1]:

أَصَاحِ أَلَيْــسَ الْيَــوْمَ مُنْتَظِــرِي صَحْبِــي
نُحَــيِّي رُسُــومَ الْحَــيِّ مِنْ دَارَةِ الْــجَــأْبِ .
وَمَــاذَا عَلَيْــهِــم أَنْ يَعُوجُــوا بِــدِمْنَــةٍ
عَــفَــتْ بَيْــنَ أَنْقَــاءِ الْمُلَيْحَةِ والنّــَقْبِ . [2]

نرى جريرًا كعادته في أغلب مقدماته الطَّلَلِيَّة يكثر من ذكْر المواضع والأماكن فهــو في البيتَيْن السَّابقَيْن يذكر ثلاثة من المواضع التي يتذكَّر من خلالها أحبته .

جــ- أَلْفَاظُ الْحَرب في نَقْض جرير شعر الأخطل :

لا يمكنُ أنْ يُتَصَوَّر أَنْ يخْلوَ شِعْرُ شاعرٍ اتَّخذَ من غَرَضَي الهجاء والفخر أساسًا ينطلــق منه في نظم قصائده ، من ذِكْرٍ للانتصارات ، وإشادةٍ بالمعارك والبطولات ، وإذكاءٍ لِلثَّارات والعصبيات ، ومن صَبْغِ أبياته بلون الدَّم ، وَتَحْليتها بأدوات الحروب ، وبأشلاء الْقَتْلَــى ، وبصليل السّيوف ، وصهيل الخيول ، ويتأكَّد ذلك إذا كان هذا الشَّاعِر هو أحــد شــعراء النَّقائض التي ما كانت لتقوم إلاَّ على أيَّام العرب وحروبــهم وعصبياتــهم .

((كان الشِّعْر حربًا أدبيَّة تُساير هذه الحروب المادِّيَّة ، وكما كانــت أدوات الحــرب المادِّيَّة مُتشابــهة مُتناقضة ، فكذلك فنون هذا الشِّعْر متشابــهة مُتَنَاقضة ...)) . [3]

وإذا كان مِنْ شعراء النقائض مَنْ ظَفِرَ بنصيب الأسد واستحوذ على أكْثَر التَّرِكة ، فلن يكون ذلك إلاَّ لجرير . كيف لا وهو الشَّاعر الذي لم يصمد أمــــامه ســوى الفــرزدق والأخطل ، وقد نالهما منه الشيء الذي لا نحسدهما عليه .

إنَّ الْـمُتَأَمِّلَ في قصائد جرير التي نقض بها قصائد للأخطل يجــد – لا محالــة – أنَّ الحرب حاضرةٌ حضورًا قويًّا ، وأنَّ أدواتها لا يمكن أن تخلوَ منها نقيضــة مــن نقائضــه ، فالشُّعْثُ العوابس ، والأبطال الذين تحملهم ، والفرســان الأقويــاء ، وســيوف الهنــد ،

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

[2] أنقاء : جمع نقا للقطعة المحدودبة من الرَّمل الأبيض .

[3] تأريخ النقائض في الشِّعر العربي ، ص ٣٩ .

والرُّدَينيَّات ، وجُثث الْقَتْلَى ، ورَهَج المعارك ، وصلصلة اللُّجُمِ ، كلها علامات مُمَيِّزَة لتلك النقائض ، وقد قمتُ هنا بتصنيفها وترتيبها على النَّحو التَّالي :

١- كلمة (الحرب) في نقْض جرير شِعْر الأخطل .

٢- كلمة (الْقَتْل) في نقض جرير شعر الأخطل .

٣- أدوات الحرب في نقض جرير شعر الأخطل .

٤- ألفاظ متفرِّقَة من جوِّ الحرب في نقض جرير شِعْر الأخطل .

* * *

١-كلمة (الْحَرْب) في نقْض جرير شِعْر الأخطل :

وردت هذه الكلمة في قصائد جرير التي ينقض بها شِعْر الأخطل ما يزيد على تسع مرّات في صُوَرٍ مختلفة ، فكانت مُعَرَّفة بـ (ال) أربع مرَّات في أربعة أبيات مختلفة ، الأَوَّل قول جرير[1] :

جَزِعْــتَ ابْنَ ذَاتِ الْفَــلْسِ لَمَّــا تَدَارَكَــتْ

مِــنَ الْحَــرْبِ أَنْــيَابٌ عَلَيْــكَ وَكلْــكــلُ .

والثاني قوله[2] :

لَعَــلَّــكَ يَا خِنْــزِيــرَ تَغْــلِــبَ فَــاخِــرٌ

إِذَا مُضَــرٌ مِنْــهــا تَســامَى بَنُــو الْحَــرْبِ .

والثَّالث قوله[3] :

إِذَا صَدَعَــتْ قَيْــسٌ وَخِنْــدِفُ بَيْنَــهــا

عَصَا الْحَرْبِ مَا أَوْضَعْــتَ فِيْهــا مَعَ الْكَــرْبِ .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٦ .

[2] المصْدر السَّابق ، ص ١١٣ .

[3] المصْدر السَّابق ، نفس الصفحة .

والرابع قوله[١] :

أَخُــوكُــمْ يَا تَمِــيْــمُ وَمَــنْ يُحــَامِــي

وَأُمُّ الْــحَــرْبِ مُــحْــلِــبَــةٌ نَــوَارُ. [2]

واستخدم جريرٌ كلمة (حَرْب) ، مُعَرَّفة بإضافتها إلى (قيس) ، في قوله [٣] :

وَقَدْ قَذَفَــتْ مِنْ حَرْبِ قَيْــسٍ نِسَاؤُكُــم

بِأَوْلادِهَــا مِنــْهَــا بَقِــيــرٌ وَمُعْــجَــلُ.

وفي قوله[٤] :

أَلَمْ تَــرَ يَا أُخَيْــطِــلُ حَــرْبَ قَيْــسٍ

تُمِــرُّ إِذَا ابْتَــغَــيْــتَ لَهــَا الْعِــدَالاَ . [5]

واستخدم جرير كلمة (حَرْب) ، مضافة إلى ياء المتكلم ، في قوله[٦] :

تَصَــلَّيْــتَ بِالنَّارِ الَّتِي يَصْــطَــلِي بِهَا

فَأَرْدَاكَ فِيْــهــَا وَافْتَــدَى بِــكَ مِنْ حَــرْبِي .

ومضافة إلى الضمير (هم) ، في قوله[٧]:

وَإِذَا مُنِيْــتَ بِــخَيْــلِ قَيْسٍ لَــمْ يَــزَلْ

أَبَــدًا لِحَــرْبِــهِــمُ عَلَــيْــكَ دَلِــيْــلُ . [8]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٢ .

[٢] مُحْلِبَةٌ : أحْلَبَ القومُ اجتمعوا للنُّصْرَة والإعانة .		نَوَارُ : مُهْلكة .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ٦٧ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٧ .

[٥] تُمِرُّ : من المرارة .

[٦] المصْدر السَّابق ، ص ١١٤ .

[٧] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٥ .

[٨] مُنِيتَ : ابْتُلِيتَ .

واستخدم جرير الفعل المضارع (يُحَاربُ) ، في قوله [١] :

سَيَــعْــلَــمُ مَنْ يُــحَــارِبُ أَنَّ قَيــْســـًا

صَنـــَـادِيْـــدٌ لَهُـــمْ لُجَـــجٌ غِـــمَــارُ . [2]

* * *

٢-كلمة (الْقَتْل) في نقض جرير شِعْرَ الأخطل :

استخدم جرير لفظة (الْقَتْل) في نقضه شعر الأخطل ما يقرب من ستٍّ مرَّات في صُوَرٍ شَتَّى ، منها : الفعل الماضي (قَتَلَ) ، في قوله [٣]:

لَقَــدْ قَتَــلَ الْجَــحَّــافُ أَزْوَاجَ نِــسْــوَةٍ

يَقُــودُ ابــنُ خَــلاَّسٍ بِهِــنَّ وَعَــزْهَــلُ . [4]

وفي قوله [٥] :

أَنَســِيـــتَ مَا قَتَــلَ الْمُـــهَــزَّمُ مِنْكُـــمُ

وَابْـــنُ الْحـــُـبــابِ ، وَشَـــَـرَّدَا وَأَذَالاَ . [6]

ومنها (الْقَتْلَى) ، كما في قوله[٧] :

فَمـَـا زَالَــتِ الْقَتْــلَى تَمُــورُ دِمَاؤُهــَا

بِدِجْــلَــةَ حَــتَّــى مَاءُ دِجْلَــةَ أَشْــكَــلُ . [8]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٢ .

[٢] صناديد : المفرد صنديد وهو الرَّجُل الشُّجاع .

لُجَجٌ غِمَارُ : كناية عن كثرة الجنود في القتال .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ٦٧ .

[٤] ابن خَلاَّس وعزْهَل : ابنا عَمٍّ من تَغْلِب .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ٩٥ .

[٦] الْمُهَزَّمُ : هو عمار بن المهزم السُّلَمي قُتل بالشَّرْعبيّة . انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٧] المصْدر السَّابق ، ص ٦٨ .

[٨] تَمُورُ : تَجْرِي .   أَشْكَلُ : الأَشْكَلُ الذي تخالطه حُمْرة .

ومنها المصدر (قِتَال) ، كما في قوله [(١)] :

قَـــالَ الأُخَيْـــطِـــلُ إِذْ رَأَى رَايَاتِـــنـَــا :

يَا مَارسَـــرْجِـــسَ لاَ نُرِيـــدُ قِتَـــالاَ .

ومنها اسم المفعول المتَّصِل بتاء التأنيث للغائبة (مقتولة) ، كما في قوله [(٢)] :

وَمَـــقْـــتُـــولَةٍ صَـــبْـــرًا تَرَى عِنْدَ رِجْلِهَـــا

بَقِيـــرًا ، وَأُخْرَى ذَاتُ بِنْـــتٍ تُـــوَلْـــولُ .

* * *

٣-أَدَوَاتُ الْحَرْبِ فِي نقْض جريرٍ شِعْر الأخطل :

ذكر جريرٌ في نقْضِهِ شِعْرَ الأَخْطل أدواتٍ حربيَّة لا يمكن أن تقوم الحرب بدونها ؛ فقد أَكْثَرَ من ذِكر الخيل سواءً كان ذكْره لها تصريحًا أو تلميحًا .

ولا نستغرب منه أن يُكْثِر من ذكرها فالخيل من أهم الأدوات التي لا يمكن أن تقـــوم حربٌ في ذلك الزَّمان بدونها ، ثم أَكْثَرَ – كذلك – من ذكْر الفرسان ، وهم الأبطال الذين يسوسون تلك الخيول ، وهم الأداة المهمَّة التي لولاها لما قامت حـــرب ، ثمَّ لاحظـــت أنَّ جريرًا ذكر الرِّماحَ ونَوَّعَ في ذكْرها ، كما نوّعَ في ذكر السُّيوف وهي أهم أدوات الحروب التي يستخدمها المحاربون وقتئذٍ إلى جانب استخدامهم للرِّماح والنبال وغيرها .

فأمَّا لفظة (الْخيْل) ، فقد جاءت مُعَرَّفةً بـــ (ال) ، في قول جرير [(٣)] :

أَوْ مِثْـــلِ آلِ زُهَيْـــرٍ وَالْقَـــنَا قِصَـــدٌ

وَالْخَـــيْـــلُ فِي رَهَـــجٍ مِنْهَـــا وَ إِعْصَـــارِ . [(4)]

وقد عبَّر جرير هنا بالخيل كمقوّم أساسي من مقومات الحرب ، فالخيل هنا تتحـــرّك حركات سريعة تحت الأبطال وكأنـــّها تَغْلِي أو كأنَّها الإعصار متشوقةً إلى القتال .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٠ .

(٢) المصْدر السَّابق ، ص ٦٨ .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ١٤٥ .

(٤) آل زهير : زُهَير بن جَذيمة بن رواحة العبْسيّ صاحب داحس و الغبراء . القنا : الرماح . قِصَدٌ : مُتَحَطِّمَة ومتكسرة من شِدَّة الضرب بها . رَهَج : غليان .

وفي قوله [١] :

أَوْ هَاشِمٌ يومَ قَادَ الْخَيْلَ مُعْلِمَةً

فِي جَحْفَلٍ كَسَوادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ . [2]

والخيلُ لا يقودها إلاَّ فارسٌ مدَّربٌ ، ولهذا قال جرير : (قاد الخيل) ، وهذه القيادة إنَّما كانت في ذلك الجيش العظيم الذي يسير بطيئًا بسبب كثرته .

وفي قوله [٣] :

قَادَ إِلَيْكُمْ صُدُورَ الْخَيْلِ مُعْلِمَةً

تَغْشَى الطِّعَانَ ، وَفِي أَعْطَافِهَا زَوَرُ . [4]

وهذه الخيل تتقدَّم فوق الأهوال ولا تخشى شيئًا .

وأما إذا لم يذكر جرير (الخيل) معرفةً بـ (ال) ، فقد لاحظْتُ أنَّه إذا عَرَّفَهَا بالإضافة فإنَّما يُعَرِّفُها بإضافتها إلى (قيس) ، كما في قوله [٥] :

لَقَدْ لاَقَى الأُخَيْطِلُ خَيْلَ قَيْسٍ

فَأَبْرَحَ يَوْمُهُنَّ بِهِ وَطَالاَ . [6]

وكما في قوله [٧] :

وَلَقَدْ شَفَتْنِي خَيْلُ قَيْسٍ مِنْكُمُ

فِيْهَا الْهُذَيْلُ ، وَمَالِكٌ ، وَعَقِيْلُ . [8]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٥ .

[٢] هاشم : هو هاشِمُ بن حَرملة بن الأَسْعَر .   معلمَة : قد أُعلِمَتْ بعلامات تُعرف بها .
الجَحْفَل : الجيش الكثير .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٧٤ .

[٤] وفي ديوان جرير : (قادوا إِلَيْكُمْ ...) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٦ .

[٦] أبْرَحَ : أَعْظَمَ .

[٧] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٥ .

[٨] الهُذَيلُ وَمَالِكٌ وَعَقِيلُ : من الفرسان القيسيِّين .

وَإِذَا مُنِيْــتَ بخَيْــلِ قَيْــسٍ لَــمْ يَــزَلْ
أَبَــدًا لِحَــرْبـِـهِـــمُ عَلَــيْـــكَ دَلــِيْـــلُ .

إنَّنا نلْحــظ أنَّ جريــرًا – وفي بيتَــيْن متتــاليين – أضــاف لفظــة (خيــل) إلى (قيس) ، وكأنَّه يريد أن يزيد من شرف الخيل بإضافتها إلى قومه القيسيِّين .

وقد نوَّع جريرٌ في استخدامه لِلَفْظة (الخيل) ، فأضافها إلى الضمائر - أحيانًا – كما في قوله [١] :

حَمَــلَــتْ عَلَــيْـــكَ حُمَاةُ قَيْسٍ خَيْــلَهَا
شُعْــثــًا عَوَابـِـسَ تَحــْـمِــلُ الأَبْــطَــالاَ .

وكما في قوله [٢] :

لَقَــدْ أَوْرَدَتْ قَيْـــسٌ عَلَــيْــكَ خُيُولَــهَا
مَصَــاعِيــبَ هَدَّمْــنَ الْحِيــَاضَ الَّتِي تَجْبــي . [3]

وربَّما كَنَّى جريرٌ عن الخيل بمثل قوله في البيت السَّابق : (شُعْثًا عَــوَابِس) ، وكمــا في قوله [٤] :

عُقَــابُ الْمَنــَايَا تَسْــتَدِيــرُ عَلَــيْهِــمُ ،
وَشُعْثُ النَّــوَاصِــي لُجْمُهــُـنَّ تُصَــلْصِــلُ . [5]

وقد استخدم جريرٌ كنايةً أخرى عن الخيل ، كما في قوله[٦] :

وَإِذَا الدُّعــَاءُ عَلاَ بِقَيْــسٍ أَلْجَـــمُــوا
شُعــْـثــًا عَوَابــِسَ كَالْقـــُـنــِيِّ ذُكُــوراَ .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٩ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١١٣ .

[٣] مصاعيب : جمع مُصعَب وهو ضد الذَّلول . تَجْبي : تجمع فيها الماء .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ٦٨ .

[٥] عُقاب المنايا : راية المنايا . شعث النَّواصي : كناية عن الخيل المتفرقة الشَّعر بسبب شدة المعركة. تصلصل : الصَّلصلة الصَّوت القوي .

[٦] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٤ .

والعوابس هي الْكَالِحَة من هول المعارك ، و الذُّكور هي قطع من الفولاذ تُزاد في رأس الفأس أو السَّيف .

وَمِمَّا يدلُّ على اعتداد جرير بخيول قيس أَنَّه أضْفى عليهــا صــفات مــن الجمــال ، والحسن ، كما في قوله[١] :

جَاءَتْ سَوَابِــقُـــنَــا غُــرًّا مُــحَــجَّــلَةً

إِذْ لَيْــسَ بِالنَّــاسِ تَحْــجِــيْــلٌ وَلاَ غُــرَرُ .

فهي من سوابق الخيل ومن أشرافها ، وهي خيولٌ بها غُرَرٌ وتحجيلٌ ، ومعلوم أنَّ الغُـــرَّةَ بياضٌ في جبهة الفرس ، والتَّحجيل في قوائمها . فهي بذلك خيول مشهورة لا مثيل لها .

وَأَمَّا الفوارس ، وهم أهم أداة من أدوات الحرب – كما سبق – فقد ذكرهم جريـــر كثيرًا ؛ وكان ذِكْرُه لِلَفْظَة (فارس) ، كما يلي :

أ- **صيغة منتهى الجموع :** (فَوَاعِل) بدون (ال) هكذا (فَوَارِس) ، كما في قوله[٢] :

مِنَّــا فَــوَارِسُ لَــنْ تَجِــيءَ بِمِثْلِــهِــمْ

وَبِــنَــاءُ مَكْــرُمَــةٍ أَشَــمُّ جَــزِيــلُ .[3]

وقوله[٤] :

مِنَّــا فَــوَارِسُ ذِي بَهــْــدَى وَذِي نَــجَب

وَالْمُعــْــلِمُــونَ صَبَاحــًا يَوْمَ ذِي قــارِ .[5]

ونلحظ تقديم جرير لِلْخبر (الجار والمجرور مِنَّا) ، وهذا التقديم فيــه مــا فيــه مــن التَّخْصيص ، وأنَّ هؤلاء الفوارس الأبطال قد خُصِّصَتْ قَيسٌ باحتضانـــهم دون سواها .

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٦٩ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٤ .

[٣] أَشَمُّ : طويل .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٣ .

[٥] يوم ذي قار : من الأيام المشهورة في الجاهلية .

ب- وربَّما استخدم جرير لفظة (فارس) مجموعةً على صيغة منتهى الجموع (فَوَاعِل) ومحلاَّة بـ (ال) ، هكذا (الْفَوَارِس) ، كما في قوله[1] :

إِنَّا بِطِـخْـفَـةَ أَوْ أَيَّـامِ ذِي نَـجَـبٍ

نِعْـمَ الْفَـوَارِسُ لَمـَا ابْتَـلَّتِ الْعُـذُرُ . [2]

جـ - واستخدام جرير هذه الصِّيغة مضافة إلى بعض الضمائر، كالياء في قوله [3]:

وَرَأَتْ حُسَـيْـنَةُ بِالْـعَـذَابِ فَـوَارِسِـي

تَسْـبِي النِّـسَاءَ ، وَتَقْـسِـمُ الأَنْفَـالاَ . [4]

ومثل (نا) الفاعلين في قوله[5] :

هَلْ تَعْرِفُـونَ بِـذِي بَـهْـدَى فَـوَارِسَنَـا

يَوْمَ الْهُـذَيْـلُ بِأَيْـدِي الْقَـومِ مُقْتَـسَـرُ .

واستخدم جرير كلمة (فارسًا) مُنَكَّرَةً في مثل قوله[6] :

إِذْ ظَلَّ يَحْسِـبُ كُـلَّ شَـخْـصٍ فَـارِسًـا

وَيَـرَى نَـعَـامَـةَ ظِـلِّـهِ فَيَـجُـولُ .

ولعلنا نلاحظ ما توحي به كلمة (فارسًا) من الذُّعر الذي أصاب الأخطل من الفرسان القيسيِّين ، لدرجة أنَّه أصبح يخاف من ظِلِّه .

هذا وقد رأيت تنويع جرير في تعبيره عن (الفرسان) بألفاظ أُخرى كلفظ (الأبطال) ، ولفظ (حُماة) ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

(٢) العُذُر : جمع عُذْرة وهي نواصي الخيل .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ٩٤ .

(٤) حُسَيْنَةُ : هي حسينة بنت جابر بن بُجَيْر ادَّعى أنَّها سُبِيَتْ . العذاب : مُسْتَرق الرَّمل حيث استرقّ وانقطع . الأنفال : غنائم الحرب .

(٥) المصْدر السَّابق ، ص ١٧١ .

(٦) المصْدر السَّابق ، ص ١٨٦ .

في قوله[١] :

حَمَـلَتْ عَلَيْـكَ حُمَـاةُ قَيْـسٍ خَيْلَهَـا

شُعْـثـًا عَوَابِـسَ تَحـْمِـلُ الأَبْطَـالاَ .

إنَّ جريرًا يُنوِّع في وصفه للفرسان من قومه ، فَهُم حُمَـاةٌ للـدِّيار ، وللأعـراض ، ولِلدِّمَاء ، وهم أبطالٌ أشدَّاء ، وهم قبل ذلك فرسانٌ يمتطون صهوات الخيول التي تقـتحم المعارك ، وهم – كما وصفهم في البيت التَّالي – كُمَاةٌ ، فقال[٢] :

نِعْمَ الْكُمَـاةُ إِذَا الصَّفَـايِـحُ جُـرِّدَتْ

لِلْبِيـضِ تَحـْتَ ظُبَـاتِهِـنَّ صَلِـيْـلُ . [3]

فهو يمدح الْكُمَاةَ من قومه ، و (الْكَمِيُّ : لابس السِّلاح والشُّجاع المقدام الجـريء ، كان عليه سلاح أو لم يكن .)[٤]

وَأَمَّا حديث جرير عن السُّيوف والرِّماح ، وهي من الأدوات المشـهورة في الحـروب قديمًا ، فقد كان حديثًا يبعث الحماسة والقوَّة ، وكان في ذِكْره لِلسُّيوف تنويعٌ بين الجمْـع على صيغة جمع القلَّة (أَفْعَالٌ) كقوله : (أَسْيَافٌ) ، أو الجمْع على صيغة جمـع التَّكْسـير (فُعُولٌ) ، كقوله : (سُيُوفٌ) ، ومن ذلك قوله[٥] :

فَـإلاَّ تَعَـلَّـقْ مِـنْ قُرَيْـشٍ بِـذِمَّـةٍ

فَلَـيْـسَ عَلَـى أَسْـيَـافِ قَيْـسٍ مُعَـوَّلُ . [6]

فليس عند القيسيِّين أنصاف الحلول أو المحاباه أو الهوادة .

ونلاحظ إضافة (أَسْـيَاف) إلى (قـيس) في البيـت السَّـابق ، وهـذا يـذكرنا – فيما سبق – بإضافة الخيل إلى قيس (خيل قيس) ، أو إضافة (حماة) إلى (قـيس) ،

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٩ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٥ .

[٣] الصَّفايح : السُّيوف العراض . الظُّبات : جمع ظبَّةٍ وهي الأطراف الحادّة . صليل : صوت السُّيوف.

[٤] المعجم الوسيط ، ص ٧٩٩ .

[٥] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٩ .

[٦] مُعَّولُ : مُسْتَغَاثُ والعويل الاستغاثة .

(حماةُ قيسٍ) ، أو إضافة الحرب إلى قيس (حَرْبُ قيس) ، وفي بيــت آخــر (كتائــب قيس) ، وكأنَّ جريرًا بهذه الإضافات قد أفرد القيسيِّين دون ســواهم بحــروب مُمَيَّــزَةٍ ، وبخيول متفرِّدة ، وبسيوف لا كالسُّيوف ، وبحُمَاةٍ لا يُماثلهم حُمَاة ، وبكتائــب ليســت كالكتائب . وقال في بيت بعد البيت السَّابق[1] :

وَقَدْ شَــقَّــقَتْ يَــوْمَ الرَّحُــوبِ سُيُوفُنَــا

عَوَاتِــقَ لَــمْ يَثْبُــتْ عَلَــيْــهِنَّ مِحْــمَــلُ .

فهو استخدامٌ بصيغة (فُعُولُ) ، ونلحظ إتيان جرير بشيءٍ من لوازم السَّــيف وهــو الْمِحْمَل .

كما بالغ جريرٌ في وصف سيوف القيسيِّين بأنَّها من أجود أنواع السُّيوف وهي سيوف الهند ، فرأيتُ أنَّه يذكر – أحيانًا – (سيوف الهند) ، كما في قوله[2] :

فَــإِذْ لَــمْ تَصْــحُ نَشْــوَتُــكُــمْ فَذُوقُــوا

سُــيُــوفَ الْهِــنْــدِ وَالأَسَــلَ الــطِّــوَالاَ .

وقال في بيت آخر[3] :

أَفْنَــى الْمُلُــوكَ فَأَضْحَــوْا حَوْلَــهُ جَــزَرًا

بِــصَــارِمٍ مِــنْ سُــيُوفِ الْهِــنْــدِ بَتَّــارِ .

فإلى جانب ذِكْر جرير أجود أنواع السُّيوف ، (سيوف الهند) ، فقد رأيتُهُ قد أَمْعَنَ في تفصيل هذه الجودة وَالإلحاح عَلَيهَا بذكْره لفظَتَي (صارم) و (بتَّــار) ، فالصَّــارم هــو السَّيف القاطع الشَّديد القَطْع ، والبتَّار هو كذلك السَّيف القطَّاع ، ونلحــظ اســتخدامه بصيغة اسم الفاعل في (صَارِم) ، وصيفة المبالغة في (بتَّار) .

وأما الرِّماح فقد نوَّع جريــرٌ في ذكرهــا بأسمائهــا المتعــدِّدَة ، مثــل (القنــا) ،

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٩ .

[2] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٧

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٦ .

في قوله[١] :

أَوْ مِثْــلِ آلِ زُهَــيْــرٍ والْقَــنــَا قِــصَــدٌ ،

وَالْخَــيْــلُ فِــي رَهَــجٍ مِنْــهَــا وَإِعْصَارِ .

وقد وصفَ جرير القنا بأنها قِصَدٌ أي متكسِّرة بسبب الضَّرب والطِّعَان وشدَّة احتــدام المعركة .

وقال جرير في هجاء تغلب[٢] :

وَلَّــوْا ظُهــُــورَهُــمُ الأَسِنَّــةَ والْقَــنــَا

قُبْــحــًا لِتِلْــكَ عَوَاتِــقــًا وَظُــهُــورَا .

فإلى جانب ذكر جرير لِلْقَنَا ، نراه قــد ذكــر الأَسِــنَّة ، والأَسِــنَّةُ جَمْــعُ سِــنَانٍ (وَالسِّنَان : نَصْلُ الرُّمْحِ)[٣] .

فالتَّغلبيُّون من جُبنهم وهزيمتهم ولَّوا ظهورهم فارِّين فأصابت الأَسِنَّةُ ظهورَهُم .

وذكر جريرٌ (الرُّدَينيَّات) ، ومفردها الرُّدَيْنِيُّ ، وهو(الرُّمْح ، نسبةً إلى رُدَيْنَةَ ، وهي امرأةٌ كانت تُقَوِّمُ الرِّماح .)[٤] فقال[٥] :

حَضَــضْــتَ عَلَــى الْقَــوْمِ الَّذِيْنَ تَرَكْتَهُــمْ

تُعَــلُّ الرُّدَيِنِــيَّــاتُ مِنْهــُــمْ وَتُنْهَــلُ .[6]

والمعنى أنَّ الْجَحَّافَ ترك رماحه ترتوي من دماء التَّغلبيِّين .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٥ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٥ .

[٣] القاموس المحيط ، باب النون ، فصل السين ، ص ١٢١٧ .

[٤] المعجم الوسيط ، ٣٤٠/١ .

[٥] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٨ .

[٦] تُعَلُّ وَتُنْهَلُ : تشربُ والْعَلَلُ الشَّرْبَة الثّانية ، والنَّهْلُ الشَّرْبَة الأولى .

وقال جرير[١] :

فَوَارِسَ أَمْثَــالَ الْهُــذَيْــلِ رِمَاحُــهــُــــمْ

بِهَا مِنْ دِمَــاءِ الْقَــوْمِ خَضْبٌ عَلَــى خَضْبِ . [2]

فهؤلاء الفرسان تَخَضَّبَتْ رماحهم بدماء القَتْلَى .

وقد ذكر جريرٌ الأَسَلَ[٣] ، وهي نوع من أنواع الرِّماح فقال[٤] :

فَإِذْ لَــمْ تَصــــْـحُ نَشْــوَتُــكُــمْ فَذُوقُــوا

سُيــُوفَ الْهِــنْــدِ ، وَالأَسَــلَ الطــِّــوَالاَ .

* * *

٤- ألفاظٌ متفرِّقَةٌ من جوِّ الحرب في نقْض جرير شِعْر الأخطل :

هذا وقد ذكر جريرٌ ألفاظًا متفرقةً من جوِّ الحرب ، منها ما مرَّ بنا خلال ما تقدَّم مــن أبيات ، كألفاظ النَّار ، واللُّجَجِ ، والدِّمَاء ، والرَّايات ، والــرَّهَج ، والجحفــل الجــرَّار ، والطِّعَان ، وصلصلة اللُّجُم ، وَسَبْي النِّساء ، وتقسيم الأنفال ، ...ولا أَجِدُ حاجةً في تكرار تلك الأبيات التي وردتْ فيها الألفاظ السَّابقة ، ففيما قد ذُكِرَ الكِفَاية .

أما ألفاظ الحرب التي لم يسبق ذكرها فسوف أشير إليها سريعًا ، ومنها : الكتائــب ، والتَّدمير ، والتَّهديم ، كما في قول جرير[٥] :

أَلَمْ تَــرَ قَيْســًا قَيْــسَ عَيــْــلاَنَ دَمَّــرَتْ

خَنَازِيْــرَ بَــيْــنَ الشَّرْعَــبِيــَّةِ وَالــدَّرْبِ .

لقَــد أَوْرَدَتْ قَيْــسٌ عَلَــيْــكَ خُيُولَــهــَا

مَصــَاعِيْبَ هَــدَّمْــنَ الْحِيَاضَ الَّتِي تَجْبِــي .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

[٢] الهذيل : هو الْهُذَيل بن زُفَر الْكِلابّي .

[٣] (الأَسَلُ : نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف) المعجم الوسيط ، ١ / ١٨. سميت الرماح بهذا النوع من الشجر لأنها تصنع منه .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٩٧ .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ١١٣ .

سَتَعْــلَــمُ مَا يُغْنِــي الصَّلــيْبُ إِذَا غَــدَتْ
كَتــَائِبُ قَيْــسٍ كَالْمُــعَــبَّــدَةِ الْجُــرْبِ .

فالكتيبة ، والتَّدمير ، والهدم من أمارات الحروب ، ولهذا لم يهملها جرير بل ذكرهـــا ، وكان في ذكرها تقوية لموقف جرير إزاء الأخطل .

د – ألفاظٌ من الطبيعة في نقض جرير شعر الأخطل :

لم ألحظ أنَّ جريرًا اهتم كثيرًا بألفاظ الطبيعة ، وأعْني بهذا الاهتمام الغَزَارةَ والاتساع ، فلم يكن جرير مهتمًا بها اهتمامه بذكر أعضاء الجسم الإنساني ، أو اهتمامه بذكر الأماكن والمواضع ، أو بأدوات الحرب . ((ويسيرُ الشعراءُ الأمويون على سُــنة الجــاهليِّين ، فـــلا يلتفتون كثيرًا إلى مناظر الطبيعة إلاَّ في أبياتٍ متناثرة تكون معالم للزَّمان أوالمكان أو مسرحًا لأحـــداث الفـــراق والرحلـــة والصـــيد أو مظهـــرًا لـــبعض الخلجـــات النفســـيّة للإنسان...)) . [1]

وهذا هو – في الحقيقة – ما تبيَّن لي عند جرير فهو – كما سوف يأتي – ذكر الزَّمان ونوَّع في ذكْر ألفاظه في مقدماته الطلليّة ، وفي فراق أحبته ، وفي بعدهم عنه ، فكان ذلـــك في مقدمات قصائده ، فإذا انتهت هذه المقدِّمة رأيناه يبتعد عن ذكر ألفاظ الطبيعة – غالبًا – ويبـــدأ رحلـــةً طويلـــة في ذِكـــر الأمـــاكن والـــدِّيار والمواضـــع وأدوات الحروب .

وقد قمت بتقسيم ألفاظ الطبيعة ، كما جاءت في نقض جرير شعر الأخطل ، كما يلي :

١- الزَّمن .
٢- المطر و السَّحاب .
٣- الجبال .
٤- البحور .

١- الزَّمن :

تعدَّدَت أَلْفَاظُ الزَّمن في القصائد التي نقَضَ بها جريرٌ شِعْر الأخطل ، فجـــاءتْ لفظـــة (الزَّمان) مكَرَّرَةً مرَّتين في بيتٍ واحدٍ ، ومُعَرَّفَةً بـــ (ال) ، كما جاءت لفظة(زمـــان) مُنَكَّرَةً بينهما في نفس البيت ،

[1] في الشِّعر الإسلامي والأموي ، د : عبد القادر القطّ ، دار النَّهضة العربيـــة ، بـــيروت ، لبنـــان ، ١٤٠٧هـــ ، ص ٣٩٥ .

وذلك في قول جرير[١] :

إِذَا الــزَّمَــانُ زَمــَانٌ لا يُــقــَـــارِبُــهُ

هَذَا الزَّمـــَـــانُ وَ إِذْ فِــي وَحـــْــشِــهِ غِــرَرُ . [2]

وهذا التِّكرار الملحوظ لهذه اللَّفْظة يكشف لنا الشَّكْوى المريرة التي يعانيها جرير مـــن تقلّبات الزّمان ، وما فيه من أهوالٍ ومصائب .

كما لاحظتُ أنَّ جريرًا أكثر من ذِكْر اللَّيل ، ونوَّع في استخدام ألفاظه المختلفة ، فمَّرةً يستخدم كلمة (ليل) مضافةً إلى ضميرٍ مـــن الضَّـــمائر ، كإضــافتها إلى يـــاء المـــتكلم في قوله[٣] :

وَكَأَنَّ لَــيْلِــي ، مِنْ تَــذَكُّــرِيَ الْــهَــوَى

لَيْـــلٌ بِأَطْــوَلِ لَيــْـلَـــةٍ ، مَــوْصــُـــولُ .

فَلَيْلُ جريرٍ أصبح بسبب الْحُبِّ وكأنَّه موصول لا نـــهاية له . ونلحظ التنويع في كلمة (ليْل) ، فمرَّةً (لَيْلي) مضافة إلى ياء المتكلِّم ، ومرّة (ليلٌ) بالتَّنْكير ، ومرّة باســتخدام لفظ المفرد (ليلة) ، وهذا يدل على معاناة جرير ، وصِراعه المحتدم مع اللَّيل .

و لم يكن شاعرنا وحده حين يشكو من اللَّيل ، فَــبَــيْـــتُهُ السَّابق يُذَكِّرُنا بقول امريء القيس : [٤]

فَيَالَــكَ مِنْ لَيــْـــلٍ كَــأَنَّ نُجـــُـــوْمَــهُ

بِكُـــلِّ مُغَــارِ الْفَتــْــلِ ، شُـــدَّتْ بِيَذْبُـــلِ . [5]

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

[٢] غِرَرُ : جمع غِرَّة وهي الْغَفْلَة .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٨١ .

[٤] ديوان امريء القيس ، ضبطه وصححه الأستاذ / مصطفى عبد الشَّافي ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان ، ص ١١٧ .

[٥] مُغَار الْفَتْل : الحبل المفتول جيدًا .		يذبل : اسم جبل .

وقد ذكر جريرٌ اللَّيل في البيت الذي يلي مباشرةً بيته السَّابق ، فقال[١] :

أَيَنَــامُ لَيــْـلُكِ يَا أُمَــامَ ، وَلَــمْ يَنـــَـمْ

لَيــْــلُ الْمَطِــيِّ ، وَسَيْــرُهُــنَّ ذَمِيــْــلُ . [2]

فنرى جريرًا قد أضاف (لَيْل) إلى كاف الخطاب في الشَّطر الأوَّل ، كما أضـافها إلى الاسم الظَّاهر (المطِيّ) ، في الشَّطر الثَّاني .

إنَّ جريرًا يعاتب حبيبته كيف لها أن تنام بينما يظل هو ساهرًا مع المطايا السَّاهرة .

وقال جرير[٣]:

لَمَــنْ رَاقَبَ الْجَــوْزَاءَ أَوْ بَــاتَ لَيْــلُـهُ

طَوِيــْــلٌ ، لَلَيْــلِـي بِالْمَجَــازَةِ أَطــْـوَلُ . [4]

سَــرَى نَحْوَكُــمْ لَيْــلٌ كَــأَنَّ نُجُــومَــهُ

مَصــَابِيْــحُ فِيْهِــنَّ الذُّبــَالُ الــمُــفَــتَّــلُ . [5]

إنَّ ليلَ جرير أطول من ليْل من قَضَى ليلَهُ يراقب نجوم الجوزاء ، وذلك بسبب تفكـيره في الأحبة الذين رحلوا عنه .

وَلأَنَّ اللَّيل يساوي الهمَّ والغَمَ والمصائب عند جرير فَقَد كَنَّى به عن الجـيش الكـثير العرمرم ، وكنَّى بنجومه عن السِّلاح الذي يلْمع في الظلام .

وقد استخدم جريرٌ كلمة (لَيْل) مضافةً إلى هاء الغَيبة في البيت الأول ، واسـتخدمها مُنَكَّرَةً في البيت الثَّاني .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨١ .

(٢) ذَمِيْلُ : الذَّميل ضَرْبٌ من السَّير عند الإبل وهو السَّير اللَّيِّن .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ٦٦ .

(٤) (المجازة : ما بين ذات الْعُشَر والسمينة من طريق البصرة وهي من أوَّل رمل الدَّهناء) ، انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

(٥) الذُّبال : الْفِتَل واحدتـها ذُبالة أي فَتِيْلَة .

واستخدم جرير كلمة (اللَّيل) مُعَرَّفَةً بــ (ال) ، وذلك في قوله[١] :

طَــرِبَ الْفُــؤَادُ لِذِكْــرِهِنَّ وَقَــدْ مَضَــتْ

بِاللَّيــْــلِ أَجــْــنِحَــةُ النُّجــُــومِ فَمَالاَ . [2]

وقد لاحظتُ أنَّ جريرًا لا يذكر اللَّيل – غالبًا – إلاَّ في مقدماته الطَّلليَّة التي يشكو فيها من فِراق أحبته ورحيلهم عنه . فهذا الفراق وذاك الرَّحيل جَعَلاَ من لَيْله ليلاً طويلاً مُمِــلاًّ شديد السَّواد .

وهذا السَّوَاد القاتم لِلَّيْلِ خَدَم شاعرنا في أنْ وَظَّفَهُ في مدح هاشم بــن حَرملــة التَّوظيــف المناسب حين قال[٣] :

أَوْ هَاشِــمٌ يَــوْمَ قَــادَ الْخَيْــلَ مُعْلِمــَــةً

فِي جَحــْــفَلٍ كَسَــوَادِ اللَّيــْــلِ جــَــرَّارِ .

فقد شبَّه جرير الجيش الذي قاد فيه هاشمٌ الخيلَ بسواد اللَّيل بسبب كثرته العظيمة التي بدا بسببها وكأنَّه اللَّيلُ البهيمُ .

واستخدم جريرٌ لفظة (النَّهار) ، في قوله[٤] :

وَإِذَا النَّهــَــارُ تَقَاصــَــرَتْ أَظْــْــلاَلُــهُ

وَوَنَــا الْمَــطِــيُّ سَآمــَــــةً وَكــَــلاَلاَ . [5]

وقد ورد هذا البيت في مستهلِّ إحدى قصائد جرير عندما تَحَدَّثَ عن الأطلال وذَكَــرَ أحبتة وما كان من أمر رحيلهم ، وهذا يجعلنا نُرَجِّح أنَّ هموم جرير وأحزانه التي اســتودعها في اللَّيل قد امْتَدَّتْ لتشاركه في النَّهار ، فلم يعد النَّهار أحسن حالاً من اللَّيل عنده .

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٤ .

[٢] أجنحة النجوم : ما جنح منها للسقوط .   مَالاَ : أي مال الليل وسقط .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٥ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ٨٥ .

[٥] وَنَا : سَئِمَ .

وقد ذكر جرير (الْيومَ) مفردًا معرَّفًا بـــ (ال) ، في قوله(١) :

أَصــَاحِ أَلَيْــسَ الْيَــوْمَ مُنْتَظِــرِي صَحْبِي

نُحــَــيِّي رُسُــومَ الْحَــيِّ مِــنْ دَارَةِ الْجــأْبِ .

وَذَكَرَه مُنَكَّرًا ، في قوله(٢) :

فَقَــدْ أَفْــنَيْــنَ عُمــْــرِكَ كُــلَّ يَــــوْمٍ

بِوَعــْــدٍ مــَا جــَــزَيــْــنَ بــه قِبــَــالاَ .

ومُعَرّفًا بالإضافة ، في قوله(٣) :

وَلَقَــدْ عَطَفْــنَ عَلَــى حَنِيْفــَــةَ عَطْــفَةً

يَوْمَ الأَرَاكــَــةِ ، فَاعْتــَــسَــرْنَ أُثــَــالاَ . (4)

ومجموعًا مضافًا ، في قوله(٥) :

وَلَــوْ كُــنْتَ مَوْلَــى الْعِزِّ أَيَّــامَ رَاهِــطٍ

شَغــَبْتَ ، وَلَكــِــنْ لا يَــدَيْ لَكَ بِالشَّــغْبِ .

ومجموعاً منكراً ، في قوله(٦) :

أَلاَ تَــجــْــزِيــنَ وُدّي فــِــي لَــيَــالٍ ،

وَأَيــَّــامٍ ، وَصــَــلْــتُ بــِــهِ طـــوَالاَ .

وقد نوَّع جريرٌ في ذِكْرِ بعض أجزاء اليوم ، فَذَكَرَ الصَّــبَاحَ ، والْبُكُــورَ ، والْغُــدُوَّ ، والرَّوَاحَ ، والأَصِيْلَ ، وَالْعَشِيَّةَ .

---

(١)نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٠٩ .

(٢) المصْدر السَّابق ، ص ١٩٢ .

(٣)المصْدر السَّابق ، ص ٩٤ .

(٤) أُثالا: أُثال بن النُّعمان بن مسْلَمة قَتَلَتْهُ بنو قشير بن كعب . انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة.

(٥) المصْدر السَّابق ، ص ١١٣ .

(٦)المصْدر السَّابق ، ص ١٩٢ .

فــأَمَّا(الصَّباح) فَذَكَره في قوله[١]:

مِنــَّا فَوَارِسُ ذِي بَهـــْــدَى وَذِي نَجــَــب

وَالْمــُـعْــلِــمُونَ صَبَاحــًا يَــوْمَ ذِي قــَارِ .

ولعلَّه ذكر الصَّباح لأنَّ المعارك – في الغالب – تبدأ وتستعر صباحًا .

وَأَمَّا الْبُكُور ، والرَّواح ، والْعَشِيّة فقد ذكرهــا جريــرٌ في مسْــتهلِّ قصــيدته الــتي مطلعها[٢] :

رَحَــلَ الْخَلِيـــْـطُ فَرَايــَــلُوكَ بُكــُــورَا

وَحَســِــبْتَ بَيْنَهــُــمُ عَلَيـــْــكَ يَسِيــرَا . [3]

يَا صَاحِبــَــيَّ دَنــَــا الرَّوَاحُ فَســَـيِّــرَا

لاَ كــَالْعــَــشِــيَّــةِ زَائــِــرًا وَمــَــزُورَا .

وَالْبُكُورُ من (بَكَرَ بُكُورًا : خرج أَوَّل النَّهار قبل طلوع الشمس) .[٤]

واختيار جرير لهذا الوقت يعكس عدم تَرَيُّث الرَّاحلين ، ويدلُّ علــى اســتعجالهم في الرَّحيل ، وهو الأمر الذي لا يحبذه بل يرغب في بقاء أحبته ولو لأقل القليل من الوقت .

و (الرَّواحُ : الْعَشِيُّ ، أو من الزَّوالِ إِلَى اللَّيل).[٥]

و (الْعَشِيَّةُ : آخر النَّهار ج : عَشَايَا وَعَشِيَّاتٌ) .[٦]

ومعنى البيت الثَّاني أنَّ جريرًا يريد أن يقول : لم أرَ كالْعَشِيَّة زائرًا ومزورًا ، فهي عشيَّةٌ لا تماثلها عشيَّة .

فقد لاحَظْنا كيف نوَّع جرير – وفي مَطْلَعٍ وَاحدٍ – بين أوقات مختلفة مِمَّا يدلُّ علــى شعوره بشيء من القلق والتَّوتُّر من الزَّمَن وما يحمله له من هموم وغموم .

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٣ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١١٩ .

[٣] الخليط : السُّكَّان المخالطون .		الْبَيْنُ : الْفِرَاقُ .

[٤] المعجم الوسيط ، ٦٧/١.

[٥] القاموس المحيط ، باب الحاء ، فصل الراء ، ص ٢٤٦ .

[٦] القاموس المحيط ، باب الواو و الياء ، فصل العين ، ص ١٣١٨ .

وذكر جرير وقت الْغُدُوِّ في قوله(١) :

إِنَّ الْخَلِيــــْــطَ أَجَــدُّوا الْبَيْـــنَ يَوْمَ غَـــدَوْا

مِنْ دَارَةِ الْجــَــأْبِ ، إِذَ أَحْدَاجــُـــهــُـــمْ زُمَــرُ . [2]

وَالْغُدُوُّ من الْغَدَاةِ و (الْغَدَاةُ : ما بَيْن الفجر وطلوع الشمس . (ج) غَدَوَات) . (٣)

فجرير هنا يشكو من جِدِّيَّة أحبته في الرَّحيل الـــمُبَكِّر .

وذكر جريرٌ وقْت (الأصيل) ، في قوله (٤) :

جَنَــحَ الأَصِيـــْــلُ وَقَدْ قَضَيْــنَ بِتَغْلِب

نَحْبــًـا قَضــَـيــْـــنَ قَــضَــاءَهُ وَنـــُـــذُورَا . [5]

و (الأَصِيْلُ : الوقت حين تَصْفَرّ الشمس لمغربـــها (ج) أُصُلٌ ، وَأُصْــلان ، وآصَـــالٌ ، وأَصَائِلٌ .) (٦)

والمعنى أنَّ القيسيِّين قضوا على التَّغلبيِّين ووفَوا بنذورهم ، وقد اختـــار جريـــر وقـــت (الأصيل) لأنَّه الوقت المعتاد – غالبًا – لانتهاء المعارك قبل حلول اللَّيل .

وقبل أنَّ أختم حديثي عن (الزَّمَن) في نقْض جرير شِعْرَ الأخطل ، فقد بقي لفظتـــان من ألفاظ الزَّمن ذكرهما جرير ، وهما : (الدَّهْر) ، (الشَّهْر) . فقد ذكر لفظة الـــدَّهر في قوله(٧) :

لاَ يَأْمَـــنـــَــنَّ قَــوِيٌّ نَــقـــْــضَ مِــرَّتِــهِ

إِنِّـــي أَرَى الدَّهـــْـــرَ ذَا نَقـــْـضٍ وَإِمــْــرَارِ . [8]

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٨ .

(٢) الأحداج : مراكب النِّساء .		زُمَر : جماعات .

(٣) المعجم الوسيط ، ٢ / ٦٤٦ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

(٥) جَنَحَ : مال . النَّحْب : النَّذْر .

(٦) المعجم الوسيط ، ٢٠/١ .

(٧) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .

(٨) نقْض : فك .		الْمِرَّة : الرَّبْط الوثيق .

فهى شَكْوى مريرة من الدَّهْر وَتَقلباته .

وفي قوله[١] :

وَلَقَــدْ عَجِــبْتُ مِــنَ الدِّيَـــارِ وَأَهْلِهَا

والدَّهْــــرِ كَيْـــفَ يُــبَــدِّلُ الأَبْـــدَالاَ .

إِنَّ جريرًا يتعجَّب من الدَّهْر كيف يغيِّر الأحوال ويبدِّلها .

ونلحظ أنَّه استخدم كلمة (الدَّهر) في البيتَيْن السَّابِقَيْن مفردةً ومعرَّفةً بـــ (ال) .

وأمَّا كلمة (الشَّهْر)، فقد استخدمها مجموعة جمــع قِلَّــة علــى وزن (أَفْعُــل) ، في قوله [٢] :

أَجْهَضْـــنَ مُعْجَــلَــةً لِستَّــةِ أَشْــهُــرٍ

وحُـــذِينَ بَعْـــدَ نِعَالِهِـــنَّ نِـعَـــالاَ . [3]

* * *

٢- الْمَطَرُ والسَّحَاب :

ومن ألفاظ الطَّبيعة التي استخدمها جرير في قصـــائده الـــتي نَقَـــضَ بهـــا قصـــائد للأخطل ، لفظة (المطر) .

وذلك في قوله [٤] :

قُلْ لِلــدِّيَــارِ : سَقَـــى أَطْلاَلَكِ الْمَــطَرُ ،

قَدْ هِجـــْتِ شَــوْقًا وَمَــاذَا تَنْــفَــعُ الذِّكَرُ ؟ .

فالمطر من أهم مقومات الحياة ، ينعمُ به الإنسان ، ويستبشر ، و تحيا به الأرض بعد موتها ، فقد قال تعالى : [وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] {الحج:٥} ،

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ٨٦ .

[٣] الإجْهَاض : إلقاؤها أولادها قبل التَّمام من التَّعَب . انظر المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١٦٦ .

ولهذا دعا جرير بأن تسقى أطلال ديار أحبته بالمطر.

وقد نوَّع جرير فذكر ألفاظًا مختلفة لهذا المطر مِنْها : (الْمُحْتَفِـل) و (الْهَاطِـل) ، و(الـمُرْثَعِنّ) ، و (الْوَابِل) ، وذلك في قوله بعد البيت السَّابق[1] :

أُسْقِيتِ مُحْتَفِلاً يَسْتَنُّ وَابِلُهُ

أَوْ هَاطِلاً مُرْثَعِنًّا صَوْبُهُ دِرَرُ. [2]

فقد ذكر جرير المطر بأسماء مختلفة ، وأوصاف متنوعة وذلك لأهميته .

وفي بيت آخر قال جرير [3] :

فَسَقَى دِيَارَكِ حَيْثُ كُنْتِ مُجَلْجِلٌ

هَزِجٌ ، وَمِنْ غُرِّ السَّحَابِ هَطُولُ .

فنرى جريرًا في هذا البيت قد نوَّع في ذِكر أنواع المطر فَذَكَر المطرَ الْمُجَلْجِلَ وهو الذي فيه صوت الرَّعد ، وذكر الْهَزِجَ وهو المطر الْمُصَوِّت ، وذكر المطرَ الهطولَ وهو الشَّديد السُّيولة ، كما ذَكَرَ السَّحَاب وهي من المبشِّرات بهطول المطر .

ونلحظ أنَّ جريرًا استخدم في البيت الذي سبق هذا البيت لفظة (هَاطِل) ، وهي من المشتقَّات (اسم فَاعِل) ، بينما استخدم في هذا البيت لفظة (هَطُول) ، وهي صيغة من صِيَغ المبالغة على وزن (فَعُول) ، وهذا يدلُّ على سِعَةِ الاشتقاق عنده . ومن ذلك أيضًا كلمة : (هَزِج) ، وهي صيغة مبالغة – أيضًا – على وزن (فَعِل) .

وذكر جريرٌ في بيت آخر (الرَّبَاب) ، وهي لفظة من الألفاظ الدَّالَّة على السَّحَاب ، و (الرَّبَابُ : سحابٌ رقيقٌ دون السَّحَاب الكثيف) [4]،

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

[2] الهاطل : الصَّبَّاب . الوابل : العظيم الْقَطْر . الْمُرْثَعِنُّ : الْمُتَسَاقِط البطيء

الدِّرَرُ : الدفعات من المطر .

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١٨١ .

[4] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٠ .

فقال [1] :

عَفَــتِ الْجَــنــُـوبُ مَــعَ الشَّمَالِ رُسُومَهَا

وَصَــبــًا مُزَمــْــزِمَةُ الــرَّبَــابِ عَجــُـــولُ . [2]

* * *

٣- الْجِبَالُ :

قال جرير [3] :

وَلَو انَّ خِنــْـدِفَ زَاحَــمَتْ أَرْكَانــُــهَا

جَبــَــلاً أَصــَــمَّ مِــنَ الْجِبــَــالِ لَــزَالاَ .

فالجبال – يعلمُ جريرٌ – أنَّها رمز لِلثَّبَات ، والقوَّة ، ولهذا فلا نستغرب إكثاره من ذكرها في نَقْضِهِ شِعْرَ الأخطل ، فالشَّاعر الْـهَجَّاءُ أو المفتخِر يحتاج كثيراً إلى أن يُدَعِّمَ فخْرَه وهجاءه بذكر الجبال رمزِ الأَنَفَةِ والْعُلوِّ والعزَّة والجسارة .

وقال جرير [4] :

إِنِّــي إِذَا مُــضَــرٌ عَــلَــيَّ تَــحَــدَّبَــتْ

لاَقَــيْــتَ مُطَّــلَــعَ الْجِبــَال وُعــُــورَا . [5]

والمعنى : إذا لقيتُ المساندة والتَّأييد من مُضَر فبعد ذلك لا يهمني شيء ، وسوف يمكِنُني أن أرقى أشد الجبال وعورة .

وقد استخدم جرير لفظة (الجبال) في سياق الفخر فكانت في مكانها المناسب .

* * *

---

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٠ .

(٢) الصَّبَا : ريح تَهُبُّ من الشمال . الْمُزَمْزِمَة : من زمزم الرَّعد صوَّتَ .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ٩٢ .

(٤) المصْدر السَّابق ، ص ١٢٣ .

(٥) تحَدَّبَتْ : تَعَطَّفَتْ .

٤- **البُحُور :**

قال جرير [(١)] :

مَـــدَّتْ بُحُــورُهُـــمُ فَــلَسْتَ بِــقَــاطِـعٍ
بَحــْــرًا يَمــُــدُّ إِلَى الْبُحـــُــورِ بُحــُــورَا .

ولفظة (البحر) من الألفاظ التي تسعف الشَّاعر في فخره وهجائه ، ولذلك لم يغفلــها جرير بل ذكرها في بيته السَّابق أربع مرَّات في صُوَرٍ مختلفة ، فالبحر رمزٌ للعطاء ، والسّــعة والقوّة ، والعظَمة والغزارة والعمق .

هذا وقد ذكر جريرٌ ألفاظًا من ألفاظ الطبيعة أكتفِي بذكرها إجمالاً دون تفصيل رغبةً في عدم الإطالة ، وهي السَّماء والأرض ، والشَّمس والقمــر والنجــوم ، والآل (وهــو السَّراب) ، والفلاة ، والوادي ، والطير ، والماء ، والجِمال ، والسِّدْر ، والشِّيح .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٣ .

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

بِـــنَـــاءُ الْـــقَـــصِـــيْـــدَةِ

قـــبل أن أتنـــاول بنـــاء القـــصـــيـــدة عنـــد جـــريـــر يـــحـــســـنُ بـــي أن أقـــف مع قصيدة الأخطل (خَفَّ الْقَطِيْنُ) والتي نقـــضها جريـــرٌ بقصيـــــدته المعـــروفة : (قُـــل للـــدِّيَارِ سَـــقَـــى أَطْـــلاَلَكِ الْمَـــطَـــرُ) ، وذلك من أجـــل أن نتـــبـــيَّنَ كيف بنـــى جريرٌ نقيـــضـــته ، وهل استـــفادَ من قصيدة خصـــمه ؟ ومـــا الـــمـــعـــانـــي التـــي تعـــامل معـــها ووظَّـــفَـــهَا في مصـــلـــحـــتـــه ، وساعـــدته في ذلك البناء ، وكانت بـــمـــثابة الـــمـــحفِّز والدافع والانطـــلاقة ؟

لقد نظم الأخطلُ قصيـــدته (خَفَّ الْقَطِـــيْنُ) في (خمـــسةٍ وثـــمانين بـــيتاً) مـــمَّا يعني أنَّـــهُ كان يملك نَفَسًا شعريًا طويلاً ، وقريحةً قويَّةً وإلاَّ لما صمد في وجـــه خصمه العنـــيد جريرٍ ، ولما تمكَّنَ من أن ينظم قصيدةً في هذا الطول .

وقد بدأ الأخطلُ تلك القصيدة بما عُهِدَ عن الشُّعراء الجاهليِّـــين من ذِكْرٍ للأطلال والدِّيار والظَّعائن ، كما ذَكَرَ رأيًا له في النِّساء لم يكن المقام مواتيًا لذكره فقال [(١)] :

يَـــا قَـــاتَـــلَ اللهُ وَصْـــلَ الْغَـــانِـــيَـــاتِ إِذَا
أَيْـــقَـــنَّ أَنَّكَ مِمَّـــنْ قَدْ زَهَا الْكِـــبَـــرُ .
أَعْـــرَضْـــنَ لَمَّـــا حَـــنَى قَوْسِـــي مُوَتِّـــرُهَا
وَابْـــيَضَّ بَعْـــدَ سَـــوَادِ اللِّمَّـــةِ الشَّـــعَرُ .
مَـــا يَـــرْعَـــوِيْـــنَ إِلَى دَاعٍ لِـــحَـــاجَـــتِـــهِ
وَلاَ لَـــهُـــنَّ إِلَى ذِي شَـــيْـــبَـــةٍ وَطَـــرُ .

ويـــبدو أنَّـــهُ كان فوضـــويًّا [(٢)] في قصيدته يهيمُ على وجهه يـــمـــينًا وشمالاً ،

(١) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

(٢) وليس أدل على تلك الفوضى من ذلك التخلّص الواهي الذي أخرج به الأخطل نفسه مـــن وصف الظعائن إلى مدح عبد الملك بن مروان حيث قال :

وَقَعْنَ أُصْلاً ، وَعُجْنَا مِنْ نَجَائِبِنَا وَقَدْ تُحُيِّنَ مِنْ ذِي حَاجَةٍ سَفَرُ .

انظر ديوان الأخطل ، ص ٩٠ . إضافةً إلى تخبطه الملحوظ في ذِكْر الموضوعات التي اشـــتملت عليها القصيدة .

ويركب كلَّ مرْكبٍ في سبيل الوصول إلى أن يتــزلّف بالمديح لعبد الملك بن مروان ، مســتــغلاً الظروفَ التـــي يــمر بها جريــــر في علاقـــتـــــه بعــــبد الملــك وفـــتـــور تلك الـــعـــلاقـــة ، ومقـــتَـــنِصًا انـــصـــراف الخلـــيـــفة عــــنــه ، فقـــد ((كانَ عبد المـــلك واجـــداً على جرير لأَنَّـــهُ لم يـــكـــن من أصحـــــاب دعوتـــهم ، فَلَمَّا ســـمـــعـــه يُنـــشدُ : ((أتصحـــو أم فـــؤادك غـــيرُ صـــاحِ)) شـــتَـــمَه وقال له : ((بل فـــؤادك يا بن الفـــاعـــلة)) وظلَّ غاضـــبًا علـــيـــــه حتـــى وصل جريـــر إلى قـــولـــه : ((أَلَـــسْـــتُم خيرَ مَن رَكِـــب المطايـــا ؟)) فَـــسُـــرِّيَ عـــن عبـــد المـــلك ، وقـــال : ((مَـــنْ مَـــدَحَـــنَـــا فلْـــيَمْـــدَحنا بـــمـــثـــل هذا أو يســـكـــت)))) [1] .

ولا نُـــنْكر أن هذا من الدَّهاء الـــذي عُرِفَ به الأخطـــلُ والذي يُشـــاركـــــه فيه الكثـــير من الشُّعـــراء حين يـــتَّجه كلُّ شاعِـــرٍ إلى أن يستـــغل كلّ ثـــغـــرةٍ في الخصم لينْـــقضَّ علـــيه من خلالها ، غـــير أنَّ هذا الدَّهـــاء امتـــزج بـــخـــبث السريرة وسواد النـــيَّة والطويَّـــة عند الأخطل حـــين ارتكب الكـــثيـــر من الأمور الممتـــنعة في سبـــيل مدح الخليفة ، فـــإذا قلْـــنَا أنَّـــهُ لا يُسْـــتـــغرب من الأخطل – وهو الشَّـــاعر النَّـــصْـــراني – ألاَّ يُقـــيم وزناً للمحـــرَّمات المنـــهـــي عنهـــــا في الإســـلام ، كشـــرب الخمْر ، وكوصفـــه لأثر رحيـــل أحبـــته عنـــه بـــذلك الأثر الذي يُعانيه مَنْ صَـــرَعَـــتْهُ الخمْـــرَة ، وتســـرَّبتْ إلى كل عِـــرْقٍ في جَسَـــدِهِ لتصيـــبه بالرِّعْـــدَةِ والفـــتور ، فإنَّ الغـــرابة كـــل الغـــرابة أنَّـــه لم يتـــحَـــــرَّج من ذِكْرِ كلِّ ذلك أمام الخلـــيـــفة المســـلـــم ، وفي مجلس الخلافة المهـــيب دائماً ، وفي حضرةِ الوجهاء مِنْ سَـــرَاة القومِ وعلْيـــتهم ، والأغْرب من ذلك أنَّ عبد الملك ابن مروان لم يـــعـــترض عليه ، ولا أعْلَم من خـــلال قراءتي حـــول تلك القصيدة أنَّ أحدًا من الحاضـــرين قد اعـــتـــرضَ أو أنكر علانـــيـــةً .

[1] انظر ديوان جرير ، تحقـــيـــق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ودار بيـــروت ، بيروت ، لبنان ، ١٣٧٩ هـــ ص ٧٦ .

يــقــول الأخــطــل [1] :

كَــأَنَّــنِــي شَارِبٌ ، يَوْمَ اسْــتُــبِــدَّ بِــهِمْ

مِنْ قَرْقَفٍ ضُمِّــنَتْهَا حِمْصُ أَوْ جَدَرُ [2] .

جَادَتْ بِــهَــا مِــنْ ذَوَاتِ الْقَارِ مُــتْــرَعَــةٌ

كَلْفَاءُ يَــنْحَتُّ عَنْ خُرْطُومِهَا الْمَــدَرُ [3] .

لَــذٌّ أَصَــابَــتْ حُمَــيَّــاهَا مَــقَــاتِــلَــهُ

فَلَمْ تَكَدْ تَــنْجَلِي عَنْ قَلْــبِهِ الْخُــمَرُ [4] .

كَأَنَّــنِي ذَاكَ ، أَو ذُو لَــوْعَــةٍ خَــبَــلَــتْ

أَوصَــالَهُ ، أَوْ أَصَابَتْ قَلْبَهُ الــنُّــشَرُ [5] .

وإذا قــال قــائــلٌ إنَّ الخلــيــفة عبد المــلك بن مــروان ربَّــمَــا أنَّــــهُ قــد اعــتــرضَ على الأخطــل في ذِكْــره للخــمــــرة ونــشــوتــهــــا ،

---

[1] ديوان الأخطل ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

[2] استُبِدَّ بــهم : أُكْرِهوا على الرحيل .
القَرْقَف : الخمرة التي يرتعد منها شاربــها .
حمص : مدينة بين دمشق و حلب .
جَدَر : قرية بين حمص والسّلميّة .

[3] ذوات القار : الخوابي المطليّة بالقار أو الزفت .
مترعة : مــمتــلــئة .
الكلفاء : الخابــية التي أصابــها كَلَفٌ لِقِدَمها .

[4] لَذٌّ : هو المرء الذي يلذ حديثُه على الشراب .
حُميَّاها : حدَّتُها .
الــخُمَرُ : جمع خمرة وهي الصداع الذي يكون من تأثير الخمرة في الرأس .

[5] اللوعة : الوجع الشديد يكون في البدن .
النُّشَرُ : جمع نَشْرَة وهي الرقية أو التعويذة التي يعالج بــها المريض أو المجنون .

ولتــجــاوزه لآداب الــمجــلس ، فلماذا لــم ينــقــل لنــا الــتــأريخ ذلك كما نَقَــلَ لنا اعتــراض عبد الملك ، بل وشــتــمه لجرير حــين قال [1] :

أَتَــصْــحُــو بَــلْ فُــؤَادُكَ غَــيْــرُ صَــاحِ

عَــشِــيَّــةَ هَمَّ صَــحْــبُــكَ بِالرَّوَاحِ .

كــمــا ســبــق وَذَكَــرْتُ ذلك قــريــبًــا ؟!

ومن أجل مدح الخليفة نفث الأخطل ما فيه من حقد على الإسلام والمســلمين ، ففي خطابه للأمويِّــين أخذ يــتــبــجَّحُ ويتــشــدَّق أمــامهم بأنَّــــه دافــــع عنــهم ، وأفحــم الأنــصــار - ﭬ - فــقــال [2] :

بَنِي أُمَــيَّــةَ ، قَــدْ نَاضَــلْــتُ دُوْنَــكُــمُ

أَبْــنَــاءَ قَــوْمٍ ، هُمُ آوَوا وَهُمْ نَــصَرُوا .

والأخطل وبطريقة غــير مباشرة نراه يــنــقض قصيدةً لعبد الله بــن رواحــة الأنصاري الخزرجي في مدح النَّــبِــــيِّ - ﷺ - كمــا أشــــرتُ إلى ذلــك في التَّــمْهــيد في مســتــهل هذه الرِّسالة .

والأخطل حين يمتــدح الأمويــين فهو لم يفعل ذلك حــبًّا فيــهـــــم وإنَّمــا ليدسَّ السُّــمَّ في العــسل ، ومن أجل أن يظفر بــحــمايــتهم وبعطــاياهم .

[1] ديوان جرير ، ص ٧٠ .

[2] ديوان الأخطل ، ص ٩٢ .

يــقــول الأخــطــل [1] :

بَــنِي أُمَــيَّــةَ نُــعْــمَــاكُــمْ مُــجَــلِّلَــةٌ

تَمَّــتْ فَلاَ مِــنَّــةٌ فِــيْــهَا وَلاَ كَــدَرُ .

فليتَ الأمويـــين لم يُكرموا مَنْ أهانَ الأنصار وهجــاهم ، وهم الَّذين حثَّ النبي – ﷺ – المسلمين على حُبِّهم ، وليــتهم لم يتركوا لأمثال الأخطل مجالاً ليــمدحهم على حساب الإسلام ، وعلى حساب الأنصار حتَّى وإن كان بيــنهم وبين الأنصار من الخصومة ما كان ، فقد قال النَّبِــيُّ – ﷺ – : ((المسلمون تــتكافأُ دمــاؤهم . وهم يدٌ على مَنْ سواهم . يسعى بذمتـــهم أدناهم ، ويُرَدُّ على أقصـــاهم)) [2] .

وامْــتَــدَّ خبثُ الأخطل في أن يُــذكِّرَ الأمويــين بتلك الصِّــراعــات الــتي قامتْ بــين المــسلمــين ، ومن ذلك قــولــه [3] :

حَــتَّى يكــونَ لَــهُمْ بِالــطَّــفِّ مَلْحَــمَــةٌ

وَبِــالــثَّــوِيَّةِ لَمْ يُــنْــبَــضْ بِهَا وَتَرُ [4] .

إِنَّهُ يُعَرِّضُ بمقتل الحسين بن علي – رضي الله تعالى عنه – في الطَّفِّ وبتلك الموقعة القويَّة التي اشتدَّ فيها القتالُ وبلغ الالتحام بين الفريقين حَدًّا لم يعد الرَّمْــيُ بالسِّـــهامِ ممكنًا ، ولهذا لم يُسْمَع لأوتار الأقواس صوتٌ وإِنَّما كان القتالُ بالسُّيوف وبالقنا .

ويســتمر الأخطل في خبــثه ونفث سمومه وذلك حيــنما عَرَّض – كــذلك – بــعــبــد الله بن الزبــيــر بن العــوَّام – رضي الله عنهما – في معرض مدحــه لعبد الملك بن مروان ، وذلك ليزيد النَّار إشعالاً ، ويــمــلأ القلــوب أحقــادًا .

---

[1] ديوان الأخطل ، ص ٩٢ .

[2] انظر صحــيــح سنــن ابن ماجــة ، ٢ / ١٠٥ ، ١٠٦ والحــديث عــن ابن عباس – رضي الله عنهما – .

[3] ديوان الأخطل ، ص ٩١ .

[4] الطَّفّ : ما حول الكوفة وحول القــادسيّة ، وهــو المكان الذي قُتِلَ فيه الحسين بن علي – رضي الله عنهما – .

الثَّويَّة : موضع بالكوفة .

قـــال الأخـــطـــل (١) :

وَلَمْ يَـــزَلْ بِـــكَ وَاشِـــيــهِمْ وَمَـــكْـــرُهُـــمُ
حَتَّى أَشَاطُوا بِغَــيْبٍ لَحْمَ مَنْ يَسَرُوا (٢) .

في هذا البـــيت يكشف لنا الأخطل عن حقيـــقة مدحه لعبد الملك بـــن مـــروان خاصة وللأمويـــين عامّةً ، فهو في الحقـــيـــقة لم يمدحهم حبًّا فيهم ، أو وفاءً لهـــم وإنَّما كان مدحه يصب في مصلحته ومصلحة التَّغْلبيِّـــين والدفاع عنهم ، وذلك من خلال رسالة أراد أن يوصلها إلى عبد الملك بن مروان عبر هذا البيت حيث زعـــم أنَّ أعداء التَّغْلبيِّـــين – وعلى رأسهم عبد الله بن الزبـــير بن العوَّام – رضي الله عنهما – مستمرون في الوشاية بهم ، والمكر ضدهم عند الخلـــيفة إلى حدٍّ أنهم مزقوا لحـــومهم وأجسادهم كما يمزق لحم النَّاقة التي يذبحها مَنْ يلعب الميـــسر ، ويُقَسَّمُ لحمـــها بين اللاّعبـــين . وهي صورة بشعة أراد بها الأخطلُ أن يُقَبِّحَ صورة عبد الله بن الزبـــــير وقومه عند الخليفة ، ويزيد من الفرقة بيـــنهم ليخلو له الجو ، وتستـــتبّ له الأمور .

والأخطل لم يترك وســـيلةً توصله إلى مدح عبد الملك بن مروان إلاَّ تشبَّثَ بهـــا ، ولم يدع مركـــبًا إلاَّ ركبه في سبـــيل أن يتـــبوَّأ منـــزلة عند الخلـــيـــــفة ، فـــإلى جانب كل ما تقدَّم فإنَّـــه أشار في قصـــيدته إلى صور شـــتَّى من صور الصِّـــــراع مع الآخر ، فقد هجا زُفَـــرَ بن الحارث ، كبـــير زعماء القيـــسيِّـــين .

قـــال الأخـــطـــل (٣) :

بَـــنِـــي أُمَـــيَّـــةَ ، إِنِّـــي نَـــاصِـــحٌ لَـــكُـــمُ
فَلاَ يَـــبِـــيْـــتَـــنَّ فيـــكمْ آمِـــنًا زُفَـــرُ .

---

(١) ديوان الأخطل ، ص ٩١ .

(٢) أشاطُوا : قتلوا وفرقوا وأهلكوا ، يقال : أشاط اللحم فرَّقَهُ .
بغيب : ولم يشعروا .
لحم مَنْ يسروا : لحم مَنْ جزروا ، والمقصود : مزقوا لحومهم كالنَّاقة التي يقطِّعها لاعبـــو الميسر ويقسمون لحمها فيما بينهم .

(٣) المصدر السَّابق ، ص ٩٢ .

إنَّـــه يُظهرُ في هذا البـــيت أنَّه حريصٌ كل الحرص على الأمويين ، وأنَّه لا يبخل عليهم بالنصـــيحة خاصةً فيما يتعلَّق بتـــحذيرهم من تقريب زُفَر والاطمئنان إليـــه ، فهو – كما زعم الأخطل – عدوٌ للأُمويِّـــين ؛ ينطوي على شـــرٍّ مُسْـــتـــــطيرٍ ، وخطر عظـــيم . ومـــا ذاك إلاَّ ليـــكســـب من وراء تلك النصـــيـــحة قُـــرْبًا من الخليـــفة ، ومحـــبَّـــةً عنـــد الأُمَويِّـــين .

وفي نفس السِّـــياق هَجَّم الأخـــطلُ على قـــوم جريـــرٍ وعلى كُلِّ حلـــيف لهم فهجاهم وذلك في ثمانية وعشرين بـــيتًا من قصـــيدته ، فوصفهم بالضَّلال والخروج عن الدِّين ، وأنهم لا يطيقون قـــتالاً ، ولا يحـــتملون مشقَّةً ، وأنَّ ديـــارهم مجـــدبةٌ لا خـــير فيـــها ، وأنهم ليـــسوا أصحـــاب أصلٍ ولا نـــســـــبٍ ، وأن مكـــانهم الذيـــل لأنهم أذلاَّء ، كما وَصَـــمَهم بالأخـــلاق السَّـــيِّـــــئة وبالسَّـــفـــــاهة ، وارتكاب الفـــواحش ، والبـــخل ... إلى غـــير ذلك من النَّـــقائص التـــي رمـــى بها القوم عـــن قـــوسٍ واحـــدة .

كلٌّ ذلك الـــهـــجاء حرص علـــيـــه الأخطل من أجـــل أن تكـــون له قَـــدَمٌ راســـخـــةٌ عنـــد الخـــلـــيفـــة .

أمَّا الجانب الآخر وهو الفخر الذي لم تَخْلُ منه القصيدة فقد كـــــان كـــذلك مُنْـــصَبًّا نحو نفس الهدف الذي يرمي إليـــه الأخطل ، فـــقد رأيتُ أنَّـــهُ يفـــتـــخر بمناصرته الأمويِّـــين ، وبوقوف التَّغْلبيِّـــين صفًّا واحدًا معهم وذلك من خلال إبرازه لكثـــير من المواقف التي وقفها قومُهُ مع الأُمويِّـــين ، فَذَكَرَ منها مـــا كان من أمـــر التَّـــغْلبيِّـــين مع عمير بن الحُباب فَهُم الذين قتلوه وقطعوا رأســـه ، وبعـــثـــوا بـــه إلى عبد الملك بن مروان وفي ذلك قـــال الأخـــطـــلُ [1] :

وَقَـــدْ نُـــصِـــرْتَ أَمِـــيرَ الْمُؤْمِـــنِـــينَ بِـــنَـــا
لَمَّـــا أَتَاكَ بِـــبَطْنِ الْغُـــوطَةِ الْخَـــبَرُ [2] .

---

[1] ديوان الأخطل ، ص ٩٣ .

[2] الغُوطة : مكان يحيط بدمشق فيه ماء كثير .

يُعَــرِّفُــونَــكَ رَأْسَ ابْنِ الْحُــبَــاب ، وَقَــدْ

أَضْحَى ، وَلِلسَّــيفِ فِي خَيْشُوْمِهِ أَثَرُ (١) .

ويفــتــخر الأخطل بقتل التَّــغْلبيِّــين للحارث بن عــوف ، وهو رجلٌ مـــن بنـــي عامر بن صعــصــعة، فــقــال (٢) :

وَالْحَــارِثَ بْــنَ أَبِي عَــوْفٍ لَعِــبْــنَ بِــهِ

حَــتَّـــى تَعَاوَرَهُ الْعِــقْــبَانُ وَالسُّـــبَرُ (٣) .

ويـــبقى أن أشير أخيرًا إلى أنَّ الأخطل إضافةً إلى كل الوسائل التي تقدّم ذكْرها ، والتي استخدمها كأدواتٍ للوصول إلى مدح الخليــفة فإنَّـــهُ اتَّــكأَ بشكلٍ واضـــح على مُعَلَّقَـــةِ النَّابغـــةِ الذُّبــياني التي مدح بها النُّعـــمان فاستـــفاد منـــها وَسَرَقَ ، وجعلها أمامه وهو ينظم قصــيدته في مدح عبد الملك لِعِلْمِهِ أَنَّـــها قصــيدةٌ قويّـــةٌ تمكَّن من خلالها النَّابغـــةُ من الظَّفر بما أراد ، فَنَـــهَلَ من معيـــنها ، وغـــرف مـــن بحرها ، واقـــتـــنصَ من لآلِئِها ما رأيـــتُهُ واضحًا وضوح الشمس في رابعة النَّهـــار . ولستُ هنا بصدد المقارنة بـــين القَصــيدَتَــين ولكنَّـــي أكتــفي بإشـــارة عـــابرةٍ إلى بـــيتَـــين حاكى فيهما الأخطلُ النَّابــغـــةَ ، وهـــمـــا قـــولـــه (٤) :

وَمَا الْــفُــرَاتُ إِذَا جَــاشَــتْ حَــوَالِــبُــهُ

فِي حَافَــتَــيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُـــشُرُ (٥) .

---

(١) ابن الحُباب : عُمير بن الحُباب قَتَــلَــتْهُ تغلب .

الخيشوم : أعلى الأنف .

(٢) ديوان الأخطل ، ص ٩٣ .

(٣) تعاوره : أي تتداول طعنه ونـــهشه .

السُّبَرُ : طائر يشبه الصقر .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) جاشتْ : اضطربت .

حوالبه : أمواجه .

الْعُشُرُ : من كبار شجر العضاة .

يَــوْمًا ، بِأَجْــوَدَ مِنْهُ ، حِــيْــنَ تَــسْــأَلُــهُ

وَلاَ بِأَجْــهَــرَ مِنْهُ ، حِيْنَ يُــجْــتَــهَرُ .

فهما بيــتان يذهــبان بنا مباشرةً إلى بيــتَــي النَّابغة اللَّــذَين قال فيهما [1] :

فَمَا الْــفُــرَاتُ وَإِنْ جَــاشَــتْ غَــوَارِبُــهُ

تَــرْمِي أَوَاذِيُّــهُ الْعِــبْــرِينِ بِالــزَّبَدِ [2] .

يَــوْمًا بِــأَجْوَدَ مِنْهُ ، سَــيْــبَ نَــافِــلَــةٍ

وَلاَ يَحُــولُ عَطَــاءُ الْــيَــومِ دُونَ غَدِ .

والتَّــأثُّر بقصــيدة النَّابِغَــةِ والإفادة منها ، والسَّرقة أمْرٌ واضــح في قصــــيدة الأخــطــل ، والمعاني والكلــمات التي أخــذها من قصــيدة النَّابِغَةِ متــنــاثرة وواضحة في أبيــات قصــيــدته (خَفَّ القطــينُ) .

*** ***

وبعد هذا الوصف الدَّقــيــق لقصيدة الأخطل أعــودُ إلى جريرٍ وإلى قصيــدته (قل لِلدِّيار سقى أطلالَكِ المطرُ) ، والتي نقض بها قصيدة الأخطل (خَفَّ الْقطينُ) ، وسبــب اختــياري لهذه القصــيدة هو أنَّــني استفدتُ منها عددًا كبــــيرًا مــن الأبيات التــي خدمتــني في الباب الأول من هذا البحث ، فكانت بمثابة اليــنــبوع الثَّــرِّ الغــزيرِ ، فقد كان العديد من أبيــاتها مجالاً خصْــبًا لِلتَّــعْــليــق والبحث والدراسة التي عُنِــيَــتْ بها مباحثُ الباب الأوّل . كما أنَّ هذه القصــيدة كانــت نقــيــضةً لقصيدةٍ من أهم قصائد الأخطل ، ومن أجودها ومــن أطــولها حيــثُ ركَّزَ الأخطلُ فيها جُــهْــدَهُ وموهبــته الشِّعريَّة ، وكانت مستودعًا لمعانيه الغزيرة ،

---

[1] شرح ديوان النَّــابغــة الذبــياني ، سيف الــدِّين الكــاتب ، أحمد عصــام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٥ .

[2] غواربه : جمع غارب وهو الموج المرتفع العالي .

الأواذيّ : الأمواج .

العِبران : الشَّطَّان والناحيتان .

وأساليــبه الرصيــنة لِتَخْــرُجَ في أجمــل حُلَّةٍ لاسيــما أنَّــهــا كانت في مــدح عبد الملك بن مروان ، وفي التَّــقَــرُّبِ إلى الأُمويِّــين ، ولم يعكِّر صــفوها – مــن الناحية البنائية والفنيَّة – سوى ما أشرتُ إليه سابقًا من فوضى ، وعدم ترتيب .

وقد رأيتُ من خلال قراءتي لنــقائض جرير والأخطــل أنَّ القصائد التي قالهــا جرير ليــنــقض بها قصائد للأخطل هي – في الغالب – أطول من قصائد الأخطل ، فإذا كانت قــصــيدة (خفَّ القطــينُ) أطول من قصــيدة (قل للــديار سقى أطلالك المطرُ) فهذا لا يعني أنَّ الأخطلَ أطول نَفَــسًا شعريًّــا من جرير فكــلاهما له منــزلته الشِّعــريَّة الكبــيرة التي لا يمكن لأحدٍ إنكارهــا .

ومن هنا أُبَــيِّــنُ ما وقَفْتُ عليه من حيث طول القــصائد وقصــــرها لِكِــلا الشَّاعرين في موضوع النَّــقائض التي كانت بيــنهما حيثُ رأيتُ أنَّ جريــرًا ربَّمــا نَقَضَ في مناســبة من المناســبات قصيدةً للأخطل بقصــيدةٍ أكثر منــها أبــياتًا ؛ كما في قصيــدته التي قال في مطلــعــها [1] :

وَدِّعْ أُمَــامَــةَ حَــــانَ مِــنْــكَ رَحِــيْــلُ

إِنَّ الْــوَدَاعَ مِنَ الْحَــبِــيْــبِ قَلِــيْــلُ .

فــقــد وَقَــعَتْ هذه النَّــقيضة – كما جاءت في نقــائض جرير والأخطل – في سبعةٍ وخمســين بــيتًا ، بيــنما كانت القصــيــدة التي نقــضــهــا للأخطل في أحد عشر بــيتًا فقط ، وهي قصيدة الأخطل الــتــي مطــلــعها [2] :

بِئْــسَ الْفَوَارِسُ عِنْدَ مُــخْــتَــلَــفِ الْقَــنَا

عِــدْلاَ الْحِــمَارِ مُحَــارِبٌ وَسَلُولُ [3] .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٨ ، وقد وَقَعَت هذه القصيدة في ثمانيةٍ وســتين بيتًــا في الديوان ، انظر ديوان جرير ، الصفحات : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

[2] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ ، وجاءت هذه القصيدة في الديوان في ثلاثةَ عشر بيتًا . انظر ديوان الأخطل ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

[3] محاربٌ وسلولُ : محارب بن خَصَفَة بن قيس بن عيلان ، وسلول بنت مرّة بن ذهــل بــن شيــبان . انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

وربَّمَا نــقــضَ جريرٌ قصــيــدةً للأخطل بقصــيــدةٍ أقلَّ منــها أبــيــــاتًا كما في قصــيــدته التــي مطلــعــها [1] :

أَجِــدَّكَ لاَ يَصْــحُــو الْــفُــؤَادُ الْمُــعَــلَّلُ

وَقَــدْ لاَحَ مِنْ شَــيْبٍ عِذَارٌ وَمِسْحَلُ [2] .

فقد وَقَعَتْ هذه القصــيدة في اثنــين وعشرين بــيتًا ، بــيــنــما وَقَعَــــتْ قصيدة الأخطل في تسعةٍ وســتــين بــيتًا كما جاء في نقائض جرير والأخطــل ، وهو تفاوتٌ كبــيرٌ في عدد أبيات القصــيــدتــين [3] .

وقد نظم جريرٌ قصيدته (قل لِلدِّيار) ، وجَعَل منها نقــيــضةً لقصيدة الأخطل (خَفَّ القطينُ) لِسَبَــبَين مهمَّــين ، السبب الأوّل : هو الدافع الدِّينــي والغَــيْرة الإيــمانيّة التي تُرْخص الغالي والنَّــفيس في سبــيل الدِّفاع عن الإسلام .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٤ .

[2] الْعِذَار : ما سال على الخدَّين من اللِحية ، والمسحلان فــوق ذلك وهما جانــبا اللحيــة . انظر المصدر السَّــابق ، نفس الصفحة .

[3] قال الأخطل في مطلعها :

عَفَا وَاسِطٌ من آل رَضْــوَى فَنَبْتَلُ فَمُجْتَمَعُ الْحُرَّيْنِ فَالصَّــبْرُ أَجْمَلُ .

انظر المصدر السَّابق ، ص ٤٨ ، ورضوى : امرأة . والحُرَّان : واديان .

وقد جاءت هذه القصــيــدة في ديوان الأخطل في واحدٍ وسبعين بيتًا . انظر ديوان الأخطل ، ص ٢٠٤ إلى ص ٢١٠ .

فها هي تلك الغيرة الإيمانيَّة تــتحرّك بقوَّةٍ عند جرير كما رأيناها تــتحرّك عنــد غيره من المسلمين فقد خرَجَ علينا كعادته عفيــفًا في غزله عنــدما رأى حــدود الله تُــنــتَهَك من قِبل الأخطل الذي هجا الأنصار – ﷺ – وانتقصَ من قدْرهم وحاول أن يثــير الفتــنة بين المسلمين من خلال التَّــذكير بما نزغ الشَّيطان بــيــــنهم ، ومن خلال تضخيم الأخطاء البســيــطة ، فكان جريرٌ مع كلّ ذلك منضــــبطاً في ردّه على الأخطل وهو السُّلُوك الذي ينــبــغي أن يكون عليه المسلم ، السُّلوك الذي يحمل صاحبه على عِــفَّــة اللسان ، والبعد عن خــــوارم المــروءة ، والحــــرص علــى احتــرام الــمــجالس والجالســين .

لقد جاء جريرٌ في سياق ردِّه على الأخطل بكلامٍ جميل ، وألفاظ لطيفة ، ففــؤاده مع أحبتهِ ، وهو حزينٌ تــثير فيه أطلال منازل الأحبة الذِّكْريات ، وتحرِّك الْعَبَرَات ، وهو متــيــقِّنٌ أنَّ إشفاقَهُ وحذرَه من رحيلهم لن يفيد شيئًا .

ولأنَّ قضيّة تعرّض الأخطل للأنصار–ﷺ–هي القضية الكُبرى عند جرير فقد تعمَّد في بناء قصيدته أن يفردها بالذِّكر دون غيرها من القضايا التي تعرّض لها الأخطــل ، فَذَبَّ عن الأنصار ، ودافع عنهم ، ولم يزاحم ذلك بالرَّد على ما أثاره الأخطل مــن قضايا كتعريضه بمقتل الحسين بن علي – رضي الله عنه – في الطَّف على سبيل المثال .

وفي إحجامه عن ذِكْرِ الخمرة ، وعن وصــف حالة السُّــكْر ، ونشوة السَّكْران ما يذكِّرُنا بدور الشَّاعر المسلم الذي يضْــرب عن ذِكْرِ كُلِّ محــــرَّمٍ صفــــحًا ، والذي يُنَــزِّه شعْرَهُ عن كُلِّ نقيصة فقد تَعَلَّمَ جريرٌ من الإسلام أنَّ الخمْرَ محرَّمةٌ وأنها أم الخبائث ، قــال تعــالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة : ٩٠ ، ٩١] . ولا شك أن جريرًا يعلم كثيرًا من أحاديث النَّبيِّ – ﷺ – التي فيها النَّهي الصَّريح عن التَّعاطي مع الخمرة بكلِّ الصور ، ومن تلك الأحاديث قول النَّبيِّ – ﷺ – : ((لعن الله الخمْرَ وشاربَها وساقيَها وبائعها ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه)) [1].

وجريرٌ لم يبدأ الأخطلَ بالهجاء وإنَّما كان في موقع الْمُدَافِع والرَّادِّ على مَنْ هجاه ، خاصَّةً أنَّنَا عَلِمْنا أنَّ الأخطلَ في قصيدته (خَفَّ القطينُ) قد تعرَّض للأنصار – ﷺ – فهجاهم تقرُّبًا لعبد الملك بن مروان وللأُمَويِّين الأمر الذي أثار حفيظة جرير ، وَحَرَّك فيه الحميَّة الإسلاميَّة ، وتذكَّرَ معه أنَّهُ على ثغْرةٍ لا ينبغي أن يؤتى الإسلام منها ، فانتصرَ للأنصار – ﷺ – وفي انتصاره لهم انتصار لرسول الله – ﷺ – وانتصار لدين الإسلام ، فقد قَدّم الأنصارُ – ﷺ – أرواحهم رخيصةً دون روحه – ﷺ – وناصروه وآووه .

كلُّ تلك الاعتبارات استوعبها جريرٌ فلم يجعل في قصيدته (قُلْ لِلدِّيار) حَيِّزًا لمدح قريب أو بعيد ، وإنَّما جَعَلَها وقْفًا لتكون سياطاً ملهبةً ، وسهامًا قاتلةً لمن تجرَّأَ على مَنْ قال فيهم رسولُ الله – ﷺ – : ((الأنصارُ لا يُحِبُّهُم إلاَّ مؤمنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُم إِلاَّ مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللّهُ)) [2] .

---

[1] انظر صحيح سنن أبي داوود باختصار السَّند ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٧٠٠ ، والحديث عن ابن عُمر .

[2] انظر صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

وما جاء عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النَّــبِــيِّ – صلى الله عليه وسلم – قــال : ((آيــةُ الإِيْمَانِ حُبُّ الأنصارِ ، وآيةُ النِّفَاقِ بغْضُ الأنصارِ)) [١] .

وَأَمَّا السَّبب الثَّاني الذي من أجْله يمكن أن يكون جريرٌ قد نظم قصــيدته فهــو العصبــيّة القبليّة التي نافح وناضل في سبــيلها كثيرًا خاصة في سياق هجائه لخصــمه الأخطل أو غيره من الخصوم . فالعصبيّة زادُ تقــتاتُ به النقائض ، ونَــهَر تغرف منه لِتُقيمَ صُلْبَها ، ويبدو أنَّ جريرًا وعى ذلك جيدًا فجاءت الكثير من قصائده مُطَعَّمَــةً بالفخر بالقيسيِّــين والإشادة بمآثرهم وبطولاتهم ، ولا غرو في ذلك فزمان جريرٍ ليس بعيدًا عن زمن الجاهليَّة فلا يمكن أن نــتصوَّر أن ينسلخ الرَّجُلُ عن طباع الجاهليَّــة مباشرةً أو أن ينفك عنها انفكاكًا كُليًا فيتخلّص من رواسبها بــين عشيَّة وضحاها ، فالتَّأثُّر بما شهده العصر الجاهلي كان واضحًا حتَّى في بناء جرير لقصيدته فقد رأيتُــهُ يلتــزم بتلك البداية التَّقليديّة التي اعتاد الشُّعراء الجاهليُّون أن يستهلُّوا بها قصــائدهم وهي البداية بذكر الأطلال والدِّيار والظَّعائن . ففي ذكْره للدِّيار ورؤيته لها ما يُذكره بأحبابه وهو شعورٌ نفسي ربَّما يشترك فيه النَّاس جميعًا حين يتذكَّر الإنســان بعــض الأشخاص أو المواقف أو الأزمنة أو غير ذلك بأشياء كانت مرتبطة بها ، فما إن يرى المرء هذه الأشياء حتَّى يستعيد بها مباشرةً ما ارتبطتْ به سلفًا من ذكريات .

ولم يُغْفل جريرٌ ذِكْرَ مُقَوِّمٍ من مقومات الحياة دَأَبَ الشُّعراء الجاهليُّون على ذِكره كثيرًا وهو المطر فجاء ذكْره له في صور مختلفةٍ حين قال [٢] :

أُسْــقِــيتِ مُحْــتَــفِلاً يَسْــتَــنُّ وَابِــلُــهُ
أَوْ هَــاطِــلاً مُرْثَــعِــنًّا صَــوْبُــهُ دِرَرُ .

---

[١] صحيح البخاري ، ص ٢٨٣ . وجاء عن أبــي هريــرة – رضي الله عنه – عن النَّــبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – أو قــال : أبــو القــاسم – صلى الله عليه وسلم – : ((لو أنَّ الأنصارَ سَلَكُوا واديًا أو شِعْــبًا لَسَلَكْتُ في وادي الأنصار ، ولولا الهجرةُ لكنــتُ امرأً من الأنــصــار)) . فقــال أبو هريرة : مَا ظَــلَمَ – بأبي وأمِّي – آوَوْهُ وَنَــصَــروهُ.أو كلمة أُخرى.انظر المصدر السَّــابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٢.

[٢] ديوان جرير ، ص ١٧٩ .

فهو مطرٌ يمتلئ الوادي سيلاً منه ، ويتصبَّب بغزارة ، أو يهطل مُرْثَعِنًّا أي مستمرًّا بطيئًا .

*** ***

ولقد أفصح لنا جريرٌ في قصيدته عن شخصيتين متغايرتين له حين فارقتْه حبيبته :

الأولى : حين يكون بمفرده ، فإنَّ قلْبه لم يعد له من همٍّ سوى التَّفكير في الحبيبة التي رَحَلَتْ عنه ، وفي ذلك يقول [1] :

إِنَّ الْفُؤَادَ مَعَ الظُّعنِ الَّتِي بَكَرَتْ

مِنْ ذِي طُلُوحٍ وَحَالَتْ دُونَهَا الْبُصَرُ [2] .

والشخصيّة الثَّانية : عندما يكون مع الناس فإنَّ أثر الحزن والهم يظهر على وجْهه ، الأمر الذي يجعل الناس الذين يرونه يتساءلون عن سبب حزنه فيردّ عليهم بأنَّ الوقت ليس مواتياً للتَّشَكِّي أو الأعذار ، وفي ذلك قال [3] :

قالُوا : لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ ! فَقُلْتُ لهم :

خَلُّوا الْمَلاَمَةَ لاَ شَكْوى وَلاَ عِذَرُ .

وفي مُقَدّمة قصيدة جرير تَبَيَّنَ لي أنَّهُ التقطَ صورًا عديدة لأحبائه أثناء سيرهم ورحيلهم تدلُّ هذه الصُّور على براعته وإتقانه ، وقد كانت على النحو التَّالي :

الصُّورة الأولى : مشهد النساء وَهُنَّ في الهوادج الْمُجْتَمِعَةِ ،

---

(1) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

(2) ذو طلوح : اسم لموضع .
البُصَرُ : الكُثْبَان الرَّمْلِيَّة .

(3) المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

قال جرير [١] :

إِنَّ الْخَلِـــيـــطَ أَجَــدَّ الْبَــيْـــنَ يَـــوْمَ غَـــدَوا

مِنْ دارَةِ الْجَـــأْبِ إِذْ أَحْــدَاجُهُم زُمَرُ [٢] .

الصُّورة الثَّانية : صورة لِمَا أحْدَثَــتْــهُ رياح الجنوب من تَخْــفــيــفٍ للعشْــب في أرض أحبــابه ، الأمر الذي جــعــلهم يرتــحلون إلى أرضٍ ليــست جدباء . وفي ذلك قــال جــريــر [٣] :

لَمَّا تَــرَفَّعَ مِنْ هَــيْــجِ الْجَــنُــوبِ لَــهُــمْ

رَدُّوا الْجِــمَالَ لإِصْــعَادٍ وَمَا انْحَــدَرُوا .

والهــيجُ هي الريح التي تعــصف بالعشب فيصــبح يابسًا ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ... ﴾ [الحديد : ٢٠] .

الصُّورة الثالثة : صورةٌ لِلْجِمَالِ التــي رَعَتْ في الرَّوض الْمُعْشِبِ حتَّى سَــمِنَتْ وذهبُ وَبَرُها ثمَّ نبتَ لها وَبَــرٌ جديدٌ غير الأول ، قــال جــريــر [٤] :

مِــنْ كُلِّ أَصْهَبَ أَسْــرَى فِي عَقَــيْــقَــتِــهِ

نَسْــقٌ مِنَ الرَّوْضِ حَــتَّى طُــيِّرَ الْوَبَرُ [٥] .

---

[١] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

[٢] الأحداج : مراكب النساء .

زمر : جماعات .

[٣] المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٤] المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٥] في عقيقته : في وَبَرِهِ الأوّل .

نَسْقٌ : سِمَنٌ .

الصُّورة الرَّابعة : صورةٌ التقطها جريرٌ لــتــلك الــنُّـــوق الكبــيـــرة فـــي سِـــنّـــها والتـــي هَـــزُلَـــتْ من طول الــمســيــر ، ومـــن بُعـــد المســافات ، فكـــأنَّـــها صارتْ جُرْبًا وطُلِـــيَتْ بالقار بكاملها ، وفي ذلك قال [١] :

بُزْلٌ كَأَنَّ الْكُحَـــيْـــلَ الصِّـــرْفَ ضَـــرَّجَهَـــا

حَيْثُ الْمَـــنَاكِبُ يَلْقَى رَجْعَهَا الْقَصَرُ [٢] .

الصُّورة الخامسة : صورة الْتَـــقَطَها جريرٌ للعُـــشْب وقد جـــفَّ إلاَّ في الأماكن التي لا تصيـــبها الشَّـــمْـــسُ ، وفي بطون الأوديـــة ، قـــال جـــريـــر [٣] :

أَبْـــصَـــرْنَ أَنَّ ظُـــهُـــورَ الأَرْضِ هَائِـــجَـــةٌ

وَقَـــلَّـــصَ الرَّطبُ إِلاَّ أَنْ يُـــرَى سِرَرُ [٤] .

الصُّورة السَّادسة : صورة التقطها جريرٌ بكلّ دقَّة ، وكأنَّما هو مُصَـــوِّر محتـــرفٌ حين التقط منظر أشجار الدَّوم وقد انعكس عليها السَّراب فجعلها تبدو متألقةً زاهيةً كأنَّما منظرها منظر الظَّعائن بما ترتديه من ثياب جميلةٍ برَّاقة . وفي ذلك قال جرير[٥]:

:

قَالُوا نَرَى الآلَ يَـــزْهَى الـــدَّومَ أَو ظُـــعُـــنًا ؛

---

[١] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

[٢] الكُحيل : الْقَطِرَان تُطْلى به الإبل الجربى .

الْقَصَر : الواحدة قصرة وهي أصل الْعُنُق .

البُزْل : النوق المسنَّة .

[٣] المصدر السَّـــابق ، نفس الصفحة .

[٤] هائجة : يابسة .

قَلَّصَ : اضمحلّ .

الرَّطب : البقل .

السِّرَرُ : بطون الأودية .

[٥] المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

يَا بُعْدَ مَنْــظَرِهِمْ ذَاكَ الَّــذِي نَــظَرُوا [1] .

وهذه الصُّورة تعكس مدى حزن جرير على فراق أحبـته لدرجة أنَّــه أصــبح يتــخيّل صورهم مُجَسَّمَةً في أشياء أخرى غيرهم ، وكأنَّه بذلك يعــيش أحــلام اليقــظة التي سرعان ما تــتلاشى وتخــتــفي .

والحقــيــقة أنّــي رأيتُ من خلال تلك الصُّور المخــتارة والمنــتــقاة بعنــاية فائــقــة ، مهارةَ جريرٍ في التَّــعبــير الدقيق عن نــفســيَّته وما يخــتلجها مــن مشاعر جيَّــاشة ، وهموم فيّــاضة ، فلم يعجز عن أن يصف وصفًا كامــلاً تلــك الحالة التي يعيــشها عنــدما فارقه أحبابه ، ولم يخــنْــهُ التَّعبــير مُطْــلقًا في الكشف عن كلِّ ما استــترَ في أعماق أعمــاق نــفســه ، بــل قــد أبــدع كثــيرًا عندما اختــتمَ تلك الصُّور بما يعــيشه ويحسّــه كل مَنْ يخــشى الفراق مِنْ رغبــةٍ جامــحــةٍ في أن يــتأخرَ الْمُــفَارِقُ قليلاً عن الرَّحيل ليــتلذَّذَ بــالجلوس معه ، أو الأنــس بالحديث إليه ولو لِوَقْــتٍ قصــير . وهذا مــا جعــل جريــرًا يصــوغ ذلك الشُّعورَ النَّــفْــســيَّ في قــولــه [2] :

نَادَى الْمُــنَــادِي بِــبَــيْنِ الْحَيِّ فَابْــتَــكَرُوا

مِنَّــا بُكُورًا فَمَــا ارْتَــابُوا وَمَا انْــتَظَرُوا .

فجرير يوضِّح في هذا البــيت سرعة رحيل الأحباب بمجرَّد أن نــادى الْمُنَــادي بالرَّحــيل ، ويــؤكد على تلك السُّــرْعَةِ بقــوله : فما ارتابوا ومــا انــتظروا ، وهذه الألفاظ التي اخــتارها جرير تعكس حرصه الشَّديد علــى تريــث أحبابــه ، وبقائهم في الحي ولو لِلَحــظــات .

كما أنَّ جريرًا حَــدَّثنا في مســتــهلِّ قصــيــدته عن الحــذر والخــوف اللَّــذَيْن ينــتــابان صاحب الشُّــعــور المرهــف الذي يمــتــلك إحســاسًا فريــدًا يهــتــدي به إلى معــرفة وتــوقُّع مــا ســيــحدث ، وهــذا الأمــر

---

[1] يزهى : يعلو ويرتفع . الدَّوم : شجر يشبه النَّخيل .

[2] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

يكـــشـــف لنا عـــن فِـــطْـــنَـــةٍ قـــويّـــة يمـــتـــلكها جـــريـــــر ويـــتـــــأكّد ذلك الأمـــر فـــي قـــولـــه [(١)] :

حَاذَرْتُ بَـــيْـــنَـــهُمُ بِالأَمْـــسِ إِذْ بَـــكَـــرُوا

مِنَّا ، وَمَا يَـــنْـــفَعُ الإِشْـــفَاقُ وَالْحَذَرُ [(٢)] .

فقد كان جريرٌ خائفًا من رحيل أحبابه ، وكأنَّه يحس بأنَّ رحيلهم سيحدث ولكن حذره وخوفه لم يُقَدِّما شيئًا فقد حدث الرَّحيل و لم يُجْدِ في ردّه شيءٌ .

وأخيرًا كانت الصُّورة التي التـــقطها جريرٌ لأحبـــته والتي لم يكد يظهـــر مـــن معالمها شيءٌ ، وإنَّما كانت مجرَّد رُتـــوشٍ وعـــلامات لا تكـــاد تُبـــين ، ومـــا ذاك إلاَّ بسبـــب البُعْـــد الشَّـــديد الذي ابتـــعده الأحبة بحـــيـــث لم يعد البَصَرُ يميزهم من جراء تلك الضبابـــيَّـــة التي تمخَّـــضت عن المسافة البعـــيدة التي ينـــقـــطع معها الْبَصَرُ ويفقد وظيـــفـــته فقال في ذلك جرير [(٣)] :

كَمْ دُونَـــهُمْ مِنْ ذُرَى تِـــيـــهٍ مُخَـــفِّـــقَـــةٍ

يَكَادُ يَـــنْشَـــقُّ عَنْ مَجْـــهُولِهَا الْبَصَرُ [(٤)] .

وما أُريد الوصول إليه من ذِكْرِ ما تَـــقَدّم هو أن جـــريرًا بـــدأ بناء قصـــيـــدته ((قل للديار)) بالوقوف على الأطلال ، والتَّعرض لألم الفراق وكان ذلك في ســـتةَ عشر بـــيتًا اعتمد فيها كما أسْلَفْتُ على التـــقاط صورٍ دقيقةٍ تَنُمُّ عن مشاعر نفسيَّة صادقة أسْعَـــفَـــتْهُ في رسمها التَّعابـــير الدَّقيقة الواضحة المعبِّرة عن كلِّ ما يريد قوله ، وعن كلِّ ما يخـــتلج في نفسه ، وفي ظني أنَّـــه تَفَوَّق كثـــيرًا على الأخطل في ذلك ، فلم يكن الأخطل في أبياته التي يذكر فيها الظَّعائن على ذاك الْقَدْر من الألم والوحْشة والصِّدْق الذي تبـــيـــنـــتُهُ في أبيات جرير ((أمَّا المقطع الذي يخـــصّ بـــه ارتحـــال

---

(١) ديوان جرير ، ص ١٨١ .

(٢) بَيْنَهُمُ : رحيلهم وبعدهم .

(٣) المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

(٤) التِّيه المخَفِّقة : الجبال البعيدة .

الظَّعائن ، فقد طغتْ عليه الأحداث وأســمــاء الأمكنة ، و لم تكد تـــتلامح لنــا لوعةُ الفراق وجهــشــة الوحشــة والنــأي ...)) [(١)] .

قال الأخطلُ في ذكر الظَّعــائــن والرَّاحــلــين [(٢)] :

خَفَّ الْقَــطِــينُ ، فَرَاحوا مِنْــكَ أَوْ بَــكَروا

وَأَزْعَجَــتْــهُمْ نــوًى فِي صَرْفِهَا غِيَرُ [(٣)] .

ثـــمَّ قـــــال [(٤)] :

شَوْقًا إِلَــيْــهِمْ ، وَوَجْــدًا يَوْمَ أُتْــبِــعُــهُمْ

طَرْفِي ، وَمِنْهُمْ بِجَــنْــبَيْ كَوْكَبٍ زُمَرُ [(٥)] .

حَثّــوا الْمَــطِيَّ ، فَوَلَّــتْــنَا مَــنَــاكِبَــهَا

وَفِي الْخُــدُورِ إِذَا بَاغَمْــتَــهَا الصُّوَرُ [(٦)] .

ثـــمَّ قال بعد ذلك [(٧)] :

شَــرَّقْنَ إِذْ عَــصَــرَ الْعِــيْــدَانَ بَارِحُــهَــا

وَأَيْبَسَتْ غَيْرَ مَجْرَى السِّــنّةِ ، الْخُضُرُ [(٨)] .

---

(١) انظر شرح ديــوان الأخطل التَّــغْلــبــيّ ، إيلــيا سليم الحــاوي ، دار الثَّــقَــــافة ، بــيروت ، لبــنان ، ص ١٦١ .

(٢) ديوان الأخطل ، ص ٨٨ .

(٣) القطين : القوم القاطنون سويًّا في مكان واحد .
نوًى : نيّة الفراق .

(٤) المصدر السَّابق ، ص ٨٩ .

(٥) كوكب : اسم موضع . زُمَرُ : جماعة .

(٦) باغَمــتَها : من بَغَمَ أصلــها في صوت الظبــية وهنا بمعنــى تكلــم بصوت رخيم . انظر انظر شرح ديوان الأخطل ، ص ١٦٤ .

(٧) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٨) شَرَّقنَ : ذهبن شرقًا . عَصَر العيدان : أيــبسها .
البارح : الريح الباردة التي تجفف الكلأ . (انظر شرح ديوان الأخطل التَّغلبي ، ص ١٦٥).

فَالْعَـــيْـــنُ عَانِـــيَـــةٌ بِالْمَاءِ تَـــسْـــفَـــحُـــهُ
مِنْ نِيَّـــةٍ فِي تَـــلاَقِي أَهْـــلِـــهَا ضَرَرُ [(١)] .
مُنْـــقَـــضِبِـــينَ انْقِضَابَ الْحَبْلِ ، يَتْـــبَعُـــهُمْ
مِنَ الشَّـــقيقِ ، وَعَيْنُ الْمَقْـــسَمِ الْوَطَرُ [(٢)] .
حَـــتَّى هَـــبَـــطْنَ مِنَ الْوَادِي لِغَـــضْـــبَـــتِـــهِ
أَرْضًا تَحُـــلُّ بِهَا شَـــيْـــبَـــانُ أَوْ غُبَرُ [(٣)] .
حَـــتَّى إِذَا هُـــنَّ وَرَّكْـــنَ الْقَـــصِـــيمَ وَقَـــدْ
أَشْرَفْنَ ، أَوْ قُلْنَ هَذَا الْخَـــنْدَقُ الْحَفَرُ [(٤)] .

وأنا إذ أسوق هذه الأبيات من قصيدة الأخطل ((خَفَّ القَطين)) الـــتي نقضَـــها جريرٌ فإنَّما أسوقها لبـــيان شُح العاطفة عند الأخطل ، وبالمقابل صِدْق عاطفة جرير ومقدرته على التَّعْبـــير عنها بما سبق ذكْره من صورٍ رائعة تبرز تفوقه على خصْمِه .

وقد استفاد جريرٌ من ذِكْر الأخطل لبعض المواضع والأماكن حين تحـــدَّث عـــن الرَّحيل والظَّعائن فرأيـــتُهُ يذكر موضعـــين اثـــنـــين هما ذو طُلُوح ودارَةُ الجـــأب ، فهو بذلك لم يكثر من ذِكر الأماكن في مقدمة قصيدته كتلك الكثرة في مقدمة قصيدة

(١) العانية : المعنَّاة .
تسفحه : تصبه .
(٢) منقضب : منقطع .
الشقيق : موضع .
عين المقسم : اسم بئر .
(٣) غضبته : جانبه .
غُبَرُ : من بني تميم .
(٤) وَرَّكْنَ : أي شارفْنَ .
القصيم : موضع .
خَنْدق : هو خندق سابور في بريَّة الكوفة (انظر شرح ديوان الأخطل التَّغلبي ، ص ١٦٦).
الحَفَر : المحفور .

الأخطل ، مِمَّا جَعَل الْجُهْد منصبًّا على وصف الظَّعائن والرَّحيل من جِهَةٍ ، وَمَكَّـــنَ للعـــاطفة الصَّادقة المعـــبِّرة أَنْ تجدَ مكانها في مقدمة قصيــــدته من جهـــة أُخرى .

وجريرٌ لم يقـــتصر في استــــفادته من قصيدة الأخطل على ذِكر الأماكن فَحَسْب بل قد رأيـــتُهُ يســـتـــفيد من بعض المعاني التي جاء بـــها الأخطل في قصـــــيدته ، وأذكر هنا أمثلةً على ذلك قول جرير [1] :

مِنْ دارَةِ الْجَـــأْبِ إِذْ أَحْـــدَاجُـــهُـــم زُمَـــرُ .

حيث اســـتـــفاد قوله : (إِذْ أَحْدَاجُـــهُـــم زُمَرُ) من قول الأخطل [2] :

وَمِـــنْـــهُمْ بِـــجَـــنْـــبَيْ كَوْكَـــبٍ زُمَـــرُ .

فكِلا المعنيـــين يدلاَّن على اجتماع الرَّاحلين وتكـــتُّلِهم ، وأيضًا كلمة (زُمَـــرُ) رأينا جريرًا يأتي بها كما جاء بها الأخطل ، بل إنَّه أوردها في البـــيت السَّادس مـــن قصـــيدته ، وقد وردت في قصيدة الأخطل في البـــيت السَّادس أيضا .

وجرير يُعَلِّل سبـــب رحيل أحبَّـــته بهبوب رياح الجـــنـــوب الـــتي جفَّـــــفَتِ العشبَ وجعلـــته يابسًا لا خـــير فيه فـــقـــال [3] :

لَمَّا تَـــرَفَّعَ مِنْ هَـــيْجِ الْجَـــنُـــوبِ لَـــهُـــمْ

رَدُّوا الْجِـــمَـــالَ لإِصْعَـــادٍ وَمَا انْحَدَروا .

وهذا المعنى الذي علل به جريرٌ رحيل الأحباب استـــفاده من قول الأخطل [4] :

شَـــرَّقْنَ إِذْ عَصَـــرَ الْعِـــيْـــدَانَ بَـــارِحُـــهَـــا

وَأَيْـــبَسَتْ غَيْرَ مَجْرَى السِّـــنَّةِ الْخُـــضَرُ .

فالظَّعائن رَحَلْنَ باتجاه الشَّرْق لأنَّ الرِّياح الشَّديدة عَصَفَت بالنَّباتـــات وَجَفَّفَـــتِ الكلأ فكان طبـــيـــعيًا أن يَرْحَلْنَ باتجاه الأماكن المعشـــبة المخضرّة .

---

[1] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

[2] ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

[3] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

[4] ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

واستــفــاد جرير من الأخطل ما عبَّــر عنــه بســــرعة رحيــل الأحبــاب والظَّــعــائن فــقــال [1] :

نَادَى الْمُــنَادِي بِــبَــيْنِ الْحَيِّ فَابْــتَــكَرُوا

مِــنَّا بُكُورًا فَمَا ارْتَــابُوا وَمَا انْــتَظَرُوا .

فَهُــنَّ أســرعن إلى الرَّحيل مبــاشــرةً ودون تــريّث بــمجرد أن طَــلَــبَ منــهــنَّ الْمُنَــادِي ذلك ، وهذا المعــنى يذهبُ بــــنا إلى البــيــــت الأول في قصيدة الأخــطــل حــيــث قــال [2] :

خَفَّ الْقَطِــينُ فَرَاحُــوا مِنْــكَ أَوْ بَــكَــرُوا

وَأَزْعَجَــتْهُمْ نَــوًى فِي صَــرْفِــهَا غِيَرُ .

فحين يقول الأخطل (خَفَّ) أي أسرعــوا في الرَّحيل دون تَأنٍّ أو تــريّــث .

وإذا نظــرنــا إلى تــقســيمات قصيدة جريــر وجدنــاها إجمــالاً تــتكوّن من التَّــقْســيمات التَّــاليــة :

١- ذِكْر الأطلال والرَّحيــل والظَّعــائن ، وكان ذلك في ستَّــةَ عشــرَ بــيتًا .

٢- الفخر ، وكان ذلك في أحدَ عشرَ بــيتًا متــتاليًــا .

٣- هجاء تغلب والدُّعاء عليهم في خمسة أبيات متــتالية .

٤- الفخر بقريــش والأنصار في بيــتــين متــتاليــين .

٥- الــفــخر فــي أربــعــة أبــيــات متــفــرقــة .

٦- هجاء الأخطل والتَّغْلبيِّــين في أربعة أبيات متــفرقة .

٧- هجاء التَّغْلبيِّــين في خمــســة أبــيات متــتــالية .

٨- هجاء التَّغْلبيِّــين في ثــلاثة أبــيــات متــتاليــة .

٩- هجاء الأخطل والتَّغْلبيِّــين في اثني عشر بيتًا متــتاليًا .

١٠- الجمع بين الفخر والهجاء في أربعة أبيــات متفرقة .

---

[1] ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

[2] ديوان الأخطل ، ص ٨٨ .

بينما كانت تقسيمات قصيدة الأخطل ((خَفَّ القطِين)) على النَّحو التالي [1] :

١- ذِكْر الرَّحـــيـــل في بـــيت واحدٍ .

٢- وصف الخمرة والسكران في أربعة أبيات متـــتالية .

٣- عودة إلى ذكر الرَّاحلين في بيـــتـــين متـــتاليـــين .

٤- رأيه في النِّـــساء في أربعـــة أبـــيات متـــتالـــيـــة .

٥- العـــودة إلى ذكـــر الظَّـــعائن في ستـــة أبـــيات .

٦- مباشرة المديح لعـــبد الملك بن مروان في أربعة أبـــيات متـــتالية .

٧- وصف كرم الخليفة عبد الملك بن مروان في أربعة أبيات متـــتالية .

٨- تهديد الوشاة في ثـــلاثة أبـــيات متـــتالية .

٩- العودة إلى مدح عبد الملك بن مروان في ستـــة أبيات متـــتالية .

١٠- مدح قريش في تســـعة أبـــيات متـــتالية .

١١- مخاطبة بني أمية في سبعة أبـــيات متـــتالية .

١٢- فخره بمناصرة الأُمويِّـــين في سبعة أبـــيات متـــتالية .

١٣- هجاء القيسيِّـــين وأحلافهم في ثلاثةَ عشرَ بـــيتًا متـــتاليًا .

١٤- هجاء بني كليب في أربعةَ عشرَ بـــيتًا متـــتاليًا .

فيصبح مجموع أبيات قصيدة الأخطل أربعةً وثمانـــين بـــيتًا [2] .

*** ***

وقبل أن أختم هذا المبحث أشـــيرُ هنـــا إلى أمْـــرٍ انتـــهجه جـــــريرٌ في بنـــاء قصيـــدته التي نـــقض بها قصـــيدة الأخطل ، وهـــذا الأمر ما أُسَـــمِّـــيه صـــراحةً

---

[1] انظر شرح ديوان الأخطل التغلبي ، ص ١٦٣ .

[2] هكذا كان مجموع أبيات قصيدة الأخطل ((خفَّ القطين)) كما جاء في شـــرح ديـــوان الأخطل التَّغلبـــي في الصفحات من ١٦٣ - ١٧٩ ، وقد سقط البـــيت التَّالي :

لاَ يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلاَّ رَيْثَ يَـــبْـــعَثُهُ   هَمُّ الْمُلُوكِ ، وَجَدٌّ هَابَهُ الْحَجَرُ .

وهذا البيت ضمن أبـــيات القصـــيـــدة كما جـــاء في ديـــــوان الأخـــطـــــل ، ص ٩١ ، وكما ورد في نقائض جرير والأخطل ، ص ١٥٢ .

باســـمه دون مواربةٍ أو تســـمـــية للأشياء بغـــير اسمها وهـــو السَّـــــرِقة مـــــن بعـــض أبـــيات الأخطل علـــى نـــحـــو قـــولـــه [١] :

الظَّاعِـــنُـــونَ على الْعَـــمْـــياءِ إنْ ظَـــعَـــنُوا

والسَّائِلُونَ بظَـــهْرِ الغَـــيْـــبِ : ما الخبرُ .

وقـــــولـــــه [٢] :

الآكلـــونَ خـــبـــيـــثَ الـــزَّادِ وَحْـــدَهُـــمُ

والنَّـــازِلُـــونَ إذَا وارَاهُـــمُ الْـــخَـــمَـــرُ .

حيث نلاحظ أَنَّ جريرًا سرقَ بيتًا كاملاً من قصيدة الأخطل فجعلَ شـــطْرَه الأوَّلَ شطرًا أوَّلَ في البيت الذي سبق قريبًا ، وَجَعَل شَطْرَه الثَّاني شطرًا ثانيًا في بيت آخـــر كما سبق . وهذا البيت الذي سرقه جرير من قصيدة الأخطل هو قول الأخطل [٣] :

الآكِلُـــونَ خـــبـــيـــثَ الـــزَّادِ وحْـــدَهُـــمُ

والسَّـــائلـــونَ بظهر الغـــيبِ : ما الخبرُ .

ولا أنسى أن أُبيِّنَ أنَّ جريرًا في قصائده التي ينقض بها قصائد الأخطل كان ملتزمًا بالقواعد والأُسس التي قام عليها فنُّ النَّـــقائضِ فقد رأيناه ينقض قصائد خصمه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزماً بالبحر والقافية والرَّويِّ كما في القصيدة التي ينـــــقضها ، وفـــوق ذلك فإنَّ الْمُلاَحَظ على ذلك النَّوع من قصائد جرير هو جانب السُّـــخْرية المفرطـــة المضحكة في الوقت نفسه كما قال الدكتور عبد المجيد الحرُّ : ((وما دمنـــا بصـــدد الهجاء فنـــقول بأنَّـــهُ إذا هجا ، كانت ألفاظه مشـــحونة بالسُّـــخْرية والاســـتهزاء تستعجل القارئ بالضَّحك قبل أن يفهم ما تضمَّنتْ من معنى))[٤] .

---

[١] ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

[٢] المصدر السَّابق ، نفس الصفحة .

[٣] ديوان الأخطل ، ص ٩٥ .

[٤] جرير رقّة الصِّياغة وعذوبة اللفظ وجزالة الشعر ، د. عبد المجيد الحُرّ ، دار الفكر العـــربي ، بـــيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـــ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

المبْحث الثَّالث

الصُّوَرُ و التَّرَاكِيبُ وَ الإِيْقَاعُ

أوَّلاً :

الصُّوَرُ و التَّراكيبُ

لا يستغني شاعرٌ يمتلك الإحساس المرهف ، و المشاعر الفيَّاضة عن الصُّور الفنيّة التي يوشّي بها قصائدهُ ، ويرصِّع بها أبياته .

وهذه الصُّور تقوم على الخيال ، وبقدر ما يمتلك الشَّاعر من قُدْرة على صياغة المعاني في صور من الأخيلة بقدر ما يبدع في إيصال هذه المعاني إلى المتلقي في أبهى الْحُلَلِ لتقع من نفسه موقعها المؤثِّر الذي لا يتأتى فيما لو أتت المعاني مُجرَّدَةً من الخيال .

ومصطلح الصُّورَة هو ((ما يدركه المتأمل في المعاني من فوارق دقيقة وشفيفة بين هيآتها وأشكالها ، وشِياتها ، وملامحها . وأشياء كثيرة غامضة يفترق بها المعنى في الذهن عن المعنى ، وتكون له في النفس بها هيأة لا تكون لغيره .)) [١]

وفي نقائض جرير مع الأخطل كان للصُّور الفنيَّة حضورها الذي لا بأس به ، لكنَّ هذا الحضور ليس على ذلك القدْر المتوقَّع لو أنَّ القصائد كانت في غرض الوصف ، أو من شاعرٍ يتحدَّث عن الطبيعة وما فيها من جبال و أنهارٍ وأشجار وجداول ...

ونَحن نعلم طبيعة النَّقائض ، وقيامها على غرضي الهجاء و الفخر ، وربَّما كانت الصُّور الفنيّة شحيحة – بحكم طبيعة المعاني – في هذين الغرضَيْن الشِّعْرِيَّين .

لكننا مع ذلك لا نعدم أن نجد صورًا فنيَّة أبدع في اختيارها جرير سواءً كان ذلك في تشبيهاته ، أو استعاراته ، أو كناياته ، أو غير ذلك .

وكان لتلك الصُّور أثرها الواضح في التعبير عن مكنون قلبه ، وما يدور في عقله ، إلى جانب عددٍ من التَّراكيب التي ظهرت في أبيات نقائضه ، وسوف أستعرض بعضًا منها قريبًا خلال هذا المبحث .

لكنني أبدأ أوَّلاً بالصُّور الفنيَّة ، ومنها :

---

[١] دراسة في البلاغة و الشِّعر ، د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، ص ٦٩ .

أ) **التَّشْبيه :**

وهو ((دلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى .)) [١]

وهو ((صفة الشَّيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنَّه لو ناسَبَهُ مناسبةً كُلِّيَةً لكان إيَّاهُ .)) [٢]

((والتَّشبيه يزيد المعنى وضوحًا ويُكْسِبُه تأكيدًا ، ولهذا أطبق جميع المتكلِّمين من العرب و العجم عليه ، و لم يسْتَغْنِ أحدٌ منهم عنه . وقد جاء عن القُدماء وأهل الجاهليَّة من كلِّ جيلٍ ما يُستَدلّ به على شرفه وفضْله وموقعه من البلاغة بكلِّ لسان .)) [٣]

و (أركان التَّشبيه أربعة هي :

١- المشَبَّه .

٢- المشَبَّه به . ويُسميَان ((طرَفي التَّشبيه)) .

٣- أداة التَّشبيه ، وهي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدَّرة .

٤- وجْه الشَّبَه ، وهو الصِّفَة أو الصِّفَات التي تجْمع بين الطَّرَفين) [٤]

ومن التَّشبيه في نقض جرير شِعْر الأخطل قوله [٥] :

وَرَدَا بِلاَدَكَ بِالْجِيَادِ كَأَنَّهَا
عِقْبَانُ مُدْجِنَةٍ نَفَضْنَ طِلاَلاَ . [6]

---

(١) الإيضاح في عُلوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق د: عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثَّانية ، ١٤٢٤هـ ، ص ١٨٨ .

(٢) العُمدة في محاسن الشِّعْر وآدابه ونقده ،ابن رشيق القيرواني، تحقيق د . عبدالحميد هنداوي ، المكتبة العصريَّة، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٥٢/١.

(٣) كتاب الصِّناعتين – الكتابة و الشِّعْر – ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : د/ مفيد قميحة ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ، ص ٢٦٥ .

(٤) علم المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النَّهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥هـ ، ص ٦٤ .

(٥) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٩٥ .

(٦) مُدْجِنَة : غيمَة . طِلالا : جمع طَلّ وهو قطرات المطر الخفيف .

فقد شبَّه جريرٌ جِيَادَ الــمُــهَــزَّمِ وابن الــحُبَاب في هيجانِها وَجَلَبَتِهَا وإقــدامها في المعركة بالعِقْبَان التي تنْفضُ الطَّــلَّ في يوم غائم .

وقال جرير [١] :

وَكَـــأَنَّ عَافِـــيَـــةَ النُّســُــورِ عَلَــيْــهِــمُ
حَجٌّ بِأَسْــفَـــلِ ذِي الْمَــجَـــازِ نُـــزُولُ .

حيث شَبَّهَ جريرُ اجتماع النُّسُور الكثيرة على جُثــث التَّغْلِبــيِّين في أرض المعركــة ، باجتماع الحجيج المهول حين ينـــزلون في سوق ذي المجاز .

وقال جرير [٢] :

أَوْ هـَـــاشِـــمٌ يَــوْمَ قَــادَ الْخَيْــلَ معْلِمــَــةً
فِي جَحــْــفَلٍ كَســَــوَادِ اللَّــيْلِ جــَــرَّارِ .

حيث شبَّه جرير الجحْفل في كثرته بسواد اللَّيل .

وقال جرير [٣] :

وَكَــأَنَّ تَغــْــلِبَ يَــوْمَ لاَقَتْ خَيـــْلَنـَـا
خِرْبـَـــانُ ذِي حُســُــمٍ لَقِيــْــنَ صُــقُــورَا .

شَــبَّه مُلاقاة تَغْلِب لِخَيْل القيسيِّين وفرسانِهم – تلك الملاقاة التي انْطَوَتْ على ضــعفٍ وَخَوَرٍ وهزيمة في تَغْلب – بملاقاة ذكور الــحُبارَى لِلصُّقُور في وادي ذي حُسُمٍ .

وقال جرير [٤] :

نَفَــضَتْ بِأَسْحـَــــمَ لِلْمِــرَاحِ شَلِيْلَهـَـا
نَفـْـــضَ النَّعـَـامَةِ زِفَّهـَـا الْمَمــْــطــُــورَا . [5]

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٧ .

[٢] المصْدر السَّابِق ، ص ١٤٥ .

[٣] المصْدر السَّابِق ، ص ١٢٥ .

[٤] المصْدر السَّابِق ، ص ١٢٠ .

[٥] الأسْحَم : ذَنب الدَّابة . الشَّلِيل : مسح من صوف أو شَعَر يوضع على عجز الدَّابة من وراء الرَّحْل زفَّها : ريشها .

في سياق ذِكْر جرير في مقدمته الطَّلَلِيَّة لِلرَّواحل التي تَحْمل الظَّاعِنِين فإنَّهُ يُشَــبِّه نَفْضَ النَّاقة بذنبها لما يُوضع على عجزها من صوف أو شَعَر أثناء لَعِبها بِنَفْضِ النَّعامــة لريشــها الــمُبَلَّل من المطر .

وقال جرير [1] :

إِذَا الأُفُــقُ الْغَــرْبِيُّ أَمْسَــى كَأَنَّــهُ

سَلاَ فَــرَسٍ شَــقْــرَاءَ مُكْــتَــئِبُ الْعَــصْبِ .

حيث شبَّه جريرٌ الأفق الغربي في حُمْرتِهِ بِسَلا الفرس الأحمر ، وهذه الــحُمْرة في الأفق الغربي أراد أن يعَــبِّر بــها جرير عن خلوِّ السَّماء من السَّحَاب الأمــر الذي يِنْذر بالفــقر و الفاقة و الجفاف ، ولكنَّهم مع ذلك باقُون على كرمهم .

وقال جرير [2] :

رُفِــعَ الْمَــطِيُّ بِكُلِّ أَشْــعَثَ شَاحِبٍ

خَلَــقِ الْقَمِيْــصِ تَخَــالُــهُ مُخــتَــالاَ .

فقد شُبِّه الرَّجُلُ الرَّاكِبُ على الــمَطِيَّةِ و الذي يتمايل يمينًا و شمالاً من فرْط النُّعــاس بالرَّجُلِ الذي يختالُ في مشيتهِ .

وقال جرير [3] :

إِنَّ الأُخَيْطِــلَ خِنْــزِيرٌ أَطَــافَ بِهِ

إِحْــدَى الدَّوَاهِــي الَّتِي تُخْشَى وَ تُــنْــتَظَرُ .

شبَّه جريرٌ الأخطَلَ بالخِنْزير ، فَطَرَفَا التَّشْــبيه همــا : الــمُشَــبَّه (الأُخيطــل) ، و المشبَّه به (الْــخِنْزير) ، وقد حُذِفَ وجْه الشَّــبَه و الأداة .

ويُعَدُّ هذا لمثال شاهداً على التَّشبيه البليغ .

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١١١ .

[2] المصْدر السَّابِق ، ص ٨٥ .

[3] المصْدر السَّابِق ، ص ١٧٥ .

فالتَّشبيه البليغ ((مَا حُذِفتْ منهُ الأَداةُ ووَجْهُ الشَّــبَه)) [١] ((وهو مظْهرٌ من مظــاهر البلاغة ، وميدان فسيح لتَسابُق المجيدين من الشُّعراء و الكُتَّاب)) [٢]

ب- الاستعارة :

وهي ((ما كانت علاقته تَشْبيه معناه بما وُضِعَ له .)) [٣] وعَرَّفها عبد القاهر الجرجاني فقال : ((اعْلم أنَّ الاستعارةَ في الــجُملة أن يكون للَّفْظ أصلٌ في الوضْع اللُّغويّ معــروفٌ تدُلُّ الشَّواهد على أنَّهُ اختُصَّ به حين وُضِعَ له ، ثمَّ يستعمله الشَّاعر أو غير الشَّاعر في غــير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعاريَّة)) [٤]

وتنقسم الاستعارة باعتبار ذكْر أحد طَرَفيها قِسْمَيْن ، هما :

١- استعارة تصريحيَّة : وهي أنْ ((تجْعَل الشَّيءَ الشَّيءَ ليس به)) [٥] .

٢-استعارة مكنيَّة : وهي أنْ تجْعَلَ ((للشَّيء الشَّيءَ ليس له)) [٦] .

ولتسهيل التَّعْريفَيْن السَّابِقَيْن نقول :

الاستعارة التَّصْريحيَّة ، ((وهيَ ما صُرِّحَ فيها بلَفْظِ المشبَّه به)) [٧]

و الاستعارة المكنيَّة ، ((وهي ما حُذِفَ فيها المشبَّهُ بِهِ ورُمِزَ لهُ بشيءٍ من لوازمِهِ)) [٨]

ومن شواهد القِسْمَيْن في شِعْر جرير الذي نَقَضَ به شِعْر الأخطل ما يلي :

---

[١] انظر البلاغة الواضحة ، على الجــارم ، مصــطفى أمــين ، دار المعــارف ، مصــر ، الطبعــة الحادية و العشرون ، ١٣٨٩هـــ ، ص ٢٥ .

[٢] المرجع السَّابق ، نفس الصفحة .

[٣] الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٤٠ .

[٤] أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمَّد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـــ ، ص ٣٠ .

[٥] كتاب دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمَّد شــاكر ، مطبعــة المــدني ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـــ ، ص ٦٧ .

[٦] المصْدر السَّابِق ، نفس الصفحة .

[٧] البلاغة الواضحة ، ص ٧٧ .

[٨] المرجع السَّابق ، نفس الصفحة .

أَوَّلاً : الاستعارة التَّصْريحيَّة :

قال جرير [1] :

إِنَّ الْهُـــذَيْـــلَ بِذِي بَهـــْــدَى تَدَارِكَـــهُ

لَيْثٌ إِذَا شَـــَـــدَّ مِنْ عَادَاتِـــــهِ الظَّـــفَـــَــرُ .

شبَّه جريرٌ الرَّجُلَ الشُّجَاعَ باللَّيث ، ثُمَّ تناسى التَّشْبيه ، واعتبرَ أنَّ هذا الرَّجُل الشُّجاع من جِنْس اللّـــيُوث في الشَّجاعة و الإقدام و القوَّة ، ثُمَّ أطْلَق على المشبَّه لفظ المشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصْريحيَّة .

وقال جرير [2] :

حَتَّى سَمـــِــعْتُ بِخِنـــْــزِيرٍ ضَغَا جَزَعـــًا

فَقُلْتُ : إِنِّي أَرَى الأَمـــْــوَاتَ قَدْ نُشـــِــرُوا .

شبَّه جريرٌ الأخطلَ بالخنـــزير بجامع القُبْح في الصَّوت بينهما ، ثُمَّ تَنَاســـى التَّشْـــبيه ، واعتَبَرَ أنَّ الأخطلَ من جِنْس الخنازير شكلاً وقذارةً وقبحًا في الصَّوت ، ثمَّ أطْلَق على المشبِّه لفظ المشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصْريحيَّة .

ثانياً : الاستعارة المكنيَّة :

قال جرير [3] :

أَحْيـــَـــاؤُهُـــمْ شـــَــرُّ أَحْيَاءٍ وَ أَلأَمـــُـــهُ

وَ الأَرْضُ تَلْفـــِـــظُ مَوْتـــَاهُمْ إِذَا قـــُـــبـــِـــرُوا .

فنلحظ أنَّ جريرًا شبَّه الأرضَ بالكائن الحَيِّ ، فَـــذَكَرَ المشـــبَّه (الأرض) ، وحـــذف المشبَّه به (الكائن الْحَي) ، وجاء بشيءٍ من لوازمه (اللَّفظ) ، على ســـبيل الاســـتعارة المكْنِيَّة .

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧١ .

[2] المصْدر السَّابِق ، ص ١٧٤ .

[3] المصْدر السَّابِق ، ص ١٧٧ .

وقال جرير [(١)] :

وَرَأَيْتُ رَاحِلَةَ الصِّبَا قَدْ أَقْصَرَتْ

بَعْدَ الذَّمِيلِ ، وَمَلَّتِ التِّرْحَالاَ .

حيث شبَّه الصِّبَا بِجِهَةٍ من جهات المسير ، فذكر المشبَّهَ (الصِّبَا) ، وحذف المشبَّه بِهِ (جهة من جهات المسير) ، وجاء بشيءٍ من لوازمه (الرَّاحِلة) على سبيل الاستعارة المكْنِيَّة .

* * *

ج- **الْكِنَاية :**

وهي ((أن يريد الْمُتَكَلِّم إثباتَ مَعْنًى من المَعَانِي ، فَلاَ يَذْكره باللَّفْظ الموضوع له في اللُّغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود ، فيومِئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه)) [(٢)]

و ((الكِنَايةُ : لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ ، كقولك ، ((فلان طويل النِّجاد)) أي طويل الْقَامةِ و ((فلانة نؤوم الضُّحَى)) أي مرفَّهة مخدومة)) [(٣)] .

و ((تنقَسِمُ الكِنَايةُ باعتبار المكْنِيِّ عَنْهُ ثلاثة أَقْسَام ، فَإِنَّ الْمَكْنِيَّ عنه قد يَكونُ صِفَةً ، وَقَدْ يكون موصوفًا ، وقد يَكونُ نِسْبَة)) [(٤)]

وسوف أَذْكر على كُلِّ قِسْمٍ من أقسام الكناية ما يدلّ عليه من نقائض جرير مع الأخطل .

* * *

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٦٦ .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٧٣ .

(٤) البلاغة الواضحة ، ص ١٢٥ .

أوَّلاً : الكِنَاية على صِفَة :

قال جرير [1] :

و التَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى

حَكَّ اسْتَهُ ، وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالاَ .

فهُنَا كناية عن صفة البُخْل عند التَّغْلِبِيِّين – كما يقول جرير – فالتَّنَحْنُح وتمثُّل الأمثال عند القِرى من علامات البخيل .

وقال جرير [2] :

هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشعَرًا

أَوْ تَنْزِلُونَ مِنَ الأَرَاكِ ظِلاَلاَ ؟

إنَّه يُكنِّي عن صِفَةٍ عند التَّغْلِبِيِّين ، وهي عَدَم التَّديُّن بدين الإسلام ، فقد كنَّى عن تلك الصِّفَة بِأنَّهُم لا يملكون مثل تلك المشاعر المقدسة التي عند المسلمين ولا يقفون بِعَرَفَة كما يقف المسلمون في اليوم التَّاسع من ذي الحجّة لأداء الرُّكن الأعظم من أركان الحجِّ .

وقال [3] :

وَلَّوْا ظُهُورَهُمُ الأَسِنَّةَ وَ الْقَنَا

قُبحًا لِتِلْكَ عَوَاتِقًا وَ ظُهُورَا .

فقد كنَّى جريرٌ في هذا البيت عن صِفة الجُبْن و الخوف عند التَّغْلِبِيِّين بقوله : ولَّوا ظهورهم ... وتلك علامة الجبان حين يُوَلِّي ظهْرَه هاربًا من ميدان المعركة . وقد حذَّر الله في كِتَابه الكريم المؤمنين من أن يُوَلّوا ظهورهم الكُفَّار في وقت الزَّحْف ، فقال تَعَالى : [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ**

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٩ .

[2] المصْدر السَّابِق ، ص ٩٢ .

[3] المصْدر السَّابِق ، ص ١٢٥ .

يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ] {الأنفال: ١٥ ، ١٦} .

وقال جرير [١] :

قَدْ أَطْلُبُ الْحَاجَةَ الْقُصْوَى فَأُدْرِكُهَا
وَلَسْتُ لِلْجَارَةِ الدُّنْيَا بِزَوَّارِ .

فهو يُكَنِّي عن صِفَةٍ أصيلةٍ من صِفَاته ، وهي صِفة الْعِفَّة ، فهو مُسْلِمٌ يثني وَطَرًا عن الحرام ، ويحرص كُلّ الحرص على عِرْض جارته .

وقال [٢] :

إِنَّا وَ أُمِّكَ مَا تُرْجَى ظُلَامَتُنَا
عِنْدَ الْحِفَاظِ ، وَمَا فِي عَظْمِنَا خَوَرُ .

فجرير يُكَنِّي بقوله : وَمَا فِي عَظْمِنَا خَوَرُ ، عن صِفَةٍ وهي القُوَّة .

وقال كذلك [٣] :

وَالآكِلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحْدَهُمُ
وَ النَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَمَرُ .

يُكَنِّي جرير عن صفةٍ ذميمة عند التَّغْلبيِّين ، وهي صفة البخْل الشَّديد عندما يَتَخَفَّون وراء الأشجار الكثيفة حتَّى لا يراهم أحد ، ويأكلون وحدهم ما يناسب طباعهم القبيحة من لحْم الخنازير .

* * *

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٠ .

(٢) المصْدر السَّابِق ، ص ١٧٠ .

(٣) المصْدر السَّابِق ، ص ١٧٣ .

ثانيًا : الْكِنَايةُ عن موصُوفٍ :

قال جرير [١] :

عُقَـــابُ الْمَـــنَـــايَا تَسْتَـــدِيرُ عَلَيْهِـــــمُ

وَشُعْثُ الـــنَّـــوَاصِي لُجْمُهـــُـــنَّ تُصَـــلْـــصِلُ .

شُعْثُ النَّوَاصِي : كنايــة عـــن الخيـــول الـــتي تفـــرَّقَ شَـــعَرُ نواصـــيها بســـبب شراسة المعركة وضراوتِها .

وقال [٢] :

رُفِـــــعَ الْمَـــطِيُّ بِكـــُـــلِّ أَشْعَثَ شَـــاحِبٍ

خَلَـــقِ الْقَـــمِـــيصِ ، تَخَـــالُـــهُ مُخْتَـــــالاَ .

أَشْعَث شاحب : كناية عن موصـــوف ، وهـــو الرَّاكـــب الْمُجْهَـــد مـــن طـــول المسير ، وتعب الرَّحيل حتَّى تَفَرَّق شَعَرُ رأسِهِ ، وحَــــــتَّى اعْتَـــرَاهُ الْهُـــزَال في جَسَـــدِهِ ، وتَغَيَّرَ لونُ وجْهه .

وقال [٣] :

إِنَّا لَنَـــبْـــلُو سُـــيُوفـــًا غَيـــْـــرَ مُحْـــدَثَةٍ

فِي كُـــلِّ مُعْـــتَـــقِـــدِ التَّاجَـــيْـــنِ جَبَّـــارِ .

مُعْتَقِد التَّاجَيْن جَبَّار : كناية عن موصوف ، وهُم الْمُلُوك وأصحاب السُّلْطان .

وقال [٤] :

عَايَـــنْتُ مُشْـــعِـــلَةَ الرَّعِيْـــلِ كَأَنـــَّـهَـــا

طَيـــْـــرٌ تُبَـــادِرُ فِي شَـــمَـــــامَ وُكـــُـــورَا [5].

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ٦٨ .

[٢]المصْدر السَّابِق ، ص ٨٥ .

[٣]المصْدر السَّابِق ، ص ١٤٧ .

[٤]المصْدر السَّابِق ، ص ١٢٤ .

[٥] الْمُشْعِلَة : الْمُتَفَرِّقة .   الرَّعيل : قِطْعَةٌ من الخيل .   شَمَام : جَبَلٌ .

مُشْعِلَة الرَّعيل : كناية عن خيول التَغْلِبيِّين المهزومة و الْمتَفَرِّقة وكأنَّها الطيور المسْرِعة إلى أوكارها في الجبال .

ثالثًا : الْكِنَاية عن نِسْبَةٍ :

قال جرير [1] :

تَسَرْبَلُوا اللُّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمُ

ثُمَّ ارْتَدَوْا بِثِيَابِ اللُّؤْمِ وَاتَّزَرُوا .

فَفِي البيت كناية عن نسْبة ، حيث نَسَبَ اللؤمَ إلى جلود التَّغْلِبيِّين وثيابِهم بينما أرادهم باللؤم و قصَدهم .

فجرير أراد أن يخصَّ التَّغْلِبيِّين بهذه الْخَصْلَة الذّميمة ، وأنْ يُثْبِتَهَا لهم وهذا هو – في الحقيقة – الجمال الذي جاءت به هذه الصُّورة المتمثِّلة في الكناية إذ لو عبَّر جرير عن هذه الخصْلة التي عند التَّغْلِبيِّين بصريح اللَّفْظِ وَنَسَبَهَا إليهم مباشرة لَمَا ظَهَرَت الصُّورة كما ينبغي ، وَلَمَا كان لها ذاك الأثر الملحوظ و المعبِّر .

* * *

ومن التَّراكيب التي وظَّفَهَا جريرٌ في شعره الذي نقض به شعر الأخطل :

١–الطِّباق :

وهو ((الْجَمْعُ بين الْمتَضَادَّين ، أي مُتَقَابِلَين في الجملة)) [2] وقد استخدم جرير هذا التَّركيبَ كثيرًا ، ومن شواهد ذلك :

١– قال جرير [3] :

وَ الشَّاتِمُونَ بَنِي بَكْرٍ إِذَا بَطِنُوا

وَ الْجَانِحُونَ إِلَى بَكْرٍ إِذَا افْتَقَرُوا .

فنلْحظ الطِّباق بين كَلِمَتَيَ (بطنوا) و (افتقروا) .

---

(1) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٢ .

(2) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٨٨ .

(3) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٣ .

٢- وقال [١] :

تَخــْــدِي إِذَا عَــلَــمُ الْــفَــلاَةِ رَأَيْــتَــهُ

فِي الآلِ يَقْــصُــرُ تَــارَةً وَيَــطُــولُ[2].

في البيت طباق بين لفظتي (يقصر و يطول) .

٣- وقال جرير [٣] :

جَــعَــلْــنَ الْقَصْــدَ عَنْ شَطِبٍ يَمِــيْــنًا

وَعَنْ أَجــْــمَــادِ ذِي بَقَــرٍ شِــمَــالاَ .

نلْحظ الطِّباق بين لفظتَي (يمينًا و شمالاَ) .

٤- وقال [٤] :

فَجَــعَــلْــنَ برْقَــةَ عَاقِــلَــيْــنِ أَيَامِــنــًا

وَجَــعَــلْــنَ أَمْــعَــزَ رَامَتَــيْنِ شِــمَــالاَ . [5]

هنا طباق بين (أيامنًا و شِمالاَ) .

٥- وقال [٦] :

فَتَــحْــيَا مَــرَّةً ، وَتَــمُــوتُ أُخــْــرَى ،

وَتَنْــحَــاهَــا الْبَــوَارِحُ و الْقِــطَــارُ . [7]

هنا طباق بين (تــحْيا و تموت) .

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨١ .

[٢] تخدي : الوخْدُ ضربٌ من السَّير . الآل : السَّراب .

[٣] المصْدر السَّابِق ، ص ١٩١ .

[٤] المصْدر السَّابِق ، ص ٨٥ .

[٥] برْقة : موضع . عَاقِل : جَبَلٌ وثــنَّاه هنا للضرورة .

أمْعز : الأرض ذات الحصى . رَامَةُ : موضع وثــنَّاها – أيضًا – للضَّرورة .

[٦] المصْدر السَّابِق ، ص ١٣١ .

[٧] البوارح : الرياح . القِطارُ : السَّحاب الكثير القطْر .

٦- وقال [١] :

لاَ يَأْمَــنَــنَّ قَــوِيٌّ نَقْــضَ مِــرَّتِهِ

إِنِّي أَرَى الدَّهْــرَ ذا نَقْــضٍ وَإِمْــرَارِ [٢].

نلْحظ الطِّباق بين لفظتَي (نقْض و إِمْرار) .

٢-الْمُقَابَلة :

وهي من التَّراكيب التي استخدمها جرير في نقائضه مع الأخطل على نطاقٍ ضيّق .

وقد قال عنها ابن رشيق : ((وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطى أوّل الكلام ما يليق به أوَّلاً ، وآخره ما يليق به آخرًا ، ويأتي في الموافق بما يوافقه ، وفي المخالف بما يخالفه .)) [٣]

ومن شواهدها في القرآن الكريم ، قوله تعالى : [فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا] {التوبة:٨٢} .

ومن شواهدها في نقْض جرير شعر الأخطل ، قوله [٤] :

تُخَــبِّــرُ مَنْ لاَقَــيْتَ أَنَّكَ لَمْ تُصِــبْ

عِثَــارًا ، وَقَــدْ لاَقَــيْــتَ نكْبًــا عَلَى نَكْبِ .

فهنا مقابلة بين (لم تُصِب عثارًا) و (قد لاقيت نكبًا على نكْب) .

وقال جرير [٥] :

أُحِــبُّ الظَّــاعِــنِــيْــنَ غَــدَاةَ قَــوٍّ

وَلاَ أَهْــوَى الْمُــقِــيــمَ بِــهِ الْحِــلاَلاَ .

مقابلة بين (أحب الظَّاعِنِيْن) و (ولا أهْوَى المقِيمَ) .

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٠ .

[٢] نقْض : فَك .		إمرار : الرَّبْط بقوّة .

[٣] العُمدة في محاسن الشِّعر و آدابه و نقْده ، ٢٣/٢ .

[٤] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١١٤ .

[٥] المصْدر السَّابِق ، ص ١٩٢ .

ومن أجمل المقابلات التي رأيتُها في شِعْر جرير الذي نقض به شِعر الأخطل ، قوله [1]:

تَلْـقَـاهُـمُ حُلَمـَاءَ عَنْ أَعْدَائِهِـمْ
وَعَلَـى الصَّـدِيْـقِ تَـرَاهُـمُ جُـهَّـالاَ .

فهي مقابلة بين شَطْري البيت .

٣–الاقتباس :

لا أتصوَّرُ أن يخلوَ شِعْرُ شاعرٍ كجرير من الاستفادة من القرآن الكريم ، أو الحديث الشَّريف ، لاسيَّما أنَّني أثبَتُّ خلال ما سبق من صفحات هذا البحث أنَّ الرَّجُلَ كان مُتَأَثِّرًا بالإسلام في شِعْره تأثُّرًا ملحوظًا ، وزاد من وضوح هذا التأثُّر ما رأيتُهُ في بعض أبياته الموجودة في النَّقائض من اقتباس من القرآن أو الحديث ، بل ربَّما قرأتُ بيتًا من تلك الأبيات لِلْوهْلة الأولى فذهب بي مباشرةً إلى نصٍّ في القرآن الكريم ،و إلى كلمات بعينها لا يمكن أن أقول معها إلاَّ أنَّ جريرًا تعمَّد ذلك الاقتباس وأراد الاستفادة من ذلك النَّص القرآني وهو ينظم بيته ، ومثل ذلك أقوله في استفادته من نصوص الحديث الشَّريف .

و الاقتباس هو : ((تَضْمِينُ النَّثْرِ أو الشِّعْر شيئًا من القرآن الكريم ، أو الحديث الشَّريف من غير دلالةٍ على أنَّه منهما ، ويَجُوزُ أنْ يُغَيِّرَ في الأثر الْمُقْتَبَس قليلاً)) [2]

ومن النَّماذج في نقض جرير شِعْر الأخطل على هذا التَّركيب ، وهذه الظَّاهرة ما يلي :

١– قال جرير [3] :

هَلْ تَمْـلِـكُـونَ مِنَ الْمَشَـاعِرِ مَشْعَـرًا
أَوْ تَـنْـزِلُـونَ مِنَ الأَرَاكِ ظِـلاَلاَ ؟

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص٩٦ .

[2] البلاغة الواضحة ، ص ٢٧٠ .

[3] نقائض جرير و الأخطل ، ص ٩٢ .

فنلاحظ كلمة (الْمَشَاعر) و كلمة (مشْعرًا) فهما من الألفاظ الإسلاميَّة التي عرفها المسلمون من خلال الكتاب و السُّنَّة ، وقد اقتبسَهمَا جرير من مثل قوله تعالى : [لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ] {البقرة:١٩٨} .

٢- قال جرير [(١)] :

الضَّارِبُونَ عَلَى النَّصَارَى جِزْيَةً

وَهُدًى لِمَنْ تَبِعَ الْكِتَابَ وَنُورَا .

لا شَكَّ في أنَّ جريرًا قد اقْتَبَسَ كلمات في هذا البيت من القرآن الكريم ، بل ومن الكلمات الكثيرة الورود في كتاب الله ، وهي (جزْية ، هدًى ، الكتاب ، نورا) ، فكلمة (جزْية) وَرَدَتْ كما في قوله تعالى : [قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ] {التوبة:٢٩} .

وكلمة (صاغرون) في الآية الكريم تذكرنا باقتباس جرير لها في قوله [(٢)] :

أَدِّ الْجِزَى وَدَعِ الْفَخَارَ بِتَغْلِبٍ

وَاخْسَأْ بِمَنْزِلَةِ الذَّلِيْلِ الصَّاغِرِ .

وأمَّا الشَّطْر الثَّاني من بيت جرير السَّابق ، وهو قوله : (وهُدًى لمن تَبع الكتاب ونورًا) ففيه ثلاث كلمات اقتبسها جرير من مِثْل قوله تعالى : [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ {المائدة:١٥} ، وقوله تعالى : [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ...] {الأنعام:٩١} .

---

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٢٤ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

٣- وقال جرير [1] :

اللهُ طَــوَّقَكَ الْخِـــــلاَفَــةَ وَ الْــهــُــدَى

وَ اللهُ لَــيْــسَ لِمــَا قَضــَــى تَــبـْـــدِيــلُ .

فقوله : و الله ليس لما قضى تبديل ، اقتباس من القــرآن الكــريم مــن مثــل قولــه تعالى : [لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ] {يونس:٦٤} ، وقولــه تعالى : [هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] {غافر : ٦٨} .

٤- وقال جرير [2] :

تَبِعُــوا الضَّــلاَلَــةَ نَاكِــبِيْنَ عَنِ الْهُــدَى

و التَّــغْــلِــبِــيُّ عَنِ الْقُــرَانِ ضــَــلُــولُ .

إنَّ كَلِمتَي (الضَّلالة) و (الْهُدَى) قد اقتبسَهُمَا جريرٌ من قوله تعالى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ]. {البقرة : ١٦} .

٥- وقال جرير [3] :

يُعْــطَى كِتَــابَ حِــسَابِــهِ بِشِمــَالِــهِ

وَكِتــَــابُنـَـا بِــأَكــُــفِّــنَــا الأَيــْــمــَانِ .

إنَّ هذا البيت كاملاً لا يخفى على أحدٍ أنَّ جريرًا قد اقتبَسَ بعض كلماته كما اقتــبس معناه من آيتَين في سورة الحاقة ، وهما قوله تعالى : [فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ] {الحاقَّة:١٩} ، وقوله تعالى : [وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ] {الحاقَّة:٢٥} .

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٣ .

[2] المصْدر السَّابِق ، ص ١٨٤ .

[3] المصْدر السَّابِق ، ص ٢٠٨ .

٦- وقال جرير [١] :

مُوتُــوا مِنَ الْغَــيْــظِ غَمًّا فِي جَزِيْــرَتِــكُــمْ

لَنْ تَــقْــطَــعُــوا بَطْــنَ وَادٍ دُوْنَــــهُ مُضَــرُ .

نلحظ الاقتباس الواضح في قول جرير : (موتوا من الغيظ) ، وهو اقتباسٌ من القــرآن الكـــريم ، مـــن قولــــه تعــــالى : [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] {آل عمران:١١٩} .

هذا في جانب اقتباس جرير من القرآن الكريم ، أمَّا اقتباسه من الحديث الشَّريف فيكفي أن أشير إلى استخدامه لكلمة (مُصْفَح) ، في قوله [٢] :

لَقَــدْ سُــلَّ أسْيَــافُ الْهُــذَيْــلِ عَلَيكُــمُ

رِقَــاقَ النَّــوَاحِــي ، لَيْــسَ فِيْــهِنَّ مُصْــفِحُ .

فقد اقتبسها من الحديث الشَّريف الذي جاء فيه قول سَعْد بن عبادة : ((لو رأيتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عنهُ)) [٣] والمصْــفِح الذي يضرب بعرض السَّيف .

* * *

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٣ .

[٢] ديوان جرير ، ص ٧٩ .

[٣] انظر صحيح مسلم ، كتاب اللِّعان ، ص ٦١٨ .

ثانياً :

الإِيْــقَــاعُ

تمهيد :

عَرَّفَ ابنُ خَلْدون الشِّعْرَ بقوله : ((الشِّعْرُ هو الْكلاَمُ البليغُ المبنِـيُّ علـى الاسـتعارة والأوصافِ ، المفصَّلُ بأجزاءٍ مُتَّفِقَةٍ في الوزن والرَّوِيِّ ، مُسْتَقِلٍّ كلّ جزْءٍ منـها في غَرَضِـهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَه ، الْجَارِي على أساليبِ العربِ المخصوصَةِ بِهِ))[1]

و (الشِّعْرُ هو الكلامُ الموزون الْمُقَفَّى ، المعبِّر عن الأخيلَةِ البديعة ، والصُّـوَر المـؤثرة البليغة) . [2] وهو فنٌّ جميلٌ يخاطب في أغلـب أحوالـه العاطفـةَ ، ويـؤثِّر في المشـاعر والوجدان ، ويزداد حُسْنُهُ إذا أبدعَ الشَّاعِرُ في تَخَيُّرِ ألفاظه ، واعتنى بتركيـب كلماتـه ، وأجادَ في توالي مقاطِعِهِ وانسجامها بحيث تُحْدِث ذلك النَّغَم الـذي تطـرب لـه الآذان الذَّوَّاقة ، وتأنس به الأحاسيس المرهفة . فهو – في النهاية – صورة جميلة بديعة من صـور الكلام .

((ويُحَدِّثُنا مَنْ كَتَبُوا في عِلْم النَّفْس الموسيقي عن كيفيَّة شعور المـرء بـنَغَم الكـلام فيقولون : إنَّ هنالك ميلاً غريزيًّا في كل كتْلة من عدَّة مقاطع تشبه الفقرات القِصـار ، أو العبارات الصَّغيرة . فقد نسمعُ في عشر من الثَّواني ما يكاد يبلغ خمسين مقطعًـا صـوتيًّا ، تسمعها الأذنُ فتلْتَقِطُهَا كُتَلاً من المقاطع تطولُ أو تقصر ، فإذا تَرَدَّدتْ في أواخر هذه الكُتَل الصوتيَّة مقاطع بعينها شَعَرْنَا بسهولة ترديدها ، وأَحْسَسْنَا بغبطةٍ وسرورٍ حـين سماعهـا ، وبعثَ هذا فينا الرِّضا والاطمئنان إليها .)) . [3]

ومن خلال ما سبق يتبيَّنُ لنا أنَّ من أهمِّ ما يميِّز الشِّعر هو تلك الموسيقى المنبعثة نتيجـةً لِلنَّغَمِ والوزن و القافية ، فهي إمَّا أن تكون موسيقى داخليَّة أو موسيقى خارجيّة ، وهنالك الموسيقى الصَّادرة من المقاطع الصوتيَّة أو من الكلمات ، وربَّما من الحروف . فقد يكـون للحرف الواحد أثره الكبير في صُنْع موسيقى خاصَّة مؤثرة في الكلمة بأكملها ومِـنْ ثَمَّ في

---

[1] مقدّمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩٢ .

[2] تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزَّيَّات ، ص ٢٥ .

[3] موسيقى الشِّعر ، د : إبراهيم أنيس ، مكتبـة الأنجلـو المصـريَّة ، القـاهرة ، مصـر ، الطبعـة الرابعة ، ص ١١ .

البيت الذي هو جزءٌ من قصيدة تزداد حُسنًا بِحُسْنِ هذا البيت الذي حَسُنَتْ كلماتُهُ بِحُسْنِ حروفها .

وما أُريد الوصول إليه هو ذلك الإيقاع الذي تميَّزت به قصائد جرير التي نَقَضَ بها قصائد للأخطل ، وكيف كان لذلك الإيقاع أثره العميق في مجريات القصيدة ، فجرير أَحْسَنَ وأجاد في اختيار الكلمات التي تخدم هَدَفَه ، وتُحَقِّق الغاية التي تاق إليها في هجائه وتبْكيته للأخطل ، وما كان للكثير من الكلمات أن تُحَقِّقَ الهدفَ المرجوَّ منها إلاَّ من خلال الإجادة كذلك في اختيار الحرف المناسب المُحَقِّقِ للغرض المراد تحقيقه .

و ((الشَّاعِرُ يَسْعَى إلى التَّعْبير عن معانٍ مختلفةٍ من خلال بنيَةٍ إيقاعيَّة متكرِّرة في البيت ، وكلَّما وُفِّق الشَّاعرُ في التَّعبير عن هذه المعاني في نطاق بنية إيقاعيَّة واحدة ، كلَّما كان ذلك أقرب إلى الكمال ...)) .[1]

وقد وَعَى جرير هذه الحقيقة فجاءنا شِعْرُه في الهجاء قَوِيًّا ذا أَلْفَاظٍ جزْلة غليظة تستمدّ جزالتها وقوَّتها من حروف تحْمل صفات القوَّة والشِّدَّة .

وبالتَّالي فإنَّ هذه الصِّفات التي حَمَلَتْها الحروف والكلمات في نقْض جرير شِعْرَ الأخطل ، والتي هي صفات الجزالة والقوَّة – كما أسْلَفْتُ – كان لها تأثيرها الواضح في نفس الأخطل ، وكانت باعثةً لِلْحَمَاس والإثارة في نفوس السَّامعين مِمَّن كانوا يحضرون تلك اللقاءات الشِّعْرِيَّةِ بين الشَّاعِرَين .

ولا شَكَّ أنَّ تلك الألفاظ القويَّة حَمَلَتْ معها معاني هي من القوَّة والجزالة بحيث زلزلت الأخطل عندما سماعها وَجَعَلَتْهُ يتأرجح أمامها . ومن هنا كان حقًّا ((اللفظُ جسمٌ ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوَّتِهِ . فإذا سَلِمَ المعنى واختلَّ بعض اللَّفظ كان نقصًا لِلشِّعْرِ وهجْنَة عليه ...)) .[2]

---

[1] انظر محاضرات الموسم الثَّقافي لكلية اللغة العربيّة ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٢هـ ، ص ١٧٢ .

[2] العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده ، ١/ ١١٢ .

وبالتَّأمل في نقض جرير شِعْر الأخطل وجدتُ أنَّ جريرًا كان متمكِّنًا ومتقنًا لصنعته حيث لم يغفل موسيقى اللَّفظ وجرْسه بل اهتم بذلك اهتمامًا كبيرًا واكبه اهتمامه – أيضًا – بموسيقى الحرف ، الأمر الذي استطاع معه أن يعبِّر عن أفكاره ، ومكنون نفسه ، وعاطفته تعبيرًا صادقًا ؛ ومن ذلك ما نلحظه في قوله [1] :

إِذَا الـزَّمَـانُ زَمَـانٌ لاَ يُـقَـارِبُـهُ

هَذَا الـزَّمَـانُ وَإِذْ فِـي وَحْشِـهِ غِـرَرُ . [2]

فإذا سمع السَّامع ألفاظ هذا البيت توقَّف عند كلمة (الزَّمان) التي جاءت مرَّتين بالتَّعْريف ، ومرَّة بالتَّنْكير (زمانٌ) ، فهي بذلك كُرِّرتْ في بيت واحد ثلاث مرات ، فإذا تأملنا هذه الكلمة بأكملها استشعرنا الشَّكْوى المريرة ، والهموم المتلاحقة التي يعيشها جرير ، كما يعيشها غيره ، وتقلَّبَتْ أمامنا صروف الزَّمان ، وأهوالُه ومصائبه وخطوبه ، فجرير يشكو من الزَّمن وغفلته ، وظلمه ، وجوره ، واعتدائه ، كما يشكو منه الْبَشَرُ على مرِّ التأريخ .

وإذا نظرْنا إلى حروف كلمة (الزَّمان) ، لاحَظْنَا صوت (الزَّاي) المشَدَّد ، وما فيه من صفات الجهْر الذي له تأثيره الواضح على أُذن السَّامع ، يُضاف إلى ذلك ما تَوَلَّد من موسيقى ناتجة من تكْرار هذا الحرف مرَّتين بالتَّشديد ، ومرَّة بدون تشديد.

وفي كلمة (الزَّمان) يستوقف السَّامع حرف المدِّ (الألف) الذي جاء ثلاث مرّات ، وهذا المدّ وتكراره يوحيان بطول هذا الزَّمان ، وما يحْمله هذا الطُّول من همومٍ وصروفٍ ومصائب .

وفي كلمة (الزَّمان) نتوقّف – كذلك – عند صفةٍ جديدةٍ لصوتٍ جديد وَظّفَهُ جريرٌ بعناية فائقة ، وهو صوت حرف النُّون في آخر الكلمة ، فهذا الحرف وما فيه من رِقَّة وهدوء ، وثبات ، واستقرار يوحِي للسَّامع بأَنَّ هذا الاستقرار من أعباء الزَّمان جاء بعد مُدَدٍ طويلةٍ ، وَحِقَبٍ مُتَتَالِيَةٍ ، وأحداثٍ متتابعة ، متلاحقة ، مليئة بالحياةِ ، والحركة، والتَّقلُّبات ، والتَّغيُّرَات .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

[2] غِرَرُ : جَمْع غِرَّة وهي الْغَفْلَة .

وقبل أن أتجاوز هذا البيت نَلْحظ تكرُّر حرف الذَّال في ثلاث كلمات هي : إِذَا ، إِذ ، هذا ، وهذا الحرف يدلُّ على الجهْر والحركة ، وهذا التَّكرار لصوت (الـذَّال) يشعرنا بتكرار وتلاحق وتتابع أحداث الزَّمان .

ولنا أن نتأمَّل كلمة (وَحْشِهِ) ، وكلمة (غِرَرُ) ، وما فيهما من إيحاءٍ بـهول الزَّمن وصعوبته وهمومه .

إنَّ الجرْس الموسيقي للحروف في هذا البيت نَقَل لنا المعنى الذي يريـده جريـر نقْـلاً واضحًا لا لبس فيه ، بحيث أدَّتْ تلك الحروف المعنى المراد الذي لا يمكن لحروف غيرها أن تؤديَه ، وهذه من البراعة المعهودة عند جرير .

وفي نفس القصيدة ينتقل جرير إلى هجاء الأخطل بِبَيْتٍ تبرز فيه موسـيقى أخـرى ، ويظهر فيه جرْس آخر لِلَفْظٍ وقع موقعه في نفس المهجوِّ ، حيث قال [1] :

إِنَّ الأُخَـيْـطِـلَ خِـنْـزِيـرٌ أَطَـافَ بِـهِ

إِحْـدَى الدَّوَاهِـي الَّتـِي تُخْـشَـى وَتُنْتَـظَرُ .

إِنَّنَا حين نَسْمَعُ كَلِمَة (خِنْزِير) في البيت السَّابق نستحضر معَهَا المعنى القبـيح لهـا ، وتذهب نفوسُنَا مذهبها في تَخَيُّل صورة ذلك الحيوان الْقَذِر الـذي تنفـر منـه الطِّبـاع السَّليمة ، وتشمئز منه النفوس المسلمة .

فصوت هذه الكلمة وجرْسُها تغْلب عليهما الكَسْرة ، حيث نلحـظ فيهـا حَـرْفين مكْسُورَيْن هما (الخاء) ، (والزَّاي) لدرجة الـمَدّ بالياء بعدها ، ويفْصل بـين هـذين الحرْفين المكسورَيْن سكون (النُّون) ، فإذا لاحظْنَا أنَّ هذه الكلمة قد غَلَبَ عليها صـوت الكَسْر علاوةً على معناها القبيح في النَّفس ، تبيَّن للسَّامع ما تحمله الكسْرة من معاني الذِّلَّـة والانكسار ، والضَّعَة ، والقبح ، والحقارة ، والخنوع .

ولعل كلمة (خِنْزِير) في بيت جرير السَّابق تُذَكِّرنا بترقيق الرَّاء في كلمة (فِرْعون) في القرآن الكريم ، وهو ما يدلّ على الحقارة ، والذِّلَّة ، والصَّغار ، لمن ادَّعى أنَّه الإِلَه ، وَطَغَى ، وتَكَبَّر ؛ كما قال تعالى :[وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ] {الأعراف:١٣٧} ، وقال تعالى : [وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ]

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٥ .

{هود:٩٧} ، والآيات التي جاءت فيها لفظة فرعون كثيرة ، وهي لا تكون إلا مرققة الراء .

ولِمَا عَلِمَهُ جرير في شدَّة وقْع كلمة (خِنْزِير) على نفس الأخطل فقــد أكْثَــرَ مــن ذكْرها ، وأمثلة ذلك كثيرة فيما مرَّ بنا خلال مباحث هذه الرِّسالة، الأمر الذي أرى معــه الاكتفاء بذكر تلك الشَّواهد فيما سبق وعدم تكرارها هنا .

وفي الشَّطْر الثَّاني من البيت السَّابق يلْفت انتباه السَّامِع جرْسٌ موسيقيٌّ آخر ناتج عــن كلمة (تُنْتَظَرُ) ، حيث إنَّ الانتظار يُشْعِرُ بالْقَلَق والتَّرَدُّد والارتباك والملل .

وفي تكرار جرير لصوت (التَّاء) مرَّتين في هذا الفِعْل مع الفصْــل بينــهما بــالنُّون السَّاكنة ، ما يُوحي بتلاؤم المعنى في الكلمة حيث القلق و الارتبــاك والتَّــردُّد والشُّــعور بالخوف مِمَّا يُنْتَظَر .

وفي قول جرير [1] :

وَالْمُقْــرِعُــونَ عَلَــى الْخِنْزِيْــرِ مَيْســرَهُمْ

بِئْسَ الْجَــزُورُ وَبِئْــسَ الْقَــوْمُ إِذْ جَــزَرُوا .

نلحظ موسيقى كلمة (المقرعون) ، فهذه الموسيقى تحاكي مــا يحصــل في عمليَّــة الاقتراع ، وهذه الموسيقى ناتجة من صوت (القاف) و (الرَّاء) و (العــين) ، فكأنَّهــا حروف في هذا السِّياق تحاكي ما يحصل من صَخَبٍ وَجَلَبَةٍ وضَجِيْجٍ عند الاقتراع .

وفي قول جرير [2] :

وَمَقْتُوْلَــةٍ صَبْــرًا تَرَى عِــنْــدَ رِجْلِهــَا

بَقِيــرًا ، وَأُخــْــرَى ذَاتُ بِنــْتٍ تُــوَلْــوِلُ .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

[2] المصْدر السَّابق ، ص ٦٨ .

وقوله [1] :

عُقَـابُ الْمَنَـايَـا تَسْتَـدِيـرُ عَلَيْهِـمُ

وَشُـعْثُ النَّوَاصِـي لُجْمُـهُـنَّ تُصَـلْصِـلُ .

وقوله [2] :

والتَّغْـلِـبِيُّ إِذَا تَنَحْنَـحَ لِلْقِـرَى

حَكَّ اسْـتَـهُ ، وَتَمَـثَّـلَ الأَمْثَـالاَ .

تلفتُ أسماعَنَا أجْراس بعض الألفاظ مثل : (تُوَلْوِلُ) ، (تُصَلْصِلُ) ، (تَنَحْـنَحَ) ، حيث إِنَّنَا نجدُ فيها الموسيقى ، فمِنْ تكرار حروفها وأصواتها ما يُحاكي أصوات أفعالها ، فكلمة (تُوَلْوِل) تحاكي صوت الحدث نفسه ، وهو ما تفعله المرأة من وَلْوَلةٍ عندما تُفْجَـعُ من أيِّ حَدَث .

وفي صوت كلمة (تُصَلْصِلُ) ما يحاكي صوت اللِّجام وما يصدر عنه مـن صَلْصَـلَةٍ فكيف إذا كانت هذه الصَّلْصَلَةُ ناتجة عن لُجُمٍ كَثِيرَةٍ ؟!! .

وكذلك نقول في كلمة (تَنَحْنَحَ) ، فحروف هذه اللَّفظة تُحاكي ما يحصل من البخيل من نَحْنَحَةٍ تُغنيه عن الكلام الذي يريد أن يقوله . ونلحظ – كذلك – الموسيقى الناتجة عن كلمتي (تَمَثَّلَ) ، (الأمثالاَ) ، وما في ذلك من إراحةٍ للأذن .

وقال جرير هاجياً الأخطل [3] :

تَصَلَّـيْـتَ بِالنَّـارِ الَّتِـي يَصْطَلِـي بِهَـا

فَـأَرْدَاكَ فِيْـهَـا ، وَافْتَـدَى بِـكَ مِـنْ حَرْبِي .

فمجيء حرف (الصَّاد) مع حرف (الطَّاء) في كلمة (يصْطَلِي) يُشْعِرُ بالاصطلاء وهو العذاب في النَّار ، ومن ذلك قوله تعالى : [**لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى**] {**الليل:١٥**} ، وقوله تعالى : [**إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ**] {**الصَّافات:١٦٣**} ، وقوله تعالى : [**ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ**] {**الحاقَّة:٣١**} .

---

[1] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٨ .

[2] المصْدر السَّابق ، ص ٨٩ .

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١١٤ .

فالفعل (يصطلي) يحاكي صوت النَّار .

الوزن والقافية والبديع في نَقْض جرير شِعْرَ الأخطل :

إنَّ أبرز ما يميِّز الشِّعْر عن النَّثْر هي تلك الإيقاعات والنَّغمـــات والموســـيقى ، وهـــذه النَّغمات تتمثَّل في الأوزان والتّفعيلات الموجودة في البيت الشِّعْري .

وهناك القافية و ((هي السَّاكِنان اللَّذان في آخر البيت مع ما بينـــهما مـــن الحـــروف المتحركة ، ومع المتحرِّك الذي قبل السَّاكن الأوّل ، أي أنَّها من المتحرِّك قبل السَّاكِنَيْن إلى آخر البيت)) . (١) وهي ((المقاطع الصوتيَّة التي تكون في أواخر أبيـــات القصـــيدة ، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت)) . (٢)

كل ذلك له أثره على السَّامع حيث يلفت انتباهه ، ويجذبه لاستماع القصيدة مِمَّا يجعل هذا السَّامع يتوق لمعرفة معاني القصيدة وبالتَّالي دخول تلك المعاني إلى عقله وقلبه .

((وقد أعان الخليل على تثبيت هذه الأوزان وضبطها بالمقاطع التي دعاهـــا بالتَّفاعيـــل وتصنيفها إلى البحور المعروفة ، معرفتُهُ بالإيقاع والنَّغَم .)) (٣)

وهكذا يتبيَّن لنا الأثر المهم لتذوق الموسيقى الشعريَّة على السَّامع واهتمـــام الشُّـــعراء بالنَّغم والإيقاع إلى جانب اهتمامهم بالمعاني التي تصل إلى القلوب والأذهان عـــن طريـــق الإجادة في النَّغَم و الموسيقى .

أمَّا إذا جئنا إلى فنِّ النَّقائض فإنَّنا نجد الشَّاعِر وخصمه يمثِّلان فريقين لكل فريـــق مَـــنْ يشجِّعُهُ ويؤازره ، ويطرب لقصائده . من أجل ذلك كان لزامًا على كُلِّ شاعِرٍ أن يهتمَّ بمن يشجعه إلى جانب اهتمامه بأن تصبحَ له مكانته المرموقة وذلك من خلال اهتمامه باختيـــار قصائده بكل عناية بأن يُحْسن اختيار البحر المناسب ، والقافية المناسبة .

---

(١) العَرُوض القديم أوزان الشِّعْر العربي وقوافيه ، د: محمود علي السَّمَّان ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٥ .

(٢) علم العَروض و القافية ، د: عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٧هـــ ، ص ١٣٤ .

(٣) فن التَّقطيع الشِّعْري و القافية ، د: صفاء خلوصي ، مكتبة المثَّنى ، بغـــداد ، الطبعـــة الخامســـة ، ١٩٧٧م ، ص ٩ .

فإذا استيقنَ من ذلك واطمأنَّ إليه كان أمر وصول المعاني إلى أذهان السَّامعين أمرًا سهلاً ويسيرًا .

ولعل أبرز ما يُقابلنا في موسيقى الشِّعْر (الْعَرُوض) :

و (الْعَرُوض لغةً : عَرُوضُ الشِّعْر وهي فواصِلُ أنصاف الشِّعْر وهو آخر النصف الأول من البيت ، والجمع أعاريض ، وسُمِّيَ عَرُوضًا لأنَّ الشِّعْر يعرض عليه ، فهو ميزانه يُعرف به مكسورة من موزونة .) [1]

* * *

- **البحور** :

وإذا جئنا إلى قصائد جرير وجدْنا أنَّه نوَّع في البحور الشِّعْريَّة التي يستخدمها ، فالنَّفْس البشريَّة جُبِلتْ على حبِّ التنويع ، وهذا ما وضعه جرير نصب عينيه ((ففي ديوان جرير ما يقرب من ٥٧٠٠ من الأبيات موزَّعة حسب النِّسَب الآتية :

الطويل ٣١% الكامل ٢٩% الوافر ٢٣% البسيط ١٦% الرَّجز ٢% المتقارب ١% وقد جاء بجزأي الديوان ما يقرب من ٣٩ بيتًا من البحر السريع .)) [2]

تسع قصائد ذكرها أبو تَّمام في كتابه ((نقائض جرير و الأخطل)) ، نَقَضَ بها جريرٌ قصائدَ الأخْطل ، وقد كانت تلك القصائد من حيث البحور ، على النَّحْو التَّالي :

ثلاث قصائد على بَحْر الكامل ، وقصيدتان على بَحْر الطَّويل ، وقصيدتان على بَحْر البسيط ، وقصيدتان على بَحْر الوافر .

* * *

---

[1] التّوضيح في علم العَروض و القافية ، د: على نجيب عطوي ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ، ص ٣٩ .

[2] موسيقى الشِّعر ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

❖ **أولاً : بـحْـر الكامل :**

و ((سُمِّيَ كَامِلاً لتكَامُل حركاته ، وهي ثلاثون حركة ليس في الشِّعْر شيءٌ له ثلاثون حركة غيره .)) [١]

ووزن هذا البحر هو [٢] :

مُتَفَـاعِلُـنْ مُتَفَـاعِلُـنْ مُـتَفَـاعِلُـنْ

مُـتَـفَـاعِلُـنْ مُـتَـفَـاعِلُـنْ مُتَفَـاعِلُـنْ .

وقد ذَكَرَ جريرٌ على هذا البحر سبعةً وخمسين بيتًا في قصيدته التي مطلعها [٣] :

وَدِّعْ أُمَامَـةَ حَـانَ مِنـْـكَ رَحِيـْـلُ

إِنَّ الـوَدَاعَ مِـنَ الْحَبِـيـْـبِ قَلِـيـْـلُ .

واثنين و أربعين بيتًا في قصيدته التي مطْلعها [٤] :

رَحَـلَ الْخَلِيـْـطُ فَزَايَـلُوكَ بُكُورَا

وَحَـسِبْتَ بَيْنَـهُـمُ عَلَيـْـكَ يَسِـيرَا .

وثمانية وخمسين بيتًا في قصيدته التي مطْلعها [٥] :

حَـيِّ الْغَـدَاةَ بِرَامَـةَ الأَطْـلاَلاَ

رَسْـمًا تَحَـمَّـلَ أَهْـلُـهُ فَأَحَـالاَ .

ولا يخْفَى ما في هذا البحْر من القوَّة و الفَخَامة بحيث يكون مناسبًا لِغَرَضَـي الهجـاء و الفخْر ، الأمر الذي حدا بجريرٍ إلى أن يُكْثِرَ من نظْم قصائده التي نقضَ بـهـا قصـائد الأخطل عليه .

---

[١] التَّوضيح في علم العَرُوض و القافية ، ص ٦٠ .

[٢] المرجع السَّابق ، نفس الصفحة .

[٣] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٨ .

[٤] المصْدر السَّابق ، ص ١١٩ .

[٥] المصْدر السَّابق ، ص ٨٣ .

يقول جرير [١] :

قَيْـسٌ وَخِنْـدِفُ إِنْ عَـدَدْتَ فِعَالَـهُـمْ
خَيْـرٌ وَأَكْـرَمُ مِنْ أَبِيـكَ فعَـالاَ .
إِنْ حَرَّمُـوكَ لَقَـدْ حَـرُمْتَ عَـلَى الْعِدَى
أَوْ حَـلَّـلُوكَ لَتـُؤْكَـلَـنَّ حَـلاَلاَ .
هَـلْ تَمْـلِكُـونَ مِنَ الْمَشَاعِـرِ مَشْعَرًا
أَو تَـنْـزِلُـونَ مِـنَ الأَرَاكِ ظِـلاَلاَ ؟

نلاحظ قُوَّة الفخر و الهجاء ، وحصول الانسيابيَّة العفويَّة النَّاتِجة عـن طواعيـة بحْـر الكامل لِغَرَضي الهجاء و الفخر .

ومن ذلك – أيضًا – قول جرير [٢] :

كَـذَبَ الأُخَيْـطِلُ مَا لِنِسْـوَةِ تَغْـلِبٍ
حَامِـي الذِّمَـارِ ، وَمَـا يَـغَـارُ حَلِيْـلُ .
إِذْ ظَـلَّ يَحْسَـبُ كُلَّ شَخْـصٍ فَارِسًا
وَيَـرَى نَعَـامَةَ ظِـلِّـهِ فَيَـجُـولُ .

نلاحظ قوَّة الهجاء في قول جرير : (كذب الأخيطل) ، وفي قولـه : (ومـا يغـار حليلُ) ، وكذلك في قوله : (ويرى نعامة ظله فيجول) ، وزاد من هذه القوَّة أن كانـت تلك العبارات على بحر الكامل بما فيه من فخامة ، وجلجلة في أوزانه .

❖ ثانياً : بحْر البسيط :

و ((سُمِّيَ بسيطًا ، لأنَّ الأسباب انبسطتْ في أجزائه السُّباعيَّة ، فَحَصَلَ في أَوَّل كـلّ جزء من أجزائه السُّباعيَّة سببان ، فسمِّيَ لذلك بسيطًا . وقيل : سُمِّي بسيطًا ، لانبسـاط الحركات في عروضه و ضربه)) [٣] .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٢ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٦٨ .

[٣] الوافي في العَرُوض و القوافي ، الخطيب التّبريزي ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق، سورية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ ، ص٥٤ .

و ((وزن الشَّطْر في هذا البحر هو : مستفعلن + فاعلن + مستفعلن + فـــاعلن)) [1]

وقد نظم جريرٌ على هذا البحر قصيدتين من أروع قصائده التي نَقَـضَ بهـا قصـائد للأخطل ، كانت القصيدة الأولى في ستِّين بيتًا ، وهي قصيدته التي مطلعها [2] :

قُلْ لِلـدِّيَـارِ : سَقَـى أَطْـلاَلَكِ الْمَطَـرُ

قَدْ هِجْـتِ شَوْقًـا ، وَمَـاذَا تَنْفَـعُ الذِّكَـرُ ؟ .

وكانت الثَّانية ، في خمسة و أربعين بيتًا ، وهي القصيدة التي قال في مطلعها [3] :

حَيُّـوا الْـمُقَـامَ ، وَحَيُّـوا سَاكِـنَ الدَّارِ ،

مَا كِـدْتَ تَـعْـرِفُ إِلاَّ بَعْـدَ إِنْكَـارِ .

فنلاحظ أنَّ جريرًا قد أبدعَ في كُلٍّ من القصيدتَيْن ، لا سيَّما في قصيدته ((قُل لِلدِّيار : سَقَى أَطْلاَلَكِ المطرُ)) ، رغم أنَّهُ لم يقم باختيار هـذا البحر ، وإنَّما فُرِضَ عليه فرْضـًا . ((أَمَّا عن فنِّ الشَّاعِرَين في هذه المناقضة فيلاحظ أنَّ الأخطلَ كان حُرًّا في اختيـار البحـر والقافية إذ كان هو البادئ ، فاضطر جريرٌ أن يتابعه فيهما ، وفي إمكان الأخطل أن ينفـقَ من الوقت ما يشاء في تنميق قصيدته بعكس جرير الذي يجب عليه أن يسرع في الرَّدِّ قبـل فَوَات الأوان .)) [4]

ولعل هذه القصيدة قد نالت حظَّها من الشَّرْح و التَّحليل عندما تحدَّثْتُ فيما سبق عـن بناء القصيدة ، غير أن نظْمَها على بحْر البسيط أضفى عليها قوَّةً وجزالة .

إنَّ جريرًا – وفي فترةٍ وجيزة – استطاع أن يردَّ على خَصْمِه ردًّا عنيفًا ، ومن خـلال ذلك البحْر الذي اختاره الخصْمُ نفسُهُ ، فأتى جريـرٌ بعبـارات كالصَّـواعق في هجـاء الأخطل ، لم يستطع معها هذا الأخير أن يدافع عن نفسه أمـام تلـك الأبيـات المتتاليـة و المتلاحقة ، و التي تحمل في مقاطعها ردودًا لم يكن يتوقعها ، فإذا تأملنا قـول جريـر : تَسَرْبَلُوا اللُّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمُ ، وقوله : رِجْسٌ يكُونُ إِذَا صَلَّوا ، وقوله : حتَّى سَـمِعْتُ

---

[1] موسيقى الشِّعر ، ص ٧١ .

[2] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

[3] المصْدر السَّابق ، ص ١٤٠ .

[4] تاريخ النَّقائض في الشِّعر العربي ، ص ٣٩٧ .

بِخِنْزِيرٍ ضَغَا جَزَعًا ، وقوله : إنَّ الأُخَ . . . .يْطِلَ خِنْزِيرٌ ... وَجَدْنَا أَنَّها عبارات قويَّةٌ تُمثِّل قمة الهجاء المقْذِع الذي عُرِفَ به جرير ، ولكنَّ الإتيان بها في سياق بحر البسيط مَكَّنَ لها أن تكون أشدَّ وقعـــًا ، وأسرع في الوصول إلى أُذن الخصْم .

والأمثلة في تلك القصيدة كثيرة على إبداع جرير في فخره وهجائه من خلال استخدامه لبحر البسيط .

وأمَّا إذا انتقلْنَا إلى القصيدة الثَّانية فنرى أنَّ جريرًا قد بدأها بثلاثة عشر بيتًا يـــذكر في أولها التحيَّة على دار حبيبته وعلى ساكنيها . تلك الدَّار التي ما كاد يعرفها بســـبب بعـــده الطويل عنها ، ثمَّ يذكر الأطلال في ثلاثة أبيات من ضمن تلك الأبيات الثلاثة عشر ، وهي أبيات غاية في الجمال ، قال فيها [١] :

إِذَا أَقُــولُ : تَرَكْتُ الْجــَــهْلَ ، هَيَّجَنـــي
رَسْــمٌ بِذِي الْبَيـــْـضِ أَوْ رَسْــمٌ بِــدُوَّارِ .

تُمْسِـــي الرِّيَــاحُ بِــهِ حَنَّانَــةً عُجــُــلاً
سَــوْفَ الــرَّوائـــِـمِ بَوًّا بَيــْــنَ أَظْــآرِ . [2]

هَلْ بِالنَّـــقِيـــْــعَةِ ذَاتِ السِّـــدْرِ مِنْ أَحَدٍ
أَوْ مَنْبــِـتِ الشِّيـــْـحِ مِنْ رَوضــَاتِ أَعْيَارِ ؟ .

نلاحظ جمال المعاني التي صيغتْ في قوالب بحر البسيط ، وكيف بدا رونقُها وبهاؤها .

ثمَّ تابعَ جريرٌ بعد ذلك بقيَّة المقدِّمة التي كانت – كما أسلفْت – في ثلاثة عشر بيتًـــا شَرَعَ بعدها في الفخْر في أكثر من عشرين بيتًا ، بدأهُ بقوله [٣] :

قَوْمِـــي تَمِيْـــمٌ هُـــمُ الْقَـــوْمُ الَّذِيـــنَ هُـــمُ
يَنْفُـــونَ تَغْــلِبَ عَـــنْ بَحْــبُوحَــةِ الــدَّارِ .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

[٢] عُجُلاً : أراد الرياح لحنينها وهو صوت هبوبها الذي يشبه صوت النَّاقـــة الـــتي ذُبِـــحَ ولدها . سوف الروائم : مفردها رؤوم : الأم التي تعطف على ولدها .
بوًّا : البو ولد الناقة . أظْآر : جمع ظئر ، وهي الـــمُرْضِع من النوق .

[٣] المصْدَر السَّابِق ، ص ١٤٢ .

النَّازِلُــونَ الْحِمَــى ، لَــمْ يُرْعَ قَبْــلَهُـــمُ
وَ الْــمَــانِــعُــونَ بِلاَ حِــلْــفٍ وَ لاَ جَــارِ .

وما كان لجريرٍ أن يفخرَ في تلك الأبيات الكثيرة إلاَّ لأنَّــه وجَــدَ في بَحْــر البســيط الرَّاحة ، و الإبداع ، و الغزارة ، إلى جانب تلك القافية الرائية الرائعة الــتي لهــا جرسُــهَا الفخْري الــمُمَيَّز .

بعد ذلك أخذ جريرٌ في هجاء الأخطل فيما تبقَّى من أبيات القصيدة ، وهي أحدَ عشرَ بيتًا ، بدأها بقوله [1] :

يَا خُــزْرَ تَغْــلِبَ إِنِّي قَــدْ وَسَمْــتُكُــمُ
عَلَــى الأُنُــوفِ وُســُـومًا ذَاتَ أَحْــبَارِ .
لاَ تَفْــخَــرُنَّ فَــإِنَّ اللهَ أَنْــزَلَــكُــمْ
يَا خُــزْرَ تَغْــلِبَ دَارَ الــذُّلِّ وَ الْــعَــارِ.
مَا فِيْكُــمُ حَكَــمٌ تُرْضَى حُــكُومَــتُــهُ
فِي الْمُسْــلِمِيــنَ ، وَ لاَ مُسْتَشْــهَدٌ شَارِي .

نلاحظ كيف ساعد بَحْرُ البسيط جريرًا في إيصال هجائه قويًّا وسريعًا إلى خصْــمه ، ثمَّ توالت الضربات الموجعة للأخطل وقومه وأمِّه كما نقرأ في نهاية القصيدة .

كما نلْحظ الجرْس الموسيقي الذي لا يخفى من تكرار التَّفْعيلة (مُسْــتَفْعِلُنْ) بــنفس الحروف في مسْتهل الشَّطْر الأول من البيت الأوّل (يَا خُزْرَ تَغْــ/)، وفي مسْتهل الشَّــطْر الثَّاني من البيت الثَّاني ، وما لتلك الموسيقى من وقعٍ مؤلم في نفس المهجوِّ خاصَّةً أنَّها تحمــلُ معها صفةً معيبةً من صفات التّغْلبيِّين وهي أنَّهم خُزْر العيون .

❖ ثالثًا : بَحْر الطَّويل :

((الطَّويل سُمِّيَ طويلاً لِمَعْنَيين : أحدهما أَنَهُ أطول الشِّعْر ، لأنَّــهُ لَــيْسَ في الشِّــعْر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية و أربعين حرفًا غيره . والثَّاني أنَّ الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد و الأسباب بعد ذلك ؛ و الوتَد أطول من السَّبب ، فَسُمِّيَ لذلك طويلاً .)) [2]

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٧ .

[2] الوافي في العَرُوض و القوافي ، ص ٣٧ .

وأوزانه : (((فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن)) مرَّتين ، ولا يكون إلاَّ تامًّا) [1] .

وقد ذكر جريرٌ على هذا البحْر تسعةً و عشرين بيتًا في قصيدته التي مطْلعها [2] :

أَصَاحِ : أَلَيْسَ الْيَوْمَ مُنْتَظِرِي صَحْبِي

نُحَيِّي رُسُومَ الْحَيِّ مِنْ دَارَةِ الْجَأْبِ .

واثنين و عشرين بيتًا في قصيدته التي مطلعها [3] :

أَجِدَّكَ لاَ يَصْحُو الْفُؤَادُ الْمُعَلَّلُ

وَقَدْ لاَحَ مِنْ شَيْبٍ عِذَارٌ وَمِسْحَلُ .

وفي ظنِّي أنَّ قِلَّة الأبيات في القصيدتَيْن اللَّتَيْن نظمهما جريرٌ على هذا البحْر ناتجة عن أنَّ جريرًا يريد أن يوصل الكلمة القويَّة المؤثِّرة في خصمه سريعًا ودون إطالة ، حتَّى يكون لها الوقْع المناسب العنيف ، وهذا ما ليس مُتَحقِّقًا في بحْر الطويل .

فإذا أخذْنا إحدى القصيدتَيْن اللَّتَيْن قالهما جرير على بحْر الطَّويل ، وهي قصيدته : (أَصَاحِ أَلَيْسَ الْيَوْمَ مُنْتَظِرِي صَحْبِي) ، نجدُ أنَّهُ لم يخْتر بحْر الطويل من تلقاء نفسه ، وإنَّما نظم قصيدته عليه ليساير ما ابتدأ به خصْمُهُ من وزْنٍ و قافيةٍ ، فقد قال الأخطل في مطلع قصيدته التي نقضَها جريرٌ [4] :

عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا آلَ عَيْلاَنَ كُلَّكُمْ

وَأَيُّ عَدُوٍّ لَمْ نُبِتْهُ عَلَى عَتْبِ .؟

ولعل جريرًا لم يكن راضيًا ولا مقتنعًا أن ينظم قصيدته على هذا البحر ، وفي هذه الظروف ، وربَّما يؤيد هذا الاعتقاد أن أبيات قصيدته لم تتجاوز التسعة و العشرين بيتًا ، أمضى ستَّة أبيات في مقدمتها في ذكر الأطلال و الظَّعائن ، وتسعة أبيات في فخْره بقومه ، و الإشادة بكرمهم وشجاعتهم ، وما بقي من القصيدة كان مزْجًا بين هجائه للأخطل وقومه ، و بين فخْره بالقيسيِّين .

---

[1] العَرُوض القديم أوزان الشعر العربي وقوافيه ، ص ١٠١ .

[2] نقائض جرير والأخطل ، ص ١٠٩ .

[3] المصدر السَّابق ، ص ٦٤ .

[4] المصدر السَّابق ، ص ٩٧ . وهذا هو مطلع قصيدة الأخطل كما وردتْ في النقائض .

وقد يكون جريرٌ محقًّا – إن صحَّ الاعتقاد السَّابق – في أن يُحْجِمَ عن الإكثار من نظم أبيات الهجاء على البحر الطويل ، فحتَّى يسْمع الأخطلُ ما بعد كاف التَّشْبيه في مثل قــول جرير [١] :

سَتَعــْــلَمُ مَا يُغْنــِي الصَّلِيْبُ إِذَا غَــدَتْ

كَتــَائِبُ قَيْــسٍ كالْمُــعَــبَّــدَةِ الْجُــرْبِ .

فإنَّهُ يحتاج إلى وقْتٍ ليس بالقليل إذا مــا قــورنَ بِبقِيَّــة بحــور الشِّــعْر ، لاســيَّما القصير منها .

وإذا كان جريرٌ قد حرص حرصًا شديدًا في أنْ يُشَبِّهَ كتائب القيسيِّــيــن بالإبــل الــمَطْلِيَّةِ بالقَطِران ، وما راعاه في ذلك من دِلالة على ضخامة تلك الكتائب وتزاحمها حتَّى تبدو كأنَّها سوداء كسواد تلك الإبل المطليّة ، فإنَّ من حَقِّه أن يَصِــلَ ذلــك التَّشــبيهُ إلى خصْمه سريعًا ، وذلك ما لم يكن متأتِّيــًا مع بحر الطويل ، ومع وقوع ذلــك التَّشــبيه في نــهاية البيت .

ومثل ذلك يُقال في قول جرير : (خَضْبٌ عَلَى خَضْبٍ) ، في بيــت لــه في نفــس القصيدة ، حين قال [٢] :

فَــوَارِسَ أَمْــثــَــالَ الْــهــُــذَيْلِ رِمــَاحُهــُــمْ

بِهــَا مِنْ دِمــَاءِ الْقَــوْمِ خَضْبٌ عَلَــى خَــضْبِ .

فالنتيجة التي يفخر بها جرير أمام الأخطل ، و التي يريد أن يوصلها إليه سريعًا من كون رماح القيسيِّين قد ارْتَوَتْ من دماء التَّغلبيِّين ، وأَصْبَحَتْ وكأَنَّها مخضَّبةٌ ؛ تلــك النتيجــة جــاءت متــأَخِّرَةً وبعْــد جهْــد جهيــد ، وهــذا مــا لا يحبِّــذه جرير – في ظني – .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

(٢) المصْدر السَّابِق ، نفس الصفحة .

❖ **رابعاً : بــحــر الوافــر :**

((سُمِّيَ وافرًا لوفور أجزائه)) [1] ، و ((وزن الشَّطْر الواحد من هذا البحــر هــو : مُفَاعَلَتُنْ + مُفَاعَلَتُنْ + فعولنْ)) [2] .

و ((ليس لـــهذا البحر إلاَّ نوع واحد من القصائد هي التي تنتهي أشطُر أبياها بالمقياس ((فعولن)) ، أمَّا في حشو البيت فنجد المقياس ((مفاعلتن)) ، محــرَّك الــلاَّم أحيانًــا ، وساكنها أحيانًــا أُخــرى ، وكــلا الْحَــالَيْن ســواء في نســبة الشــيوع ، وحُسْــن الموسيقى ، تستريح إليها الآذان ، وتطمئن النفــوس عنــد السَّــمَاع أو الإنشــاد .)) [3]

وهو بحرٌ سريعٌ في لحاق عجزه بصدْره ، فكــأنَّ عجــزه منســلخ مــن صــدْره ، و متولِّد عنه .

وقد نَظَم جريرٌ على هذا البحر قصيدتَيْن ، كانت إحداهما في اثنين و أربعين بيتًا ، وهي القصيدة التي مطلعها [4] :

أَجَــدَّ الْيَــوْمَ جِيــرَتُكَ احْتِــمَــالاَ

وَ لاَ نَهــْــوَى بِــذِي الْعُــشَــرِ الزِّيَــالاَ .

وكانت الثَّانية في تسعة عشر بيتًا ، وهي القصيدة التي مطلعها [5] :

أَتَذْكُــرُهُــمْ وَ حَاجَتُــكَ ادِّكَارُ

وَقَلْــبُــكَ ، فِي الظَّعَــائِــنِ مُسْــتَــعَــارُ .

إِنَّ أغلب أبيات القصيدة الثَّانيَة التي مطلعها البيت السَّابق لا يمكن أن تستغنى صدورها عن أعجازها ، فالمعنى الذي يكون في صدْر البيت يَتَمِّمُهُ المعنى الذي يأتــي في عجزه .

---

[1] الوافي في العَرُوض و القوافي ، ص ٦٩ .

[2] موسيقى الشِّعْر ، ص ٧٦ .

[3] المرجع السَّابِق ، نفس الصفحة .

[4] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٩١ .

[5] المصْدر السَّابِق ، ص ١٣١ .

ومثالٌ على ذلك قول جرير [1] :

سَيَعْـــلَــمُ مَنْ يُحَــــارِبُ أَنَّ قيــسًا

صَنَـــادِيـــْـدٌ ، لَهـُـــمْ لُجَـــجٌ غِـــمَارُ .

نلاحظ أَنَّ الحرف النَّاسِخ (أنَّ) ، واسمه (قيسًا) ، وَقَعَا في نِهاية الشَّطْر الأوَّل مـــن البيت ، بينما وقع خَبَر الحرف النَّاسخ في بداية الشَّطْر الثَّاني ، ومعلومٌ أنَّ الخبرَ هــو الجـــزْء الذي يتَمِّم الفائدة ، وعلى ذلك فإِنَّ صدْر البيت لا يستغني عن عجزه ، وهذه ميزَةٌ يمتاز بها بحر الوافر كثيرًا .

وإذا تحدَّثْتُ عن القصيدة الأولى فإِنَّني قد لاحظتُ أنَّ جريرًا قد وزَّع أبياتها على النَّحْو التَّالي :

- ستة عشر بيتًا في مُقَدِّمة القصيدة اشتملَتْ على ذِكْر الأطلال و الظَّعائن .
- ثُمَّ ما يقرب من سبعة أبيات جاءت بعد المقدِّمة ضمَّنَهَا جريرٌ فخْرَه ببني تميم علـــى نَحْوٍ من الاعتزاز و الثِّقَة ، كما في قوله [2] :

أَلَــمْ تَــرَ أَنَّ عِـــزَّ بَنِــــي تَمِـيـــْـــمٍ

بَنَــــاهُ اللهُ يَـــوْمَ بَـــنَـــــى الْجِـبَـــالاَ .

وقد ساعده في ذلك بحرُ الوافر وما فيه من سرعة وَ نَغَمٍ متلاحق .

وكما نلاحظ أنَّ الشَّطْر الأوَّل لا يكتمل معناه إلاَّ بالشَّطْر الثَّاني .

- ثُمَّ جَعَل جرير ما بقي من أبيات قصيدته ، وهي سبعة عشر بيتًا ، كلها في هجـــاء الأخطل و تغلب و مايدور في فلكهما ، هجاءً مقْذعًا عنيفًا أقلُّهُ حين قال [3] :

إِذَا مَـــا كَــــانَ خَالُـــكَ تَــغْـــلِبِـيًّا

فَبَــــادِلْ إِنْ وَجَـــدْتَ لَـــهُ بِــــدَالاَ .

---

[1] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٣٢ .

[2] المصْدر السَّابِق ، ص ١٩٤ .

[3] المصْدر السَّابِق ، ص ١٩٦ .

فالقصيدة يمكن أنْ تُصنَّف على أنَّها من قصائد الهجاء الُمقْذِع حيث مكَّنَ بَحْرُ الـوافر لمعاني الهجاء أن تتوالى سريعًا في أُذن الأخطل ، وكأنَّها ضربات متلاحقة وهـذا مـا أَرَادَهُ جرير .

* * *

وقد نوَّع جرير في بحوره وقصائده بين القافية المضمومة ، نحو قوله [١] :

قُلْ لِلـدِّيـارِ : سَـقَى أَطْلاَلَـكِ الْمـَـطَرُ
قَدْ هِجـْـتِ شَوْقـًا وَمَاذَا تَنـْـفَـعُ الذِّكَـرُ .

وبين القافية المفتوحة ، كما في قوله [٢] :

لَمْ نَلْـقَ مِثْـلَـكِ بَعْدَ عَهـْـدِكِ مَنْزِلاً
فَسـُـقِيْتِ مِن سَـبَلِ السِّمـَـاكِ سِـجـالاَ .

ونلحظ في الشَّطر الثَّاني تكرُّر حرف السِّين وهذا التِّكرار له أثره الموسـيقي الواضـح لأنَّ حرف السِّين حرفٌ صَفيري .

وبين القافية المكسورة ، كما في قوله [٣] :

تُخَـبِّـرُ مَنْ لاَقَـيْتَ أَنَّـكَ لَـمْ تُـصِبْ
عِثـَارًا ، وَقَـدْ لاَقَـيْتَ نَكْـبًا عَلَـى نَكْبِ .

جَرْس الألفاظ في البَديع :

لم يغفل جرير في شِعْره عنصرًا مُهِمًّا من عناصر الموسيقى ، وهو عنصر البديع بمختلف أشكاله ، ويهمنا هنا ما يمكن أن نطْلق عليه البديع اللَّفظي ، ((هذا النَّوع من فنِّ البـديع وثيق الصِّلة بموسيقى الألفاظ ، فهو ليس في الحقيقة إلا تفنُّنًا في طرق ترديد الأصـوات في الكلام حتَّى يكون له نَغَمٌ وموسيقى ، وحتَّى يسترعي الآذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه .)) [٤]

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٢) المصْدر السَّابق ، ص ٨٤ .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ١١٤ .

(٤) موسيقى الشِّعر ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ومن ألوان البديع اللَّفظي ما يسمَّى ((ردَّ الْعَجز على الصَّدْر)) ، ((وهو في النَّظْم أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في صدْر المصراع الأول أو آخره ، أو صَدْر المصراع الثَّاني .)) [1] ، ومن أمثلته عند جرير قوله [2] :

بَكَى دَوْبَلٌ لاَ يُرْقِئ اللهُ دَمْعَهُ

أَلاَ إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الذُّلِّ دَوْبَلُ . [3]

فقوله في آخر الشَّطر الثَّاني : (يبكي دَوبَلُ) مردودٌ لِمَا صدَّر به البيت (بَكَى دَوبَلٌ) فكأنَّه إضافة إلى رغبته في التكرار لما فيه من تأكيد المعنى ، أراد – أيضًا – تكرار النّغمة الموسيقيَّة في حشو البيت ليتكرَّر معها المعنى في نفوس السَّامعين .

وقال جرير [4] :

لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ .

فقوله : (نحن أفضل) ، في نهاية الشَّطر الثَّاني مردودٌ على قوله : (لنا الفضل) ، في بداية الشَّطر الأول من البيت ، فهو يريد أن يؤكد المعنى وأن يكرِّر النَّغمة الموسيقيَّة بهذا النَّوع من البديع اللَّفظي ، إضافةً إلى ما نلحظه من تكرار لصوت (الفاء) في (الْفَضْل) و (في) و (أَنفك) و (أفضل) ، مِمَّا يضفي على البيت أكثر من نغْمة موسيقيَّة ، وجرْس له إيقاع يؤثِّر في أُذن السَّامع .

فقد استخدم جريرٌ في البيت السَّابق عددًا من النَّغمات الموسيقيَّة متمثِّلة في رد العجر على الصَّدر ، والنغمة المتولدة من تكرار حرف الفاء ، ونغمة القافية ، إضافة إلى نغمات

---

[1] علم البديع ، د: عبد العزيز عتيق ، دار النَّهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥هـ ، ص ٢٢٦ والتَّعريف نقلاً عن الخطيب القزويني . ويقصد بقوله : (أحدهما) أي أحد اللَّفظين الـمُكَرَّرَيْن أو المتجانسَيْن .

[2] نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٦ .

[3] دَوْبَل : رجلٌ من بني تغْلب ، وقد بكى لفعل الجحَّاف بهم من أجل زرْعٍ لأمِّ دوبل وكان هذا سبب الحرب بين تغلب وقيس . انظر المصدر السَّابِق ، نفس الصفحة .

[4] المصْدر السَّابق ، ص ٦٩ .

الوزن الداخلية ، كلّ ذلك كان له الأثر الواضح في أن يعْلق المعنى في أُذن السَّامع ، وفي عقله وقلبه ناهيك عن رسوخ البيت وبقائه محفوظًا في أذهان السَّامعين يكرِّرُونه دون مَلَلٍ أو سأمٍ .

- **التَّصْريع :**

قال عنه ابن رشيق : ((فأمَّا التَّصْريعُ فهو ما كانت عَرُوض البيت فيه تابعة لضَرْبه تنقص بنقْصه وتزيد بزيادته)) [١] ، ويكون التَّصْريعُ في بدايات القصائد لما له من نَغَمٍ مُؤثِّر ، وموسيقى واضحة ، فكأنَّ الشَّاعر بهذا اللَّون من البديع يريد أن يُنبِّه السَّامع إلى قافية البيت التي ستسير عليها بقيَّة القصيدة .

((ولِلْقَافية موضعان ، أحدهما يستعمل فيه على سبيل الاستحباب ، وآخر يستعمل فيه على سبيل اللزوم . فالَّذي يستحب فيه عَرُوض البيت . والذي يلزم فيه ضرْبه)) .[٢]

ومن أمثلة التَّصريع في نقائض جرير مع الأخطل ، قوله في مطلع إحدى نقائضه [٣] :

حَيِّ الْغَدَاةَ بِرَامَةَ الأَطْلاَلاَ

رَسْمًا تَحَمَّلَ أَهْلُهُ فَأَحَالاَ . [4]

نلْحظ اتِّفاق نهاية شَطْري البيت : (الأطلالا) ، (أحالا) ، وذلك يُعْطي نغمةً وموسيقى ، إضافة إلى الصَّوت الموسيقي الناتج عن المدِّ ثمَّ اللاَّم ثمَّ المدّ المطْلق بعدها ، كلّ ذلك له نغمته الخاصَّة في بداية القصيدة وكأنَّما يريد الشَّاعِر تنبيه أُذن السَّامع لِمَا سيأتي من نغمة في بقيّة أبيات القصيدة .

هذا وقد التزم جرير بالقافية في نهاية كل بيت من أبيات هذه القصيدة .

---

[١] العُمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده ، ١ / ١٥٦ .

[٢] انظر كتاب القوافي ، القاضي التنوفي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الثَّانية ، ١٩٧٨م ، ص ٧٥

[٣] نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٣ .

[٤] رامَة : نبعة يشرب منها بنو قيس . أحالاَ : تبدَّلَ .

ومن ذلك – أيضًا – ما جاء من تصريع في مطلع القصيدة المشهورة لجرير التي قال في أوَّلها (١) :

قُلْ لِلدِّيَــارِ : سَقَى أَطْــلاَلَــكِ الْمَــطَرُ
قَدْ هِــجْتِ شَــوْقــًا ، وَمَــاذَا تَنْفــَـعُ الذِّكَرُ .

حيث اتَّفقَت النَّغمة بسبب التَّصْريع في (الْمَطَرُ) و (الذِّكَرُ) ، وقد التزم جرير بالتَّصْريع في جميع قصائده التي نقض بها قصائد للأخطل .

- **نَغَم الألفاظ الداخلي في حشْو البيت :**

١ – نَغَم الاسم والفعْل :

إنَّ مِمَّا يسترعي انتباه السَّامع تلك النَّغمة الموسيقيّة الداخليَّة في حشو البيت عند جرير والناتجة عن تكرار حروف كلمتَيْن متشابهتَيْن إلى حدٍّ كبير ، فتكون الكلمة الأولى اسمًا وبعده يأتي الفعْل .

كما جاء في قول جرير (٢) :

فَيَومــًا يُدَانِيــنَ الْهَــوَى غَيــْرَ مَا صِبًا
وَيَومــًا تَــرَى مِنْهــُنَّ غُــولاً تَغــَوَّلُ . (3)

فهذا البيت فيه تقسيمٌ ظَهَر في (يومًا) ، في بداية الشَّطْرين ، ومقابله في المعنى بين شطْرَي البيت ، وما يعنينا هنا هو ذلك النَّغَم والإيقاع الناتج من موسيقى كلمتي (غولاً) و (تَغَوَّلُ) ، فتكرار الحروف مرّةً في الاسم (غُولاً) ، ومرَّة في الفعل (تغوَّل) ، وذلك على التَّوالي أدَّى إلى إحداث جرْس موسيقيّ في نهاية البيت ، فضلاً عمَّا أحدثتْه القافية من نَغَم . وهذا الإيقاع الناتج من نَغَم الاسم ثمَّ الفعل بعده بتكرار حروفهما أراد من خلاله جرير أن يرسِّخ المعنى المراد ، إضافة إلى تسهيل حفظ البيت وإمكانيَّة ترديده .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٢) المصْدر السَّابق ، ص ٦٤ .

(٣) تَغَوَّلُ : أي تتغوّل بمعنى تتلوّن وتتبدَّل .

٢- نغم الفعل والاسم :

وأحيانًا يأتي جرير في نهاية البيت باسمٍ يعقبه فعْل مباشرة مع تماثلهما في الحروف إلى حدٍّ كبير ، ومن ذلك قوله [(١)] :

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْدِّيَارِ وَأَهْلِهَا

والدَّهْرِ كَيْفَ يُبَدِّلُ الأَبْدَالاَ .

فقد جاء جرير في البيت السَّابق بكلمتَيْن اتَّفقتَا في الحروف كثيرًا ، الأولى كانت فعْلاً (يُبَدِّل) ، أعقبه اسمٌ مباشرة (الأبدالا) ، وقد نتج عن ذلك التَّشَابه في الحروف ، وعن التَّوالي بين الفعل والاسم ، جرْسٌ موسيقي لا يخفى ، إضافةً إلى النغمة المطلقة في قافية البيت.

ومن ذلك – أيضًا – قول جرير [(٢)] :

رُفِعَ الْمَطِيُّ بِكُلِّ أَشْعَثَ شَاحِبٍ

خَلَقِ الْقَمِيصِ ، تَخَالُهُ مُخْتَالاَ .

فجاءت كلمة (تَخَال) ، وهي فعل ، وأعقبها مباشرة كلمة (مختالا) ، وهي اسم ، وقد اتَّفَقَتَا في الحروف ، وتولَّد من تعاقبهما وتشابه حروفهما ذلك النَّغَم والجرْس الذي ترتاح له أُذن السَّامع ، ويسهل معه حفظ البيت ، وترديده ، وفهم معناه .

ونلحظ – كذلك – نفس الأثر الموسيقي في النَّغَم والتأثير على أُذن السَّامع في نهاية قول جرير في البيت التالي [(٣)] :

وَالتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى

حَكَ اسْتَهُ ، وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالاَ .

فبالإضافة إلى ما سبق من نَغَمٍ موجود في كلمة (تَنَحْنَحَ) ، وهي كلمة تُحاكي صوت الفعل ، وتجعلنا نتخيَّل حالة البخيل وهو يصدر ذلك الصَّوت ، جاءت – كذلك – كلمتا : (تمثَّل ، الأمثالاَ) ، متشابهتَيْن كثيرًا في الحروف ، وقد كان في

---

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

(٢) المصْدر السَّابق ، ص ٨٥ .

(٣) المصْدر السَّابق ، ص ٨٩ .

تواليهما (فعلٌ يعقبه – مباشرة – اسمٌ) جرْسٌ موسيقي لطيفٌ ، مع ما أضافَتْهُ الكلمتـان من صورة أُخرى من صور البخيل حيث يبحث عن الحـُجَج والأعذار فيما يتمثلـه مـن أمثال (*) .

وقد أتى جريرٌ بنفس الظاهرة السَّابقة وهي أن يأتي الفعل يعقبُهُ الاسم مباشـرة مـع تشابههما في الحروف وكذا المعنى في نهاية الشَّطر الأول في قوله (١) :

إِنَّ الْقَـوَافِـي قَدْ أُمِـرَّ مَرِيـرُهَـا

لِبَنِـي فَدَوْكَـسَ إِذْ جَدَعْـنَ عِقَـالاَ . (2)

وفي تكرار جرير لحرفَي الميم والراء في كلمتي (أُمِرَّ و مريرها) ما يجعل تكرار النَّغمـة الموسيقيّة يفاجئ المستمع في بداية البيت قبل أن يصل إلى نهايته ، إضافة إلى تشابه الحـروف وتوالي التَّرْتيب حيث تقدَّم الفعل ثمَّ أعقبه مباشرة الاسم .

٣- نَغَم الاسم والاسم :

وقد لاحظتُ أنَّ جريرًا ربَّما جاء بالاسم ثمَّ أعْقَبَهُ باسـم بعـده مباشـرة يوافقـه في الحروف ، وهذا ما يمكن أن يُطْلَق عليه (التِّكْرار) ، ((وحدُّه هو : دِلالةُ اللَّفظ على المَعْنَى مُرَدَّدًا)) (٣) ، ولاشَكَّ أنَّ له أثره الملحوظ في تكرار النَّغمة وإحداث الجرْس الموسيقي الرائع الذي يريح الأُذن ويؤدي المعنى في أجمل صورة ومن ذلك قول جرير (٤) :

فَوَارِسَ أَمْثَـالَ الْهُـذَيْـلِ رِمَاحُـهُـمْ

بِهَا مِنْ دِمَـاءِ الْقَوْمِ خَـضْبٌ عَلَـى خَضْبِ .

(*) ((أخبر أنَّهم يتضيّفون النَّاس فإذا أتَوا يَتَنَحْنَح أحدُهم حتَّى يُعْلَمَ مكانُهُ وتمثَّل الأمثال التي فيها ذِكْرُ القِرَى حتَّى يُذَكِّر بنفْسِهِ)) ، انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٩ .

(١) المصْدر السَّابق ، ص ٩٧ .

(٢) أُمِرَّ مريرها : أي أُحْكِمَتْ صنعتُهَا . بنو الْفَدَوْكَسِ : رهط الأخطـل ، والفـدوكس جدُّهُ . وعِقال : جدّ الفرزدق .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق د : أحمـد محمـد الحـوفي و د : بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١هـ ، ٥,٤/٣ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

فقد تكرَّرت كلمة (خضب) ، وتكرَّر معها النَّغم ، فتوالت في هذا البيت عدة نغمات ، منها نغمة البحر ، ونغمة التَّكرار ، ونغمة القافية . وهذا التكرار يذكرنا بقوله تعالى : [فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ] {البقرة:٩٠} .

ومن ذلك قول جرير [١] :

تُخَبِّرُ مَنْ لاَقَيْتَ أَنَّكَ لَمْ تُصِبْ

عِثَارًا ، وَقَدْ لاَقَيْتَ نَكْبًا عَلَى نَكْبِ .

فنلحظ تكرار الاسم (نكْب) مرَّتَيْن متتاليتَيْن فَصَل بينهما حرف الجرِّ (على) ، وهذا التِّكرار يُقوِّي المعنى من خلال مضاعفة المصائب والنَّكبات التي مُنِيَ بها الأخطل ، وهذه المضاعفة جاءت من خلال تكرار لفظة (نكْب) . وإضافة إلى ذلك فإنَّ النَّغم الحاصل نتيجة هذا التَّكرار يضفِي على البيت روعةً وموسيقى بحيث يسهل حفظه وتكراره وبالتَّالي انتشاره ، وهذا ما يصبو إليه جرير .

وقبل الانتقال إلى شاهد آخر أُحبُّ أن أذْكر المقابلة الحاصلة في هذا البيت بين شطرَيْه وذلك من خلال قوله في الشَّطر الأول : (لم تُصِب عثارًا) ، وما يقابل ذلك في الشَّطر الثَّاني وهو قوله : (لاقيت نكبًا) ، وهذه المقابلة زادت من إيقاع البيت ومن نَغَمِهِ .

وقال جرير [٢] :

يَا صَاحِبَيَّ دَنَا الرَّوَاحُ فَسِيرَا

لاَ كَالْعَشِيَّةِ زَائِرًا وَمَزُورَا .

فقد كَرَّرَ جرير الاسم بعد الاسم في قوله : زائرًا و مزورًا ، ولا يخفى ما في ذلك من نَغَمٍ و موسيقى .

وقال جرير [٣] :

مَدَّتْ بُحُورُهُمُ فَلَسْتَ بِقَاطِعٍ

بَحْرًا يَمُدُّ إِلَى الْبُحُورِ بُحُورَا .

---

[١] نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٤ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١١٩ .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٢٣ .

وهنا نجد روعة تكرار الاسم بعد الاسم في قوله : البحور بحورا ، وما في ذلـــك مـــن موسيقى ونَغَم ، وزاد هذه الموسيقى أنْ كُرِّرَتْ كلمة (البحر) أربع مرَّات في صور مختلفة يترسَّخ معها المعنى المراد ، ويسهل على السَّامع حفظ البيت وترديده .

وقال جرير [١] :

إِنَّا نُســَـــوِّدُ فِي الْحَــيـــَاةِ حَـــيـــَاتَـــنَا

وَيَســـُــودُ مَنْ دَخـــَـــلَ الْقُــبُــورَ قُــبُــورَا .

كَرَّرَ جريرٌ الاسم بعد الاسم في قوله : القبور قبورًا في نهاية البيت وهذا التَّكرار يحدث موسيقى ونغمًا تأنس به أُذن السَّامع .

كما كرَّر الاسم بعد الاسم في نهاية الشَّطر الأول حين قـــال : (الحيـــاة حياتنـــا) ، فأضاف بذلك نغمةً جديدةً مستساغة في البيت .

ومثل ما قلناه في الشَّواهد السَّابقة نقوله في قول جرير [٢] :

خَالَفْــتُـــمُ ســُـبُلَ النُّبُــوَّةِ فَاخْــضَـــعُـــوا

بِجِــزَا الْخَلِيْفـــَـــةِ ، والذَّلِــيْـــلُ ذَلِــيْـــلُ .

نلحظ أنَّ تكرار الاسم بصورة متتالية في قوله : الذَّليل ذليلُ يُعَمِّق من معنى الذِّلَّة الـــتي يعيشها التغلبيُّون ، فهي ذِلَّة تصل بِهم إلى الحضيض وليس بعدها من ذِلَّة ، وهـــذا مـــا أراد جرير أن يُحَقِّقَهُ من التَّكرار ، ومن الإيقاع والنَّغم المصَاحِبَيْن له .

٤- نَغَمُ الْفِعْلِ والْفِعْل :

وقد لاحظتُ أنَّ جريرًا كرَّر- كذلك – الفعل بصورة متتالية في نِهاية البيت وبحروف تتشابه كثيرًا ،

كما في قوله [٣] :

أَيَنْفَــَــعـــُــكَ الْــقــَـــرَارُ وَأُمُّ عَـــمــْـــرٍو

قـــَـــرِيـــبٌ لاَ تـــَــزُورُ ، وَلاَ تـــُــزَارُ . ؟

---

[١] نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٢٤ .

[٢] المصْدر السَّابق ، ص ١٨٤ .

[٣] المصْدر السَّابق ، ص ١٣٢ .

فقد كرَّرَ جريرٌ الفعل في نِهاية البيت ، ونوَّع بين البناء للمعلوم (تَــزُورُ) ، والبنــاء للمجهول (تُزَارُ) ، وفي ذلك إيقاع مناسبٌ يُوحي بالقرب والبُعْــد في نفــس الوقــت ، فالحبيبة قريبة ، ولكن زيارتها بعيدة .

٥ – نَغَمُ حُسْنِ التَّقْسيم :

وهو ((استقصاء الشَّاعر جميع أقسام ما ابتدأ به .)) [١]

ومن ذلك قول جرير [٢] :

قَوْمِــــي فَأَصْــلُــهُــمُ أَصْلِي ، وَفَرْعُهُــمُ
فَــرْعِي ، وَعَقْـــدُهُمُ عَقْـــدِي وَإِمْـــرَارِي .

فقد أكْسَبَ حُسْنُ التَّقسيم البيتَ نَغْمَةً ظاهرةً تتــناسب مع فخر الشَّاعر بقومه

وهناك موسيقى ناتجة – أيضًا – مـــن تكرار الكلمات : أصلهم أصــلي ، فــرعهم فرعي ، عقدهم عقدي .

* * *

(١) العُمْدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده ، ٢/٣٠ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٣ .

الْخَاتِـــمَةُ

وهكذا وصلْتُ إلى نـــهاية هـــذا البحـــث ، ومـــع وصـــولي إلى هـــذه النِّهايـــة اتَّضَـــحَتْ معـــالم صـــورة أحســـبها مشـــرقةً لِعَلَـــمٍ مـــن أعـــلام الشِّـــعر العـــربي القـــديم .. ربَّمـــا كـــان يعتريهـــا شـــيءٌ مـــن الضَّـــبابيَّة لـــيس في جانـــب مكانـــة صـــاحبها الشِّـــعريَّة ، أو إبداعـــه الشِّـــعْري ، إنَّمـــا في جانـــب التزامـــه الإســـلامي ، لاســـيَّما حـــين يفاجـــأ القـــارئ لـــديوان جريـــر بألفـــاظٍ متنـــاثرة في أبياتـــه هـــي غايـــة في البـــذاءة والفحْـــش ، فيصْـــدِرُ حكمَـــة مباشـــرةً علـــى الرَّجُـــل دون تمحـــيص أو تَرَيُّـــثٍ .. وبنظـــرةٍ متشـــائمة ينقصها العدل ، ويكتنفها الشنآن يُقْصَى ديوان الرَّجُلِ ، ويُسْدَلُ عليه السِّتار .!!

و الحقيقـــة الـــتي وَصَـــلْتُ إليهـــا أنَّ جريـــرًا كـــان علـــى ثغـــرةٍ مـــن الثَّغـــرات الـــتي يـــؤتى الإســـلام مـــن قِبَلِهَـــا ، فَسَـــدَّ تلـــك الثغـــرة بمـــا يســـتطيع ، وناضـــل و نـــافح ، ووقـــف في وجْـــه الأخطـــل ، وفنَّـــدَ افتراءاتـــه ، وأظهـــر سماحـــة الإســـلام ، وَبَـــيَّنَ الكـــثير مـــن شـــرائعه و شـــعائره ، و بالمقابـــل ســـلَّطَ الأضـــواء علـــى الـــدِّين المحـــرَّف لخصـــمه ، فَظَهَـــرَتْ ثقافـــة جريـــر الواســـعة ، وبـــرز إلمامُـــهُ بالجزئيـــات قبـــل الكليـــات في ذلك الدِّين المحرَّف الذي يدين به الخصم .

وكـــم كـــان ينـــتفضُ مـــا بداخلـــه مـــن التـــزامٍ وعِفَّـــةٍ إذا أوقعَـــهُ لِسَـــانُهُ في عِرْضِ أحد ، أو أغراه شيطانُهُ وزيَّنَ له هجاءَ مسلم أو مسلمة .

ولقـــد كـــان للإســـلام أثـــره الواضـــح الـــذي طغـــى علـــى شـــعر جريـــر عنـــدما نقـــض شـــعر الأخطـــل ، فركَّـــزَ علـــى جوانـــب كسْـــب الحســـنات في الإســـلام وأن تلـــك الحســـنات متنـــاثرة في كـــلِّ مكـــان لمـــن أراد أن يحصـــل عليهـــا ، فرأينـــا إشـــادته بالـــمُفَصَّلِ مـــن القـــرآن الكـــريم ، و باتِّبَـــاع سُـــنَّة النَّبِـــي - ﷺ - في السِّـــواك و الطَّهَـــارة ، و حُـــب الأنصـــار – رضي الله عنهم - وحديثـــه عـــن المســـاجد ، وعـــن تعظـــيم شـــعائر الله ، وعن الغَيْرة على المحارم ... ونحو ذلك .

أمَّا إذا جئنا إلى طريقة بناء القصيدة عند جرير عندما ينقض قصيدةً للأخطل ، فإنَّ أبرز ما استنتجتُهُ من ذلك هو اعتماد جرير على ثقافته الإسلاميَّة كعنصرٍ من عناصر القُوَّةِ الـــتي

جَعَلَتْ له الْغَلَبَة على خصْمه ، ثم اعتمــاده علــى قوَّتِــهِ الفنيَّــة ، وبراعتــه الشِّــعْريَّة ، إلى جانب تركيزه على النقاط المهمَّة التي تناولها الأخطل ليردّ عليها ، وإعراضه عن بعــض الموضوعات التي تطرَّقَ لها الأخطل إذا رأى أنَّ غيرها أوْلَى .

فالموضوعات التي يتناولها جرير بالردِّ هي الموضوعات المهمَّة التي تستحقّ الردّ خاصــةً أنَّــه أمام شاعر لا يدين بدين الإسلام .

وجرير له معجمُهُ اللُّغَوِيُّ الْمُمَيَّزُ الذي ينمُّ عن ثقافةٍ واسعة يتمتَّع بــها .. حيث ظهر لي أنَّ الرَّجُلَ يملك معجمًا حربيًّا ، ومعجمًا جغرافيًّا ، ومــعجمًا دينيًّا، ومعجمًــا علميًّــا تشريحيًّا ، إلى جانب ما يتمتَّع به من غزارة في اللُّغَة .

وفي حقيقـــة الأمـــر فـــإنَّني أخـــتم هـــذا البحـــث وفي نفْســـي منـــه أشـــياء ، لـــذلك أوصـــي البـــاحثين أن يكشـــفوا عـــن مكنوناتـــــها فَقَمِـــنٌ أن ينفع الله بــها ؛ وهي :

١- جرير شاعر خدم الإسلام ، وذبَّ عنه بما يستطيع .
٢- تساهل عبد الملك بن مروان في شأن الأخطل وتقريبه له .
٣- دراسة قصيدة : (قل لِلدِّيَارِ سقى أطلالك المطر) دراسة أدبيَّة مستفيضة .
٤- المقارنة بين قصيدتي (خَفَّ القطينُ) ، (وقل للديار سقـــى أطلالك المطر) ، و التَّوسُّع في ذلك .
٥- دراسة اهتمام جرير كشاعر مسلم بالنَّسَبِ وبِصِلَةِ الرَّحِمِ ، وإكثاره من ذكْـــر الأقارب بمراتبهم المختلفة كالأب و الأم و الأخ و العم و الخال ... خاصـــة في أثناء نقضه شعر الأخطل .

وختامًا أسأل المولى – عز و جل – ، أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهــه الكريم ، وأن يوزعني أن أشكر نعمته التي أنعم بــها عليَّ بأن أعانني على إنجــازه في ظـــل ما اكتنفني من أعمال و مشاغل ، وصلى الله وسلم على نبينا محمَّد وعلـــى آلــه وصـــحبه أجمعين .

فهْرست المصَادر و المرَاجِع

فهرست المصادر و المراجع

١- القرآن الكريم .
٢- الأركان الأربعة (الصلاة ، الزَّكاة ، الصَّوم ، الحج) في ضوء الكتاب و السُّـــنَّة مقارنة مع الديانات الأخرى ، أبو الحسن على الحسني النَّدوي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ .
٣- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمَّـد شـاكر ، مطبعـة المدني ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .
٤- الأعلام ، خير الدِّين الزِّركلي ، الطبعة الثَّالثة ، مكتبـة نـادي الطـائف الأدبي ، برقم ٩٥٥٦ .
٥- الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٥ .
٦- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق د: عبد الحميد هنـداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثَّانية ، ١٤٢٤هـ .
٧- البلاغة الواضحة ، علي الجارم ، مصطفى أمين ، دار المعارف ، مصـر ، الطبعـة (الحادية و العشرون)، ١٣٨٩هـ .
٨- البيان والتَّبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السَّلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .
٩- تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي – ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة السَّابعة .
١٠- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة د/ عبد الحلـيم النَّجـار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة .
١١- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٦هـ ، مكتبة النهضة المصرية .
١٢- تاريخ النَّقائض في الشِّعر العربي ، أحمد الشَّايب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضـة المصريَّة .
١٣- تأملات في سورة البقرة ، د/ حسن بن محمد باجودة ، مكتبة دار مصر .

١٤- التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة .
١٥- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ .
١٦- التوضيح في علم العَروض و القافية ، د. على نجيب عطوي ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربيّة السعوديَّة ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
١٧- جرير،د/محمد حمّود،دار الفكر اللبناني،بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى،١٩٩١م.
١٨- جرير رقَّة الصياغة وعذوبة اللَّفْظ وجزالة الشِّعْر ، د. عبد المجيد الحُرّ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ .
١٩- حقيقة النَّصرانية من الكتب المقدّسة ، على الجوهري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر .
٢٠- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض.
٢١- خُلُق المسلم ، محمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة العاشرة ،١٤١٣هـ .
٢٢- دراسة في البلاغة و الشِّعر ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
٢٣- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ .
٢٤- ديوان أبي تمَّام ، شرح إيمان البقاعي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ .
٢٥- ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء العُكْبري ، ضبطه و صححه مصطفى السَّقَّا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شَلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٧هـ .
٢٦- ديوان الأخطل ، شرح عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .

٢٧- ديوان امريء القيس ، تحقيق حنان الفاخوري ، دار الجيل ، بـيروت ، لبنـان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .
٢٨- ديوان امريء القيس ، ضبطه وصحَّحه الأستاذ / مصطفى عبـد الشَّـافي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان .
٢٩- ديوان جرير ، شرح حمدو طماس ، دار المعرفـة ، بـيروت ، لبنـان ، الطبعـة الأولى ، ١٤٢٤ هـ .
٣٠- ديوان جرير ، تحقيق و شرح كـرم البسـتاني ، دار صـادر و دار بـيروت ، بيروت ، لبنان ، ١٣٧٩هـ .
٣١- ديوان عبد الله بن رواحة و دراسة في سيرته و شعره ، د/ وليـد قصَّـاب ، دار العلوم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ .
٣٢- ديوان النَّابغة الذبياني ، شرح محمد الطَّاهر عاشور ، الشركة التونسيَّة للتَّوزيـع ، ١٩٧٦ .
٣٣- سِيَر أعلام النبلاء ، الذَّهبي ، تحقيق شعيب الأرنـؤوط ، مؤسسـة الرسـالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثَّالثة ، ١٤٠٢هـ .
٣٤- السِّيرة النبويَّة في ضوء القرآن و السنَّة ، دراسة محررة جَمَعَتْ بين أصالة القـديم ، وجِدَّة الحديث ، د. محمد بن محمد أبو شـهبة ، دار القلـم ، الطبعـة الثَّالثـة ، ١٤١٧هـ .
٣٥- سيرة النَّبي – ﷺ – ، ابن هشام ، راجعها : د. محمد خليل هـراس ، مكتبـة الجمهوريَّة.
٣٦- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق د / مفيد قميحـة ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ .
٣٧- شرح ديوان الأخطل التّغْلبيّ ، إيليا سليم الحاوي ، دار الثَّقافة ، بيروت ، لبنان .
٣٨- شرح ديوان جرير ، تاج الدِّين شلق ، دار الكتاب العربي ، بـيروت ، لبنـان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩هـ .

٣٩- شرح ديوان النَّابغة الذبياني ، سيف الدِّين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٩م .
٤٠- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقق أحمد بن عبدالغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر .
٤١- صحيح البخاري ، ضبطه ورقَّم أحاديثه ووضع فهارسه / محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار التَّقْوى للتُّراث ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ .
٤٢- صحيح سنن أبي داوود باختصار السَّند ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .
٤٣- صحيح سنن التِّرمذي باختصار السَّند ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ .
٤٤- صحيح سنن ابن ماجة ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ .
٤٥- صحيح مسلم ، تحقيق : أحمد زهوة ، أحمد عناية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ .
٤٦- صفوة التَّفاسير ، محمد علي الصَّابوني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة .
٤٧- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام ، شرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة .
٤٨- العَروض القديم أوزان الشِّعْر العربي وقوافيه ، د/ محمود علي السَّمان ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م .
٤٩- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، د/ إحسان النص ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م ، دار الفكر .
٥٠- عِلم البديع ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥هـ .

٥١- عِلْم العَروض و القافية ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النَّهضة العــربيَّة ، بــيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٧هـ .
٥٢- عِلْم المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النَّهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بــدون رقم طبعة ، ١٤٠٥هـ .
٥٣- العُمــدة في محاســن الشِّــعْر و آدابــه ونقــده ، ابــن رشــيق القــيرواني ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، لبــنان ، الطبعــة الأولى ، ١٤٢٢هـ .
٥٤- فتْح القدير الجامع بين فنَّي الرِّواية و الدِّراية من عِلْم التَّفسير ، الشَّوكاني ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
٥٥- فتْح المجيد شرح كتاب التَّوحيد ، الشَّيخ عبد الرحمن بن حسن بــن محمَّــد بــن عبد الوهَّاب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ .
٥٦- فن التَّقطيع الشِّعري و القافية ، د/ صفاء خلوصي ، مكتبة الــمُثنَّى ، بغــداد ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٧م .
٥٧- فــي الشِّعر الإسلامي و الأُموي ، د/ عبد القادر القطّ ، دار النَّهضة العربيَّــة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هـ .
٥٨- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، قدم له و علَّق حواشية الشيخ أبو الوفــا نصــر الهوريني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ .
٥٩- كتــاب الصِّــناعتين – الكتابــة و الشِّــعر – ، أبــو هــلال العســكري ، تحقيــق : د/ مفيــد قميحــة ، دار الكتــب العلميّــة ، بــيروت ، لبنــان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ .
٦٠- كتــاب القــوافي ، القاضــي التَّنــوفي ، مكتبــة الخــانجي ، مصــر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م .
٦١- لســان العــرب ، ابــن منظــور ، دار صــادر ، بــيروت ، لبنــان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

٦٢- اللؤلؤ و المرجان فيما اتَّفَقَ عليه الشَّيخان ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، ١٤٠٧هـ .
٦٣- المؤتلف والمختلف ، الآمدي ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
٦٤- المثل السائر في أدب الكاتب و الشَّاعر ، ضياء الدِّين ابن الأثير ، تحقيق د/ أحمد محمد الحوفي ، و د/ بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١هـ .
٦٥- محاضرات في النصرانيَّة ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨١هـ .
٦٦- محاضرات الموسم الثَّقافي لكليَّة اللُّغة العربيَّة ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٢هـ .
٦٧- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة.
٦٨- المستدرك على الصَّحيحَيْن ، الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨هـ .
٦٩- معجم البلدان ، ياقوت الحَموي ، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان .
٧٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشَّريف ، روجعت على طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، ضبطها ورتَّبها / محمد سعيد اللحام ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .
٧١- معجم المقاييس في اللُّغة ، ابن فارس ، تحقيق / شهاب الدِّين أبي عمرو ، دار الفكر للطِّباعة و النَّشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
٧٢- المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى و أحمد حسن الزَّيات ، و حامد عبد القادر ، و محمد علي النَّجَّار ، مطابع دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ .

٧٣- المغني و الشَّرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، للإمامَيْن موفَّق الدِّين و شمس الدِّين ابني قدامة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .
٧٤- مقدِّمة ابن خَلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
٧٥- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ابن الجوزيّ ، تحقيق الدكتورة / زينب إبراهيم القاروط ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة .
٧٦- الموسوعة المُيسَّرة في الأديان و المذاهب المعاصرة ، الندوة العالميَّة للشَّباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية .
٧٧- موسيقى الشِّعْر ، د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة .
٧٨- نقائض جرير و الأخطل ، الإمام الشَّاعر أبو تَمَّام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ .
٧٩- نقائض جرير و الفرزدق ، أبو عبيدة معْمر بن المثنَّى ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
٨٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النَّصارى ، ابن القيِّم ، تحقيق و دراسة د/ محمد أحمد الحاج ، دار القلم ، دمشق ، و الدَّار الشاميَّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .
٨١- الوافي في العَرُوض و القوافي ، الخطيب التبريزي ، تحقيق د / فخر الدِّين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ،سورية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ .
٨٢- وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خَلِّكان ، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر ، و دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
٨٣- http : //www.islameiat.com/ramadan/article.php?sid= 31
٨٤- http : //www.heartsctions.com/courage.htm

* * *

فَهْرست المحتَويات

فَــهْــرست المحتويات

* * *